محمد عبد الله عنان

تراجم إسلامية
شرقية وأندلسية

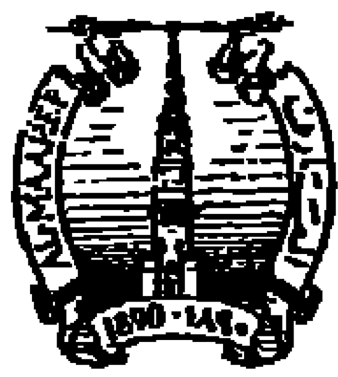


ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

تراجم إسلامية
شرقية وأندلسية

محمد عبد الله عنان

تراجم إسلامية شرقية وأندلسية



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

الطبعـــة الأولى
القاهرة سنة ١٩٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تناولت فى الأعوام الأخيرة ، وفى فرص ومناسبات مختلفة ، بالترجمة طائفة من أعلام التاريخ الإسلامى ، فى مختلف العصور والدول ، واجتمعت لدى منها طائفة مختارة ، رأيتها جديرة بأن تنشر مجتمعة فى مجلد خاص .

وتشغل تراجم العظماء فى آداب الأمم والحضارات العظيمة أسمى مكانة ، فأقطاب القادة والمفكرين ، والأمراء والساسة ، وأقطاب العلم والأدب والفن من كل ضرب ، هؤلاء جميعاً يأخذون مقامهم فى التاريخ القومى العام ، ثم يأخذون مكانهم فى تراجم خاصة ، تذهب أحياناً إلى البحوث النقدية المستفيضة التى تشغل مجلدات بأسرها ، وتخصص للمراجعة العلمية والدراسة العليا ، وتقتصر أحياناً على صور موجزة ولكن قوية شاملة تخصص لدرس الشباب والقراءة العامة ؛ ويخص هؤلاء العظماء بالدرس فى كل وقت وعصر ، وقد يصدر عن أحدهم عشرات التراجم والسير ، وكل منها تمتاز بمميزاتها الخاصة ، ولها مقامها العلمى والأدبى الخاص .

ولدينا من التراجم الخاصة فى الأدب العربى القديم تراث حافل ، وقد بدأت العناية بها فى عصر مبكر جداً . فمنذ القرن الثانى للهجرة يعنى الرواة والمؤرخون المسلمون بالسير والتراجم المفردة ، وفى مقدمتها سيرة النبى العربى وصحابته ، وسير

أقطاب الخلفاء والقادة فى عصور الإسلام الأولى . وقد لبثت تراجم العظماء الخاصة مدى قرون ، تملأ فراغاً كبيراً فى الآداب التاريخية العربية ؛ ولم تقف الترجمة عند نوع معين من العظماء ، بل شملت سير الخلفاء والقادة والأئمة ، ورجال السيف والقلم، والملوك والوزراء والعلماء والكتاب والشعراء من كل ضرب ؛ ومنها الموسوعات العامة ، ومنها المجموعات الخاصة التى تعنى بسير طوائف معينة أو أعلام عصر معين ، ومنها التراجم والسير الفياضة . وفى الآداب العربية من هذه وتلك تراث شاسع قد لا تحظى به أية آداب أخرى إذا استثنينا العصر الحديث الذى ركدت فيه الآداب العربية ؛ بيد أن هذا التراث يقف مع الأسف عند بدء تاريخ الأمم الإسلامية الحديث ، وينقطع سيره فلا نكاد نظفر فى ذلك العصر بآثار قيمة فى التراجم العامة أو الخاصة ، وهذه ثغرة فى آدابنا التاريخية لم نوفق إلى تداركها حتى اليوم .

وقد بلغ فن الترجمة العربية أوج ازدهاره منذ القرن السابع الهجرى ؛ وإذا لم يكن يتسع المقام للافاضة فى استعراض آثار السير والتراجم العربية الخاصة ، فإنا نرى أن نخص بالذكر منها موسوعة العلامة القاضى شمس الدين بن خلِّكان «وفَيات الأعيان» التى اشتملت على تراجم العظماء من كل ضرب . ولا ريب أن معجم ابن خلكان من أنفس آثار الترجمة العربية إن لم يكن أنفسها جميعاً ، فهو موسوعة شاسعة تحتوى على أكثر من ثمانمائة ترجمة لأعلام الأمم الإسلامية شرقاً وغرباً ؛ ومنها تراجم فياضة ؛ ومنها تراجم موجزة ؛ ولكنها تمتاز جميعاً بالتحقيق ودقة التصوير ونستطيع أن نقول إن ابن خلكان هو أول مؤرخ عربى جعل من الترجمة الخاصة فناً حقيقياً .

على أن الترجمة العربية القديمة لم تعرف الأسلوب النقدى ، ومنهج التحقيق العلمى دائماً ، بل لم تعرفه إلا فى فترات قليلة ، وفى أمثلة نادرة معينة ، مثل تراجم

العلامة شمس الدين السخاوى فى معجمه الضخم « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » فهى أسطع مثل للترجمة العربية النقدية ؛ ويرجع هذا النقص الفنى فى الترجمة العربية إلى أنها أزدهرت فى عصر كان التاريخ فيه أقرب إلى الرواية . ومع ذلك فإنها تمتاز بغزارة المادة و بكثير من عناصر التحقيق التاريخى ، وفى وسع المؤرخ الحديث أن يستخرج منها مادة نفيسة تصلح للبحث العلمى النقدى .



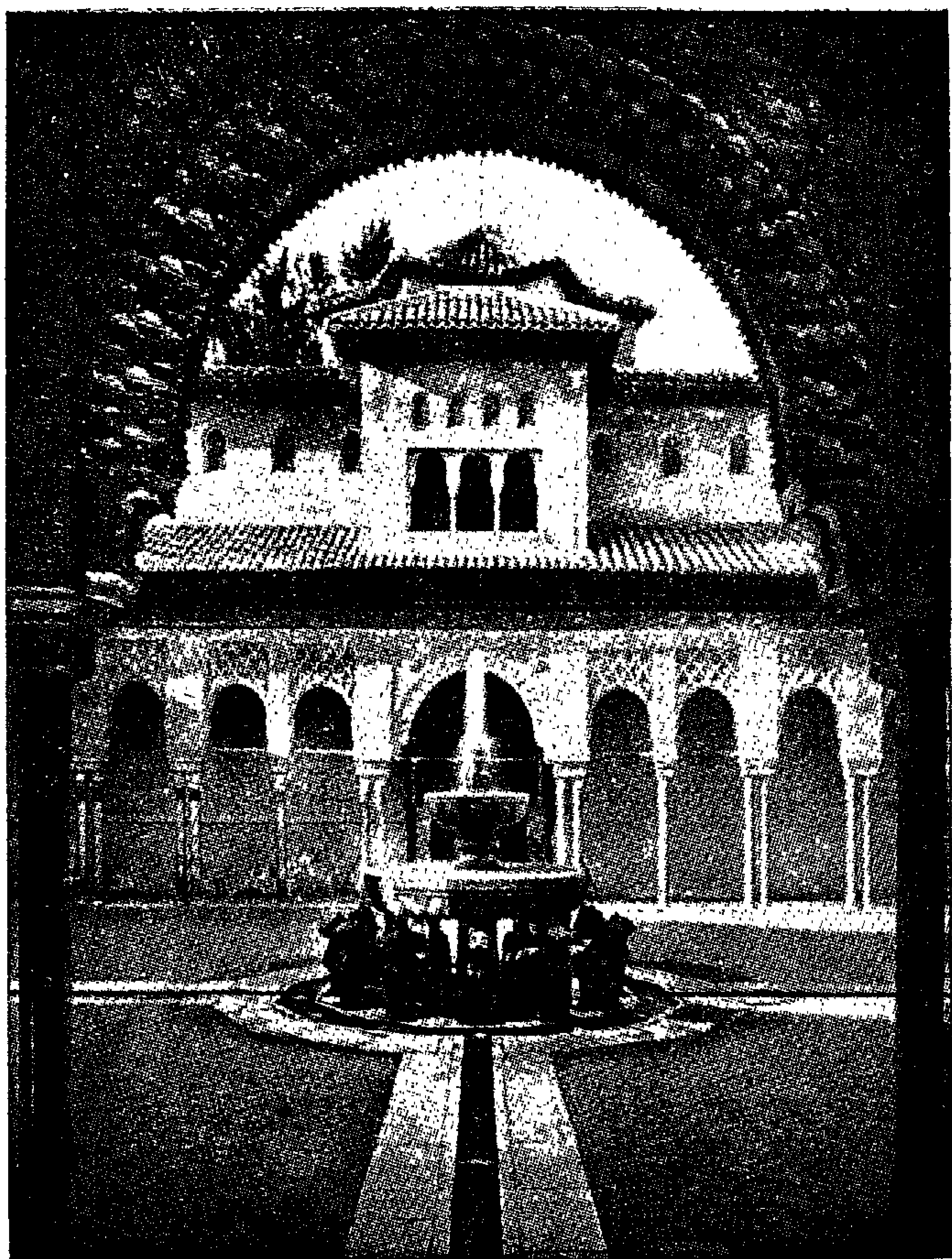
وقد ترجمت فى هذا الكتاب لثمانى عشرة من أعلام التاريخ الإسلامى ، دون تقيد بالعصور أو الدول . بيد أنى عنيت أن تكون هذه التراجم نماذج متباينة لشخصيات لها مميزاتها الخاصة. ولا ريب أن شخصيات مثل هٰرون الرشيد، وست الملك الفاطمية ، وشجرة الدر ، والحسن الصباح، وتيمور لنك، وموسى بن نصير، وعبدالرحمن الناصر ، والمهدى ابن تومرت ، تبدو بمميزاتها الخاصة نماذج فريدة فى التاريخ الإسلامى ، تستحق قبل غيرها أن تعرض فى أثواب حية محدثة ، وهو ما حاولته فى التراجم التى يضمها هذا السفر . وقد خُص البعض منها بالإفاضة كتراجم هٰرون الرشيد وشجرة الدر وعبد الرحمن الناصر ، واقتصرت بالنسبة للبعض الآخر على تقديم صور موجزة ولكن مركزة شاملة ، واتبعت فيها جميعاً منهج التحقيق التاريخى المدعم بأسانيده ، وقصدت فيها جميعاً إلى تبيان الخصائص البارزة للشخصيات التى تناولها .

ونظمت هذه المجموعة من التراجم الإسلامية فى كتابين : الأول يضم تراجم شخصيات الشرق الإسلامى ، والثانى يضم تراجم شخصيات المغرب والأندلس ، واتبعت الترتيب التاريخى فى تبويب الكتابين .

وأرجو أن يجد الشباب فى استعراض سير هذه الشخصيات الإسلامية المنوعة ، فى أثوابها المحدثة ، حافزاً له على أن يخص التاريخ الإسلامى وشخصياته البارزة بمزيد من إقباله وعنايته ؛ فسير العظماء الذاهبين زينة التاريخ القومى ، والتاريخ القومى غذاء الشعور الوطنى ، ومن الماضى المجيد ومن سير الأبطال الذاهبين ، تستمد الشعوب الفتية كثيراً من عناصر القوة الأدبية والقدوة المثلى .

القاهرة فى صفر سنة ١٣٦٦
يناير سنة ١٩٤٧

محمد عبد الله عنان



بهو الأسود (قصر الحمراء)

الكتاب الاول

تراجم شرقية

هـــرون الرشيد

(١٤٨ — ١٩٣ هـ) ، (٧٦٥ — ٨٠٩ م)

يثير اسم هرون الرشيد وتثير ذكريات عصره فى النفس أيما إجلال وروعة ؛ وليس مرجع ذلك فقط إلى أن الرشيد كان من أعظم خلفاء الإسـلام وأعظم أمراء العصور الوسطى ، وأن الدولة العباسية بلغت فى عصره ذروة القوة والبهاء ؛ ولكنه يرجع بالأخص إلى شخصية الرشيد ذاته ، وإلى ما كان يتمتع به من مواهب وخلال باهرة تجمع بين الفروسة المثلى ، والبراعة فى شئون الحرب والسياسة ، وصفات الحاكم الأمثل ؛ وبين التقى والورع ، والفخامة الرائعة والبذخ الطائل ؛ وبين الحزم والصرامة ، والعواطف الإنسانية المؤثرة ؛ فهذا المزيج المدهش من الصفات والخلال البارعة هوالذى يضفى على الرشيد لوناً زاهياً من العبقرية ، ويفسح لشخصيته مكانتها الحقة فى التاريخ بين أعظم شخصيات العصور الوسطى .

تولى الرشيد الخلافة بعد أن استقرت شئون الدولة العباسية وتوطدت دعائمها ، وأخذت تشق طريقها قدما إلى المجد ، وتولاها فتى فى عنفوانه لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره . وكان مولده « بالرىّ » (١) فى آخر ذى الحجة سنة ١٤٨ هـ (٧٦٥ م) (٢) وأبوه الخليفة المهدى (محمد بن المنصور) ثالث خلفاء بنى العباس ، وأمه « أم ولد » (٣) هى الخيزران الشهيرة فى سير العصر ، وقد أنجبت من قبله شقيقه الأكبر موسى الهادى الذى تولى الخلافة عقب وفاة أبيه المهدى سنة ١٦٩ هـ ، ولم يطل أمد خلافته سوى عام وبضعة أشهر ، ثم توفى شاباً فى ظروف غامضة . وقيل إن أمه الخيزران دست

(١) هى عاصمة فارس أيام الدولة الإسلامية ، وكان موقعها على مقربة من طهران الحديثة .

(٢) وتضع بعض الروايات مولده فى سنة ١٤٩ هـ أو سنة ١٥٠ هـ .

(٣) «أم الولد » هى الجارية متى أنجبت من سيدها وعندئذ لا يجوز التصرف فيها .

عليه جواريها أثناء مرضه فأجهزن عليه خنقاً ؛ وكان الهادى حينما رأى تدخل أمه فى شئون الدولة ، جريا على ما كانت عليه أيام أبيه المهدى ، يعمل على الحد من نفوذها وتدخلها ، و إرغامها على التزام العزلة ، فوجدت عليه ؛ وزاد فى سخطها وتوجسها ما كان يعتزمه المهدى من خلع أخيه هٰرون من ولاية العهد والبيعة لابنه جعفر ، وهى تحب ولدها هٰرون وتؤثره ، فقيل عندئذ إنها دبرت أمر اغتياله .(١)

وأخذت البيعة للرشيد عقب وفاة أخيه فى منتصف ربيع الأول سنة ١٧٠هـ (٧٨٦م) فكان خامس الخلفاء من بني العباس ، واستوزر مربيه ومؤدبه يحيى بن خالد البرمكى ، وفوض إليه تدبير الأمور ، فكان ذلك فاتحة العهد الذى تألق فيه نجم الأسرة الشهيرة ، التى سيطرت فيما بعد على سائر مناحى السلطان والنفوذ . وأبدى الرشيد منذ البداية مقدرة فائقة فى تسيير شئون الدولة ، والسهر على سلامتها ورخائها ؛ وسرعان ماظهرت عبقرية الخليفة الفتىّ متعددة النواحى ، وأخذت خلاله القوية تسطع فى ميادين السلم والحرب معاً : فى الحكم والإدارة ، وفى الجود والبذخ والبهاء ، وفى حماية العلوم والآداب ؛ وتنوه الرواية فوق ذلك كله بما كان عليه الرشيد من التقى والورع فتقول لنا إنه كان يصلى كل يوم مائة ركعة ، و يتصدق من ماله بألف درهم ، وانه كان يحج عاماً و يغزو عاما ، فإذا سار إلى الحج اصطحب للحج معه رهطاً كبيراً من العلماء ، و إذا لم يسر إليه أرسل للحج على نفقته ثلاثمائة رجل . ومهما كان يطبع هذه الرواية من مبالغة ، فإنها تدل بلا ريب على ما كان يحرص عليه الرشيد فى هذه الناحية من صفات تتفق مع مكانته كزعيم الإسلام الروحى .

١

ولنبدأ بحوادث عصر الرشيد فى ميدان الحرب والجهاد ، وهى حوادث اشترك الرشيد فيها بنفسه فى عدة مواطن . وقد عرف الرشيد ميدان الحرب وقيادة الجيوش

---

(١) ابن الأثير (مصر) ج ٦ ص ٣٣ و ٣٤ . والفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، ص ٢٢٨ و ٢٣٦ .

والغزوات فتى حدثاً ، فسار مع أبيه المهدى سنة ١٦٣ هـ (٧٧٩ م) حينما سار لغزو بلاد الروم(الدولة البيزنطية) . وقاد الرشيد الجيش بنفسه إلى هضاب الأناضول واستولى على عدة من الحصون وعاد ظافراً ، ولم يكن يجاوز الخامسة عشرة من عمره .

ولم يمض عامان على ذلك حتى سير المهدى ولده الرشيد إلى أراضى الدولة البيزنطية مرة أخرى على رأس جيش ضخم ، وذلك فى صيف سنة ١٦٥ هـ (٧٨٢ م) ؛ وكانت الصوائف الإسلامية أو الغزوات الصيفية لأراضى الروم ما تزال تحتفظ يومئذ بكل قوتها وحماستها، فتوغل الرشيد فى هضاب الأناضول حتى اقترب من شواطىء البوسفور. وكان على عرش قسطنطينية يومئذ قيصر طفل هو قسطنطين السادس ، ومقاليد الحكم بيد والدته والوصية عليه الإمبراطورة إيرينى التى تسميها الرواية الإسلامية « رينى » وتلقبها « أغسطه » وهو تحريف لكلمة « أوجستا » أى القيصرة ، فهزم المسلمون الجيش البيزنطى هزيمة شديدة ، وأشرفوا على أسوار قسطنطينية ، واضطرت الإمبراطورة إيرينى أن تعقد مع المسلمين الصلح لمدة ثلاثة أعوام ، وأن تتعهد بأن تدفع إلى الخلافة جزية سنوية قدرها سبعون ألف دينار ، وأن تقيم للرشيد الأدلاء والأسواق تسهيلاً لعودته فى شعب الأناضول الوعرة ؛ وعاد الرشيد إلى بغداد ظافراً مثقلاً بالغنائم والسبى .

ولما تولى الرشيد الخلافة استمرت الصوائف على حالها ، وكان الرشيد يحرص على تسييرها ما استطاع ؛ وليس فيما ترده بعض الروايات الإسلامية من أن الرشيد كان يغزو عاما ويحج عاما كبير مبالغة فيما يظهر ؛ ففى وسعنا أن نحصى من الغزوات الإسلامية لأراضى الدولة البيزنطية فى عهد الرشيد الذى استمر ثلاثة وعشرين عاماً أكثر من اثنتى عشرة غزوة ، وقد قاد الرشيد منها بنفسه عدة غزوات ، وسير الباقى تحت إمرة بعض أبنائه أو أكابر قادته .

وهكذا سيرت الصوائف أو الغزوات الصيفية تباعاً إلى أراضى الدولة البيزنطية فى أعوام ١٧٠ و ١٧٢ و ١٧٤ و ١٧٧ هـ ؛ ولم تكن هذه الغزوات المتوالية تقصد إلى

فتوحات كبيرة ثابتة الأثر ، بل كانت ترمى فى الغالب إلى إنهاك قوى الدولة البيزنطية ، وذلك بالعيث فى أراضيها وانتساف حصونها ومروجها ، وتحصيل ما يمكن تحصيله من السبى والغنائم .

وفى سنة ١٨١ ﻫ (٧٩٧م) خرج الرشيد إلى مقاتلة الروم (البيزنطيين) بنفسه ، وكان الروم قد نقضوا المعاهدة التى عقدوها أيام المهدى وتعهدوا فيها بدفع الجزية ؛ وسار الرشيد إلى الأناضول وافتتح حصن الصفصاف ، وسير عبد الملك بن صالح فى جيش ضخم فتوغل فى آسيا الصغرى وهزم الروم هزيمة فادحة، و بلغ فى زحفه أنقرة واستولى على مطمورة، فاضطر الروم إلى عقد الصلح وتعهدوا بأداء الجزية المقررة، وعقد بين الفريقين أيضاً أول اتفاق لتبادل الأسرى ، ونظم الفداء الأول فى ثغر طرسوس ، وتولاه القاسم ولد الرشيد ، وفيه افتدى من أسرى المسلمين ثلاثة آلاف وسبعمائة فى حفل عظيم شهده العلماء والأعيان وخلق عظيم من الجند وأهل الثغور .

وفى العام التالى أعنى فى سنة ١٨٢ ﻫ غزا عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح أرض الروم وأثخن فيها ، ووصل فى سيره المظفر حتى مدينة أفسوس . وفى سنة ١٨٣ﻫ سير الرشيد جيشاً إلى أرمينية لحمايتها من الخزر الذين أغاروا عليها وأوقعوا هنالك بالمسلمين .

***

وفى ذلك الحين وقعت فى الدولة البيزنطية حوادث داخلية ذات شأن . ذلك أن إيرينى حينما كبر ولدها قسطنطين وحاول أن يستأثر بالسلطة ، سخطت عليه ثم دبرت بمعاونة رجال الخاص مؤامرة لخلعه ، فقبض عليه وسجن بالقصر حيناً، و بلغت القسوة بأمه الغادرة أن أمرت به فسملت عيناه ، ثم اعتلت العرش ونادت بنفسها قيصرة (أوجستا) وذلك سنة ٧٩٧ م (١٨٢ ﻫ) .

وحكمت إيرينى بضعة أعوام بمعاونة أصدقائها وفى مقدمتهم الوزير نيسفوروس (نقفور فى الرواية العربية) كبير الخزائن . ثم بدا لنيسفوروس أن ينتزع العرش لنفسه

فاستمال إليه بطانة القيصرة ، وفوجئت إيريني ذات ليلة فقبض عليها وسجنت ، واعتلى نيسفوروس عرش القياصرة وذلك فى سنة ٨٠٢ م (١٨٦ هـ) .

وكان الرشيد قد شغل أثناء ذلك ببعض الفتن والحوادث الداخلية فى خراسان وطوس ونيسابور ففتر أمر الصوائف مدى ثلاثة أعوام أو أربعة . وفى صيف سنة ١٨٧ هـ (٨٠٣ م) بعث الرشيد ولده القاسم فغزا أرض الروم وحاصر بعض الحصون الهامة ، فطلب الروم الصلح و بعثوا إلى القاسم عدداً كبيراً من الأسرى المسلمين، فأجابهم إلى الصلح وعاد أدراجه .

وما كاد الإمبراطور نيسفوروس (نقفور) يعتلى العرش حتى وجه اهتمامه إلى قمع الغزوات الإسلامية التى خربت أراضى الدولة وأنهكت قواها ، و بادر بفسخ المعاهدة التى عقدتها الإمبراطورة إيريني ، وقطع الجزية التى تعهدت بأدائها ؛ ولنقفور والرشيد فى ذلك قصة شهيرة ترددها الرواية الإسلامية ، وهى أن نقفور كتب إلى الرشيد كتاباً هذا نصه :

« من نقفور ملك الروم إلى هٰرون ملك العرب ، أما بعد فان الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافه إليها . لكن ذلك لضعف النساء وحمقهن ؛ فإذا قرأت كتابى هذا فاردد ما حصل لك من أموالها ، وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك ، و إلا فالسيف بيننا و بينك » .

و يروى أن الرشيد لما قرأ هذا الكتاب اشتد غضبه وكتب على ظهره ما يأتى رداً على نقفور :

«من هٰرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة . والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام » .

ومع أن الرواية البيزنطية لا تذكر شيئاً عن هذه المكاتبة بين نقفور والرشيد ، فإنها تتفق مع الرواية الإسلامية فى أن تخلف نقفور عن أداء الجزية ، كان سبباً فى

استئناف الحرب بين المسلمين والروم . وتقول الرواية الإسلامية إن الرشيد سار تواً فى قواته إلى آسيا الصغرى واخترقها حتى هرقلة الواقعة على جبال طوروس ، وأثخن فى تلك الأنحاء وغنم غنائم عظيمة ، ولم يقو نقفور على المقاومة فاضطر إلى طلب الصلح والتعهد بأداء الجزية . ولكن الواقع أن الرشيد لم يسر إلى فتح هرقلة إلا بعد ذلك بعامين حسبما نفصل . بيد أنه أوفد عندئذ إلى قتال نقفور جيشاً ضخما بقيادة إبراهيم ابن جبريل ، والتقى الفريقان فى « كراسوس » من أعمال فريجيا ، فهزم الروم هزيمة شنيعة وقتلت منهم جموع عظيمة (١٨٨ هـ — ٨٠٣ م) . وشغل الرشيد فى العام التالى بحوادث « الرّى » ثم تأهب فى العام الذى يليه لقتال الروم .

وفى سنة ١٩٠ هـ (٨٠٦ م) خرج الرشيد إلى قتال نقفور فى جيش ضخم تقدره الرواية الإسلامية بمائة وخمسة وثلاثين ألفاً سوى الأتباع والمتطوعة ، ونزل فى طوانه واتخذها مركزه وابتنى بها مسجداً ، وبعث جيشاً بقيادة داود بن عيسى بن موسى ، فسار إلى أنقرة وخربها واستولى عليها ؛ وسار الرشيد بنفسه إلى هرقلة فافتتحها وسبى من أهلها جموعاً عظيمة . ولما رأى نقفور نفسه عاجزاً عن مقاومة هذا السيل الجارف أذعن لطلب الصلح ، وبعث إلى الرشيد سفارة على رأسها أسقف « سينادا » ، فعقد السفراء مع الرشيد معاهدة تعهد بها نقفور ألا يعيد بناء حصون الحدود التى هدمها المسلمون ، وأن يدفع جزية سنوية قدرها ثلاثون ألف قطعة من الذهب يضاف إليها أربع قطع عن نفسه وقطعتان عن ولده ، وذلك رمزاً بخضوع قيصر الرومان وولى عهده لأمير المؤمنين .

ولكن الرشيد ما كاد يعود بجيشه عند دخول الشتاء إلى الرّقة وكانت يومئذ منزله ، حتى نكث نقفور عهده معتقداً أن الرشيد لن يستطيع العود إلى قتاله خلال الشتاء ، ولكنه أخطأ الظن ، فإن الرشيد ما كاد يقف على غدر نقفور حتى ارتد أدراجه إلى أرض الروم واخترق جبال طوروس وقد غطتها الثلوج ، وهزم نقفور فى معركة دموية قتل فيها من الروم أربعون ألفاً . وفر نقفور جريحاً واضطر إلى طلب الصلح ،

فأجابه الرشيد إلى طلبه وعاد ظافراً .(١)

وفى ذلك يقول شاعر من شعراء العصر :

نقض الذى أعطيته نقفور فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه فتح أتاك به الإله كبير
فتح يزيد على الفتوح يؤمنا بالنصر فيه لواذك المنصور

ولم يمض سوى قليل حتى عاد نقفور إلى نكثه ، وزاد على ذلك أن أغار على الأراضى الإسلامية . وكان الرشيد يومئذ بالرّقة التى اتخذها مقامه فى أواخر عهده ، فاستخلف عليها ولده المأمون وسار إلى قتال الروم فى جيش ضخم ، واقتحم آسيا الصغرى من الجنوب إلى الشمال ، واستولى المسلمون على قونية وأفسوس وماسية ونيقية وغيرها ، ووصلوا فى زحفهم حتى ثغر هرقلة الواقع على البحر الأسود واستولوا عليه ، وهزم الروم فى جميع المواقع ، و بعث الرشيد حملة بحرية إلى مياه الدولة البيزنطية الجنوبية ، فغزت قبرس وأرغمت حاكمها الأسقف على افتداء نفسه ودفع الجزية ، ثم غزت رودس وعاثت فيها . ونقض أهل قبرس العهد فوجه إليهم الرشيد حملة ثانية أخضعتهم وحملت منهم عدداً كبيراً من الأسرى .

ولما رأى نقفور عبث المقاومة وما انتهت إليه حال جيوشه ومملكته، عاد إلى طلب الصلح وتأكيد عهده فى دفع الجزية وعاد الرشيد إلى مهادنته .

وقام الرشيد خلال حكمه بقمع عدة ثورات وفتن داخلية وقعت فى مختلف أطراف مملكته الشاسعة ، فى خراسان وأرمينية والشام ومصر و إفريقية . وكان منها عدة فتن حاول الشيعة إضرامها . وكانت الدولة العباسية تتوجس بالأخص من تحرك الشيعة وظهورهم فى ميدان الحوادث . ففى سنة ١٧٦ هـ خرج ببلاد الديلم يحيى بن عبد الله بن الحسن من ولد على بن أبى طالب وقوى أمره ، فسير إليه الرشيد حملة انتهت بإخضاعه

---

(١) يضع ابن الأثير تاريخ هذه الغزوة فى سنة ١٨٨ هـ باعتبار أنها هى الغزوة التى قادها ابراهيم بن جبريل . ولـكن المرجح ما ذكرناه ؛ وهذا ما تؤيده الرواية البيزنطية .

وأسره؛ وقبض الرشيد أيضاً على موسى الـكاظم بن جعفر الصادق واعتقله حتى توفى. وفى سنة ١٩٢ هـ سير الرشيد حملة إلى أذربيجان لقمع ثورة من نوع خاص هى ثورة الخرمية أو أتباع بابك الخرمى . وكانت ثورة شيوعية إباحية خطيرة ، فأوقعت بهم ، وافتتحت معاقلهم ، وسبت منهم جموعاً كثيرة ، وقضت على هذا الخطر الاجتماعى الخطير فى مهده .

وهكذا يحفل عصر الرشيد بصنوف المعارك والغزوات المستمرة ؛ بيد أنه يمكن أن نلاحظ أن غزوات الرشيد لم تكن تقصد إلى فتوحات ثابتة والاستيلاء على أراض جديدة ؛ وإنما كانت تقصد بالأخص إلى إنهاك قوى الدولة البيزنطية جارة الدولة العباسية وخصيمتها القوية، وإلى المحافظة على حدود الدولة العباسية وأطرافها المترامية ؛ وقد وفق الرشيد فى ذلك كل التوفيق، فقضى مدى حين على قوى الدولة البيزنطية وغدت الدولة العباسية فى عصره أوفر ما يكون قوة وأمناً وسلاماً .

٢

هذا ويجدر بنا أن نستعرض أحوال مصر فى عهد الرشيد بنوع خاص لما كان لها بين ولايات الخلافة من مكانة خاصة .

كانت مصر منذ سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) ولاية عباسية ، تلقتها الدولة العباسية فيما تلقت من تراث الدولة الأموية الشاسع ، بيد أنها كانت تحتفظ دائماً بين الولايات الخلافية بمركزها الممتاز الذى كانت تحتفظ به منذ الفتح الاسلامى. وكانت أيام الدولة الأموية قاعدة الفتوحات والغزوات الإسلامية فى شمال إفريقية ، ولـكن الدولة العباسية لم تتلق من تراث بنى أمية غرب مصر سوى طرابلس وإفريقية (تونس) وحتى فى هذه المنطقة المضطربة ، لم تكن تتمتع بأية سلطة حقيقية . ولم يلبث أن قامت بإفريقية فى عصر الرشيد وبموافقته ، دولة جديدة مستقلة هى دولة الأغالبة ، تنضوى تحت لواء الخلافة الإسمى ، وتشرف على شئون طرابلس ، وبذا غدت مصر حد الدولة العباسية ومعقلها من جهة الغرب ، فكان ذلك يسبغ عليها فى نظر

الخلافة أهمية خاصة من الناحيتين السياسية والعسكرية .

وتعاقب على مصر فى عهد الرشيد عدد كبير من الولاة يبلغ زهاء العشرين . وكانت مدينة « العسكر » التى أنشأها العباسيون شمالى الفسطاط هى عاصمة مصر الإسلامية يومئذ ، واستمرت كذلك حتى قيام الدولة الطولونية وقيام مدينة القطائع عاصمتها الجديدة فى سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) . والواقع أن ولاة مصر أيام الدولة العباسية لم يكن مكثهم فى مناصبهم يتعدى أشهراً أو عاماً إذا استثنينا القليل منهم . وقد كان هذا شأنهم أيام الرشيد . والظاهر أنها كانت سياسة مرسومة ترمى بها الخلافة إلى إتقاء ما قد يجيش به الولاة الأقوياء من أطماع خطرة . ومما يلاحظ أيضاً أن ولاة مصر أيام الرشيد كان معظمهم من الأسرة العباسية ذاتها . ومنذ سنة ١٧٥ هـ نرى ثبت ولاة مصر طوال أيام الرشيد مع استثناء ثلاثة أو أربعة كله عباسياً ، ومنهم عدد من خاصة بنى العباس وأقرب الناس إلى الخليفة مثل موسى بن عيسى وقد ولى مصر ثلاث مرات ، وإبراهيم بن صالح وقد وليها مرتين ، وعبد الله بن المهدى أخى الرشيد وقد وليها ثلاث مرات ، وغيرهم من خاصة الأسرة وأبناء عمومة الخليفة ، ونستطيع أن نحمل هذا الاختيار على بواعث العصبية والثقة الخاصة أكثر مما نحمله على بواعث الاصطفاء المجرد ، وقد كانت الدولة العباسية تعتمد على عصبية الأسرة فى توطيد سلطانها وفى السيطرة على الجيش ، فكان كثير من القادة وعمال النواحى الهامة من أقطاب الأسرة ذاتها .

وكانت مصر أيام الرشيد وطوال أيام الدولة العباسية من أخصب ولايات الخلافة فى الموارد والخراج . وقد انتهت إلينا بعض الأرقام عن خراج مصر فى تلك الفترة ، فقيل إن موسى بن عيسى حمل معه أثناء ولايته إلى الرشيد أكثر من ألفى الف (مليونى) دينار بعد العطاء والمؤن وسائر الكلف . وكان خراج مصر يبلغ يومئذ أكثر من أربعة آلاف الف دينار . والظاهر أن تشدد الولاة فى أمر الخراج وتوفيره كان يصل أحياناً إلى حدود لاتطاق ، فقد وقع فى مصر فى تلك

الفترة أكثر من ثورة من جراء التعسف فى فرض الخراج وتحصيله .

وليس فى حوادث مصر الداخلية أو العامة فى ذلك الحين ما يستحق الذكر سوى القليل ؛ فلم تشترك مصر يومئذ فى مشاريع الخلافة أو حملاتها العسكرية ، وقد كانت تنحصر يومئذ فى ولاياتها الشرقية والشمالية ، ولا سيما هضاب آسيا الصغرى حيث كانت الحرب تضطرم بلا انقطاع بين جيوش الخلافة والدولة البيزنطية . بيد أن مصر ساهمت بالجند والمال فى إخماد الثورة فى إفريقية سنة ١٧٨ هـ . وفى العام التالى سار عبد الله بن المهدى والى مصر فى الجيش إلى الإسكندرية لرد الفرنج (الروم) عنها وقد حاولوا النزول فيها . وفى سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) وقع بمصر زلزال عظيم أحدث بها كثيراً من الذعر والتخريب وأصاب منارة الإسكندرية الشهيرة فسقطت قمتها .

وكانت مصر على العموم تجوز فى عهد الرشيد فترة من السكينة والرخاء . ولم تكن بمعزل عن تلك النهضة القوية التى شملت أنحاء الخلافة كلها فى هذا العصر الزاهر ، وقد كانت فوق ذلك تجيش بنهضتها الخاصة الفكرية والاجتماعية . بيد أنها كانت بالرغم من اندماجها فى الوحدة الخلافية الكبرى ، تحتفظ بكثير من روحها المستقل وشخصيتها الممتازة ، وقد استطاعت أن تحتفظ بهما دائماً فى جميع العصور والدول الإسلامية .

٣

لبث الرشيد سبعة عشر عاما يعمل على توطيد أركان الدولة وهيبتها فى الداخل والخارج . وبالرغم من أنه كان يهتدى فى حكمه بروح مستنير خير ، يرجع إلى طبيعة نفسه وخلاله ، فانه كان يسير على نفس الأساليب المطلقة التى سار عليها دائماً أمراء العصور الوسطى . وكان يقتفى فى ذلك بنوع خاص آثار جده المنصور من الصرامة والحزم والقسوة فى معاملة الخارجين على الدولة وعلى سلطان أمير المؤمنين .

وقد كانت نكبة الرشيد للبرامكة فى سنة ١٨٧ هـ (٨٠٣ م) من أشهر حوادث ذلك العصر الذى بلغت فيه الدولة العباسية ذروة القوة والفتوة . وكانت فى الوقت

نفسه صفحة مظلمة فى ذلك العصر المتألق . بيد أنا نستطيع أن نجد الصلة وثيقة بين هذه المأساة المروعة و بين بواعث الحكم المطلق . ومع أن نكبة البرامكة تنسب إلى أسباب عديدة منوعة ، فانه ليس من شك فى أنها تعتبر بالأخص فصلاً من فصول ذلك الصراع الخالد الذى يضطرم حول السلطان والملك .

والبرامكة أسرة فارسية نابهة ظهرت فى ميدان الحوادث منذ قيام الدولة العباسية، وكان عميدها ومؤسس سؤددها خالد بن برمك من أكابر الشيعة . ولاه المنصور على الموصل وأذربيجان ، وولى ابنه يحيي على أرمينية، ثم عهد إليه المهدى بتربية ولده الرشيد ؛ فلما ولى الرشيد الخلافة استوزر يحيي وفوض إليه شئون الحكم كما قدمنا . وكان أبناء يحيي وهم جعفر والفضل ومحمد وموسى جميعاً من أولى العزم والنباهة ، فظهروا جميعاً بين رجالات الدولة وشغلوا أعظم مناصبها ، فولى الرشيد جعفر حكومة مصر ثم خراسان ، واستوزر الفضل أخاه من الرضاع ، ثم استوزر جعفر، و بذلك اجتمعت السلطة كلها فى يد يحيي وولديه وآلت إليهم مصاير الشئون ، وغلب نفوذ البرامكة على كل نفوذ فى الدولة .

وكان البرامكة علم الفضل والجود والذكاء والعزم ، فلبثوا يديرون شئون الدولة زهاء سبعة عشر عاماً أحسن تدبير وأكمله ، ونجمهم دائم التألق ، ونفوذهم دائم التمكن ، والدولة تتمتع فى ظلهم بعوامل السكينة والاستقرار، والشعب فى يسر ورغد ، وكانت لهم الكلمة العليا فى كل مجال وموطن . ولكن ارتفاع البرامكة إلى ذروة السلطان والمجد على هذا النحو ، وتفوقهم على كل بيوتات الدولة فى الخلال والرفعة والغنى والبذخ ، وتمكنهم من قلوب العامة بفيض الجود والفضل ، واستئثارهم بجميع السلطات العامة ، و إنهاء مصاير الشئون كلها إليهم ، لم تلبث أن أثارت جزع الرشيد وتوجسه ، وغيرة خصومهم من رجال البطانة والقصر . وكان الفضل بن الربيع حاجب الرشيد ألد عدو للبرامكة ، وكان لا يدخر وسعاً فى الوشاية بهم و إحفاظ الرشيد عليهم ، وكان خصومهم الآخرون لا ينقطعون فى الوقت نفسه عن الكيد لهم

والسعاية فى حقهم ، وكان الرشيد يرى فى الواقع بهاء البرامكة يكاد يغشى بهاء الخلافة . وسلطانهم يكاد يمحو سلطانه .

فى مهد هذه الظروف والعوامل نشأت فكرة تحطيم البرامكة وسحق دولتهم ، وهى فى رأينا أهم البواعث التى يمكن أن نرجع إليها تلك المأساة الشهيرة . ولكن الرواية الإسلامية تقدم إلينا أسباباً عديدة أخرى لنكبة البرامكة منها ما يذهب مذهب القصة ؛ وأشهرها بلا ريب قصة العباسة أخت الرشيد ، فيقال إن الرشيد كان يحبها حباً جماً ولا يطيق بعداً عنها ، وكان يدعوها إلى مجالس أنسه ولهوه ، وكان من جهة أخرى كلفاً بصحبة وزيره جعفر شغوفاً بسمره ، فكان لا يصبر عنه ، فرأى الرشيد أن يزوج جعفر من أخته العباسة حتى يحل له الاجتماع بها فى مجلسه ، على أن يكون هذا الزواج اسمياً فقط . ولكن العباسة هامت بحب جعفر وهام بها فتلاقيا سراً وحملت منه . وكانت زبيدة زوج الرشيد تحقد على العباسة لفرط جمالها ونفوذها على الرشيد ، فلما وقفت على علاقتها بجعفر وظفرت بالأدلة عليها فضحت أمرها للرشيد ، فقرر إهلاك البرامكة وإهلاك أخته[1] . ويعامل ابن خلدون هذه القصة بازدراء وسخرية وينكرها بشدة ويستند فى إنكاره إلى منزلة العباسة من بيت الخلافة وبيت الرسول ، وإلى حسبها النبوى والعربى العريق ، ويتساءل كيف تدنس سليلة الصون والطهر شرفها العربى بمولى من موالى العجم ؟ وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالى الأعاجم ؟ وهو بلا ريب منطق ظاهر الضعف وتدليل لا يتفق فى نظرنا مع دقة الفيلسوف وعقليته المستنيرة .

وثمة سبب آخر توردة الرواية الإسلامية لنكبة البرامكة ، وهو أن الرشيد حينما

(١) تختلف الرواية فى مصير العباسة . فيقول البعض إن الرشيد طردها من قصره فعاشت مع ولدها فى أنحاء مجهولة عيشة شقية . ويقول البعض الآخر إنهما قتلا سراً بأمر الخليفة ولم يعلم بمصيرهما أحد . وكانت قصة غرام العباسة وجعفر مستقى لبعض كتاب الخيال الغربيين فنشرت عنها عدة قصص معروفة ، من ذلك ما نشره « لاهارب» Laharpe بالفرنسية ، وفون هامار Von Hammer بالألمانية .

ظفر باعتقال يحيى بن عبد الله بن الحسن الزعيم العلوى على إثر انهيار ثورته فى بلاد الديلم عهد به إلى جعفر البرمكى ليسهر على اعتقاله فأطلق جعفر سراحه خفية ، وعلم الرشيد بذلك وراجع وزيره ، فأنكر أولاً ثم اعترف واعتذر بأنه رأى ألا خطر فى إطلاقه . فتوجس الرشيد من ذلك التصرف شراً ، وكان بنو العباس يرون فى قيام الدعوة الشيعية وخروج أئمتها خطراً يهدد سلطانهم ؛ وكان البرامكة ، كما رأينا ، أول أمرهم من أقطاب الشيعة ، وإذاً فقد كانت حمايتهم لزعماء الشيعة الخوارج مما يثير الريب بحق ، ويحمل على الشك فى إخلاصهم ونياتهم نحو الخلافة .

وهناك روايات أخرى عن أسباب تغير الرشيد على البرامكة ؛ منها أن الرشيد سخط على كبير الأسرة يحيى البرمكى لتهجمه على مقامه ، ودخوله عليه بغير استئذان ، وأن بطانة الرشيد كانوا يسعون إلى تحريك حفيظته على البرامكة فى مجالس أنسه بأشعار ذات مغزى يدسونها للندماء والمغنين ، وغير ذلك مما تعنى به كتب الأدب بنوع خاص .

على أنه مهما تنوعت الأسباب التى توردها الرواية الإسلامية لنكبة البرامكة ، فلا ريب أن بواعثها الجوهرية تدور حول استئثار البرامكة بكل سلطان فى الدولة وتضاؤل سلطة الرشيد أمام سلطانهم وعظيم نفوذهم ، وهو ما يشير إليه ابن خلدون فى مقدمته بدقة ووضوح إذ يقول : « وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة ، واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه ، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم . . . فأورث ذلك عند مخدومهم نواشىء الغيرة والاستنكاف من الحجر والأنفة ، وكامن الحقود التى بعثتها منهم صغائر الدالة ، وانتهى بها الإصرار على شأنهم إلى كبائر المخالفة كقصتهم فى يحيى بن عبد الله » .

ولم تأت فاتحة سنة ١٨٧ هـ (٨٠٣ م) حتى كان الرشيد قد قرر أمره فى شأن

البرامكة : فى المحرم من ذلك العام عاد الرشيد من الحج ونزل بالأنبار . وفى أوائل صفر أصدر الرشيد أمره ذات ليلة فجأة بإعدام وزيره جعفر بن يحيى البرمكى ، والقبض على أبيه وإخوته . وقام بتنفيذ هذه المهمة المحزنة مسرور جلاد الرشيد المشهور فى جماعة كبيرة من الجند . ففاجأ جعفر فى داره يلهو ويطرب مع نفر من الأصدقاء . فتضرع إليه جعفر وطلب مراجعة الرشيد مراراً ، ولكن أمر الرشيد كان قاطعاً ، فقتل الوزير المنكود أمام خيمة الرشيد وسقطت رأسه عند أقدام الجند الذين طالما أحنوا رؤوسهم إجلالاً له ، ومثل بجثته فى اليوم التالى فى شوارع بغداد . وفى الحال قبض على يحيى بن خالد وأولاده الآخرين الفضل ومحمد وموسى ، وألقوا فى غيابة السجن وصودرت أموالهم كلها . وكان اعتقالهم يسيراً فى البداية فلم يُضيَّق عليهم ، وسمح لهم باستبقاء الخدم وما يشتهون من متاع وغيره ؛ ولكن حدث بعد ذلك بعام أن اتهم عبد الملك بن صالح ، وهو من عمومة الرشيد ، بالتآمر على الرشيد والتطلع إلى الخلافة فقبض عليه ، وثبتت إدانته ، ونسب فى الوقت نفسه أن للبرامكة يداً فى المؤامرة ، فانتهزها الرشيد فرصة للتضييق على يحيى وأولاده ، فجردوا من جميع أسباب الراحة والرفاهة ، وعرضوا لأنواع الإرهاق والمهانة . فمات الوزير الشيخ يحيى فى سجنه فى سنة ١٩٠ هـ (٨٠٦ م) ولحق به ابنه الفضل إلى القبر بعد ذلك بثلاثة أعوام . أما محمد وموسى فقد أطلق الرشيد سراحهما على ما يظهر لعدم خطورة مركزهما ، وبعد أن هوت الأسرة إلى حضيض الفاقة والعدم .

تلك تفاصيل المأساة الشهيرة التى وصمت عهد الرشيد وأسبلت على خلاله اللامعة سحابة قاتمة . ويقال إنها عكرت صفو الرشيد فى أعوامه الأخيرة ، وان الندم كان يساوره ويقض مضجعه . على أنه يمكن أن يقال إن خطورة البواعث قد تبرر مسلك الرشيد وتخفف من تبعته . ذلك أن سلطان البرامكة غدا خطراً حقيقاً على سلطان الخلافة العباسية . وكان البرامكة فوق ذلك علم القومية الفارسية التى عملت على إخضاع الدولة العربية لنفوذها المعنوى تحطيما لاستعباد العرب السياسى للأمة

الفارسية . وكان سلطانهم أخطر وسيلة يمكن استخدامها لتحريك القومية الفارسية إلى النهوض والثورة ، وكان لابد من تحطيمهم والقضاء على سلطانهم صوناً لسلطان الدولة العباسية وسلطان الأمة العربية .

وقد كان عهد البرامكة أزهر وأبهى عصور الدولة العباسية بلا مراء . وكانوا على قول ابن خلدون : « من محاسن العالم ودولتهم من أعظم الدول وهم كانوا نكتة محاسن الملة وعنوان دولتها » . ولما تولى المأمون الخلافة رد إلى البرامكة أملاكهم وحقوقهم ، ولكن ضربة الرشيد كانت قاضية فلم تعد الأسرة النابهة قط إلى سابق مكانتها ونفوذها .

٤

ولا بد لنا أن نعرض هنا إلى قصة السفارات الشهيرة التي تبادلها الرشيد مع شارلمان إمبراطور الفرنج . ولا تذكر الرواية الإسلامية شيئاً عن هذه الصلات الدبلوماسية بين عاهلي الشرق والغرب . ولكن الرواية الغربية تفيض في تفاصيلها ، فتذكر لنا أنه كانت ثمة بين الرشيد وشارلمان مكاتبات وسفارات ، وأن شارلمان سعياً إلى توثيق الصداقة بينه وبين زعيم الإسلام ، أوفد إلى الرشيد سفارة على رأسها يهودى يدعى إسحاق ، ووصل إسحاق إلى بلاط بغداد وقدم إلى الرشيد كتب ملك الفرنج وهديته ؛ فأكرم الرشيد وفادته ورحب بصداقة ملك الفرنج ، وأوفد إليه سفراءه بهدية فخمة ، منها خيمة عربية وساعة مائية وأقمشة حريرية وتحف من الذهب وقردة وفيل ومفاتيح قبر المسيح في بيت المقدس مع تأكيداته الودية في حماية البقاع المقدسة . ثم تقول الرواية إن شارلمان سر بهذه النتيجة وأوفد إلى الرشيد سفارة أخرى على رأسها مبعوثه إسحاق أيضاً . وإذا كانت الروايات الفرنجية والكنسية المعاصرة تؤكد لنا وقوع هذه الصلات والسفارات بين زعيمى الشرق والغرب وتفيض في تفاصيلها ، فإن صمت الرواية الإسلامية في شأنها يحملنا على اعتقاد أحد أمرين : فإما أنها لم تكن من الخطورة في شيء ولم تتعد المجاملات الملوكية العادية ، وإما أنها إذا صحت خطورتها كانت سراً من أسرار الدولة لا تجوز إذاعته وتناقله . ولسنا نعتقد على أى حال أن صمت الرواية

الإسلامية يمكن أن ينهض وحده دليلا على عدم صحتها .

ولم تحدثنا الرواية الفرنجية عن الغاية الحقيقية التى حدت بزعيم النصرانية فى الغرب أن يسعى إلى مصادقة زعيم الإسلام فى الشرق ، ولم تحدد لنا تاريخ هذه العلاقات الدبلوماسية بين العاهلين . ولكنا نرجح أنها وقعت فى أوائل عهد الرشيد بين سنتى ٧٨٦و٧٩٠م (١٧١ - ١٧٦ هـ) . ولنا فى حوادث الأندلس فى هذا الوقت ما يلقى ضياء على طبيعة هذا التفاهم ومداه . ذلك أن عبد الرحمن الداخل الأموى استطاع بعد خطوب جمة أن يؤسس بالأندلس دولة أموية جديدة تنافس فى الغرب الإسلامى دولة بنى العباس ؛ وكانت الخلافة العباسية تنظر إلى قيام هذه الدولة الأموية الفتية بعين التوجس ، وتخشى أن تغدو فى المستقبل خطراً على سيادتها فى الأقطار الغربية . وقد بذل الخليفة المنصور بالفعل جهداً لسحقها فى المهد فبعث عامله على إفريقية لغزو الأندلس ، ولكن المحاولة أخفقت ومزق جيش الخليفة العباسى وقتل عامله ، ولم تزد الدولة الأموية الناشئة إلا قوة ورسوخا . واستمرت الدولة العباسية مدى حين على توجسها . ومن جهة أخرى فقد كانت مملكة الفرنج ترى فى قيام هذه المملكة الإسلامية الجديدة فيما وراء جبال البرنيه خطراً داهماً عليها . وكانت سياسة شارلمان عاهل الفرنج ترمى إلى انتهاز كل فرصة للعمل على إثارة الاضطراب فى اسبانيا المسلمة و إنهاك قواها ، ولم يدخر وسعاً فى تشجيع الخوارج عليها و إرسال جيوشه لغزوها كلما سنحت الفرص . أليس فى طبيعة هذه الظروف والحوادث ما يمكن أن يحمل الخليفة العباسى والعاهل الفرنجى على التفاهم لتنظيم الجهود المشتركة لمناوأة الخصم المشترك ؟ هذا ما نرجح أنه هو الهدف المعقول لتلك العلائق الدبلوماسية الشهيرة بين زعيمى الشرق والغرب فى أواخر القرن الثامن الميلادى .

وقد كانت للرشيد أيضاً أثناء فترات السلم والمهادنة علائق دبلوماسية منظمة مع الدولة البيزنطية ، وتبادل بلاط بغداد و بلاط قسطنطينية أيام الأمبراطورة إيرينى والأمبراطور نقفور سفارات ومراسلات عديدة .

٥

كان الرشيد فى أواخر عهده يؤثر المقام « بالرقة » وهى مدينة طيبة المناخ ذات بساتين يانعة تقع على ضفة الفرات الشرقية فى شمال غربى الجزيرة وذلك ليكون أقرب للسهر على سير الحوادث فى بلاد الروم والولايات الغربية .

وفى سنة ١٩٠ هـ عادت الفتنة إلى الاضطرام فى خراسان وخرج رافع بن الليث فى سمرقند وهزم جند الخلافة غير مرة واستفحل أمره تباعاً ، فاعتزم الرشيد أن يسير إلى قتاله بنفسه ، فسار من الرّقة فى شعبان سنة ١٩٢ هـ إلى بغداد ليسير منها إلى خراسان ، واستخلف على الرقة ولده القاسم وعلى بغداد ولده الأمين ، وسار فى جيشه إلى خراسان ومعه ولده المأمون . وكان الرشيد يعانى منذ أعوام مرضاً عضالاً يتفاقم على الأيام ، والظاهر مما تشير إليه الرواية أنه كان يعانى من سرطان فى البطن[1] ووصل إلى جرجان فى صفر سنة ١٩٢ هـ وهو فى حالة سيئة من الإعياء . ولما لم يستطع متابعة السير نزل بطوس ومعه طبيبه جبرئيل بن بختيشوع ووزيره الفضل ابن الربيع ، وهنالك اشتد به المرض وتوفى فى الثالث من جمادى الثانية سنة ١٩٣ هـ (ابريل سنة ٨٠٩ م) ودفن فى نفس الدار التى توفى فيها ، وكان فى نحو الخامسة والأربعين من عمره وكانت خلافته زهاء ثلاثة وعشرين عاماً .

وترك الرشيد من البنين اثنى عشر ومن البنات خمس عشرة ، وكان مزواجاً تزوج سبعاً وتوفى عن أربع فى مقدمتهن زبيدة ابنة عمه وأم ولده الأمين ، وكانت أحب نسائه إليه وتوفيت سنة ٢٢٦ هـ . والأمين هو ولده الوحيد الذى ولد من زوجة شرعية . أما ولده المأمون فهو من أم ولد تدعى مراجل ، وكذلك سائر أبنائه و بناته ولدوا جميعاً من أمهات ولد ؛ وكان الرشيد كلفاً باقتناء السرارى يبذل من أجلهن الأموال الوفيرة ، وكان يقتنى منهن عدداً كبيراً من النساء البارعات فى الحسن والخلال .

(١) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ٦٨ .

وتصف لنا الرواية الرشيد بأنه كان مديد القامة يميل إلى البدانة ، أبيض وسيم الطلعة ، وقد وخطه الشيب .

٦

نستطيع أن ندرك من هذه الصور الموجزة كيف كان عصر الرشيد من أحفل عصور الخلافة الإسلامية وأزخرها بمختلف الحوادث والشئون .

على أن هذا النشاط المتصل فى ميدان الغزو والجهاد ، وفى معالجة شئون السلطان والحكم ، وهو الذى يقدم إلينا الرشيد فى صورة العاهل القوى والقائد العظيم والحاكم الأمثل ، لم يكن ليحجب بهاء حياة السلم والفخامة والبذخ التى امتاز بها بلاط بغداد فى عهد الرشيد ، والتى بسطت ظلالها على مجتمعات بغداد الرفيعة فى تلك الفترة المتألقة من حياة الدولة العباسية .

كان عصر الرشيد عصراً ذهبياً اجتمعت فيه للأمة الإسلامية أسباب القوة والعظمة والنعماء ، وسادت فيه الدعة والرخاء معظم طوائف المجتمع ، وغدت بغداد من أعظم مراكز التجارة العالمية ، وتدفقت عليها صنوف الأرزاق والنعم ، وغلب الترف على مجتمع الخاصة . وكان بلاط بغداد يومئذ مضرب الأمثال فى نظمه ورسومه وفى بذخه وروعته . وكان بما اجتمع فيه من أسباب الفخامة والرونق يقدم للناس صوراً من الحياة الناعمة الرفيعة لم يألفها المجتمع الإسلامى من قبل . وكان الرشيد بالرغم مما أثر عنه من التحفظ ومن ضروب التقى والورع ، يعشق حياة البذخ الطائل ويبدو فى مظاهر عاهل الشرق القوى المطلق . بيد أن الرشيد كان فى الوقت نفسه ذهناً مستنيراً يعشق العلوم والآداب والفنون، ويرعاها بفائق تشجيعه وحمايته . وفى عصره بدأت تلك الحركة العلمية الزاخرة التى توفرت على استخراج كنوز الماضى العقلية ، وترجمة تراث القدماء من يونانيين وغيرهم فى الحكمة والطب والفلك والنبات وغيرها، والتى بلغت ذروتها فى عهد ولده المأمون ، وكانت من أعظم دعائم النهضة العلمية الإسلامية بوجه عام .

وكان يجتمع فى عصر الرشيد ويحتشد حول بلاطه الفخم ، عدة من أقطاب الشعر والأدب ، مثل أبى العتاهية وأبى نواس وعباس بن الأحنف ومروان بن أبى حفص ومسلم بن الوليد والحسين بن الضحاك والأصمعى وغيرهم من فحول الأدباء والشعراء الغزليين والغنائيين ، وكان الرشيد شاعرىّ الحس ، يعالج النظم أحياناً ، ويهوى المديح ويطرب للشعر الجيد ، ويجزل الصلات للشعراء والأدباء . وله فى ذلك أنباء كثيرة مأثورة .

وكان يحتشد إلى جانب هـذه الصفوة من أعلام الشعر والأدب عدة من أكابر الفن مثل إبراهيم الموصلى وولده إسحٰق قطبى العصر فى الغناء والموسيقى . وكان الرشيد يشغف بالموسيقى والغناء ، وما يستتبع ذلك من مجالس الشراب والجوارى . وكانت الموسيقى والغناء الرفيع يومئذ من مباهج المجتمع البغدادى . وكان إسحٰق الموصلى مغنى الرشيد يتربع يومئذ على عرش الفن ، وتحف به صفوة الفنانين والقيان ، وله فى البلاط منزلة رفيعة ، وكان الشعراء الغنائيون مثل أبى نواس ومسلم يمدون الفن بأجمل وأرق مقطوعاتهم الغنائية ، وكان للمغنين والقيان منزلة ملحوظة فى هذا المجتمع الأنيق الزاهر .

ولنذكر قبل كل شىء أن هذا العصر هو العصر الذى ازدهر فيه مجتمع الجوارى الساحر ، ثم لنذكر أن كثيراً من الخلفاء العباسيين وفى مقدمتهم الرشيد نفسه وكذلك المأمون والمعتصم والواثق والمستعين كانوا من أبناء الجوارى . وكان هؤلاء الجوارى فى الواقع عنصراً من أهم وأسطع عناصر المجتمع الرفيع يومئذ ، وكانت الخيزران أم الرشيد التى توفيت سنة ١٧٤هـ (٧٩٠م) نموذجاً بارزاً لهذا الرهط النسوى الذى تغلغل نفوذه فى البلاط وفى المجتمع . وكان اقتناء الجوارى البارعات فى الحسن أو الغناء أو الأدب عنوان النعماء والبذخ ، تغص بهن قصور الخلفاء والوزراء والسادة ، ويؤتى بهن من مختلف الأمم ، ويلقن مختلف الثقافات الأدبية والفنية . وقد راج سوق الجوارى فى عصر الرشيد بنوع خاص لما ترتب على تتابع الغزوات الإسلامية لأراضى

الدولة البيزنطية وغيرها من كثرة السبايا. وكان هذا المزيج المتباين الذى تكونه جنسيات وخلال وثقافات مختلفة قوة اجتماعية خطيرة لها أثرها القوى فى تكييف الحياة الاجتماعية، وفى تطور أحوال المجتمع الرفيع وتطور خلاله وأذواقه.

وكان لمجتمع الجوارى أيضاً أثره الواضح فى تطور التفكير والأدب والفن فى هذا العصر. وقد كان الأدب العباسى يومئذ فى عنفوانه. وكان أكابر الشعراء يلازمون هذا المجتمع الساحر البهيج يستوحونه فيوحى إليهم بروائع المعانى والفكر، وهكذا كان لهذا المجتمع أثره فى إذكاء الروح الشعرى وصقل مثل الجمال والظرف، ورفع مستوى الأناقة والتأدب و بث الخلال والشمائل الرفيعة؛ بل لقد كان لهؤلاء الجوارى البارعات أدب خاص نشأ على أيديهن وفى بيئتهن، وكان هذا الذوق الأدبى الذى يزينه الجمال والفن والسحر النسوى، تذكيه وتصقله خواص المجتمع الأنيق الباهر الذى يسطع فيه. بيد أنه يجب أن نلاحظ أن أدب الجوارى فى هذا العصر قد اتخذ لوناً خاصاً، فهو أدب مرح طروب يميل إلى المجون والدعابة؛ ولا غرو فقد نشأ فى مجالى السرور والأنس، تغذيه أكواب الراح، وتذكيه الأهواء والعواطف المثيرة. ويقدم إلينا صاحب العقد الفريد نماذج ممتعة من هذا الأدب الطروب الذى برعت فيه الجوارى والقيان فى هذا العصر نكتفى بالإحالة عليها.

بيد أنه يجب أن نذكر ما كان لهذا المجتمع الطروب الساحر الذى سطع فى عصر الرشيد فى الوقت نفسه من الآثار السيئة. فقد كان هذا المجتمع بالرغم من خلاله وألوانه البراقة يحمل فى ثنياته كثيراً من عناصر الرذيلة والانحلال. ذلك أن غلبة الترف واحتشاد الجوارى فى البيئات الرفيعة، وما ترتب على ذلك من إسراف فى اللهو والقصف والملاذ الجنسية، أدت إلى ضعف المستوى الخلقى، وعمت المجتمع يومئذ موجة من الفساد والفجور. وقد نشط الرشيد إلى قمع هذه الظاهرة الأخلاقية السيئة بكل ما أوتى من قوة وحزم.

تلك هى الصور الزاهية التى انتهت إلينا عن شخصية الرشيد وعصره. بيد

أن الرشيد كان إلى جانب هـذه المظاهر الدنيوية الفخمة يحرص كل الحرص على جلال صفته الدينية كزعيم الإسلام الروحى . وقد أشرنا إلى ما تنوه به الرواية من ورعه وشغفه بالحج إذ كان يغزو عاماً و يحج عاماً : وقد كان من آثار شغفه بالحج أن عمل على تعبيد الطريق إلى مكة ، وزوده بمراكز الحراسة وخزانات الماء ، وعنيت زوجه السيدة زبيدة أم جعفر بإدخال الماء إلى الحرم ، وما تزال آثار هذه العناية القديمة ماثلة إلى اليوم إذ ما تزال عين زبيدة تحمل الماء خلال التلال إلى مكة .

* * *

على أن سيرة الرشيد لم تكن فقط مستقى للتاريخ الحق ، بل كانت فى الوقت نفسه مستقى للقصة ، تجد فى صحفها الممتعة وألوانها الزاهية مادة خصبة يستطيع الخيال الرائق أن يجول فى نواحيها . وقد أدمج من هذا القصص الشائق الذى نسجه خيال الرواة المتأخرين حول سيرة الرشيد مجموعة كبيرة فى قصص «ألف ليلة وليلة» . ومع أن هذه المجموعة المتباينة تختلف من حيث السبك والأسلوب قوة وضعفاً ، فإنها تشترك جميعاً فى المقصد والغاية ، وهى تصوير شخصية الرشيد فى ألوان طلية زاهية ، وإبراز ما فيها من النواحى الإنسانية الجذابة ، والإشادة بروائع خلالها من فروسة ونبل وشهامة وبذخ وتواضع وبر وجود .

والواقع أنه لم تحظ شخصية من شخصيات التاريخ من عناية صحف ألف ليلة وليلة قدر ما حظيت شخصية الرشيد . فقد اتُخذ الرشيد نفسه بطلاً لعدة قصص وجُعل صديقاً لأبطال قصص أخرى ؛ هذا فضلاً عما نُسب حدوثه من القصص إلى عصره . وفى معظم هذه القصص يُقدم إلينا الرشيد فى صورة الأمير الضجر الذى يطلب السلوى فيأتيه وزيره الشهير جعفر البرمكى ببعض رواة العصر وسماره ، وهم من خاصة صحبه وندمائه مثل الأصمعى وأبى دلف وأبى نواس وإسحق الموصلى وغيرهم ، فيروون له أغرب ما سمعوا أو شهدوا من القصص والأخبار . أو يدفعه الأرق إلى التماس السلوى بالطواف ليلاً فى أنحاء العاصمة العباسية ، وتفقد أحوال الرعية ، وعندئذ

يقدم إلينا الرشيد وقد تنكر فى زى التجار وتنكر معه بعض رفاق سمره وضجره الذين يلازمونه مثل وزيره جعفر ووصيفه مسرور ، ومغنيه إسحق وغيرهم ، وعندئذ يطوف الجميع معاً أحياء بغداد فتسوقهم المقادير إلى بقعة أو منزل يقعون فيه على أغرب المشاهد ويسمعون أغرب القصص والروايات[1] .

وهكذا نجد الرشيد فى « ألف ليلة وليلة » بطلاً من أبطال القصة أسبغت عليه فى هذه القصص كلها نفس الألوان الزاهية التى أسبغت على أبطال ألف ليلة وليلة الخياليين . ومع ذلك فإن الاعتبارات التاريخية لم تهمل كلها ، ففى معظم هذه القصص نرى شخصية الرشيد تحتفظ بكثير من صفاتها التاريخية المعروفة ، من الجود والتواضع والنبل والفروسة وشغف البذخ ، والتقى والورع ، وحب العلماء والعلم وغيرها مما تؤيده المصادر التاريخية الحقة ، بل نجد بعض هذه المناظر والأخبار منقولاً بنصه عن كتب التاريخ والأدب . بيد أننا نجد أنفسنا من جهة أخرى أمام طائفة من الوقائع والصفات الخيالية المحضة التى لا تجمل أحياناً ، والتى نسبت إلى الرشيد لكى يستكمل صورة بطل القصة الحقيقى ، وهى مع ذلك وقائع وصفات يسهل تمييزها والإغضاء عنها .

وقد أسبغ قصص ألف ليلة وليلة على الرشيد وعصره روعة وشهرة وبهاء لم تزدد على كر القرون إلا قوة ورسوخاً ؛ وفى وسعنا أن نقول إن كتب التاريخ والأدب على ما تخص به الرشيد وعصره من الفصول الضافية وما تحويه من آيات المديح والثناء ،

(١) من القصص التى نسبت إلى عصر الرشيد قصة السندباد البحرى الشهيرة وسفراته السبع . أما القصص التى اتخذ لها الرشيد نفسه بطلا فهى عديدة منها قصة قوت القلوب وهى الجارية الحسناء التى شغف بها الرشيد . ومنها قصة الرشيد مع خليفة الصياد . وقصته مع البنت العربية التى أنشدته أبياتاً أعجب بها ثم طلب منها تغيير القافية واستبقاء المعنى فغيرتها مراراً فى مقطوعات بديعة فأعجب بها وتزوجها . وثمة طائفة أخرى من القصص لا يبدو فيها الرشيد بطل القصة الأصلى ، ولكنه يكتشف هذا البطل أثناء طوافه متنكراً فى أحياء بغداد، ومن هذه القصص قصة الشاب العمانى الذى أضاع ثروته على الغوانى ، وقصة محمد بن على الجوهرى . وفى مناسبات أخرى يستمع الرشيد حين يصيبه الأرق إلى سماره وندمائه مثل الأصمعى وإسحاق . وقد تضمنت ألف ليلة وليلة عدة من هذه القصص الأدبية الممتعة ومعظمها منقول عن كتب الأدب مثل العقد الفريد وغيره .

لم تسبغ على شخصية الرشيد من الروعة والبهاء والعطف قدر ما أسبغت عليها قصص ألف ليلة وليلة . ويبدو هذا الأثر بنوع خاص فى الآداب الغربية حيث يعتبر الرشيد بلا مراء أعظم وأشهر أمراء الإسلام والشرق . ويرجع ذلك إلى ذيوع قصص ألف ليلة وليلة فى المجتمعات الغربية ذيوعاً لم يظفر به أى أثر عربى أو شرقى آخر ، وإلى أن الغرب قد عرف الرشيد وعصره بالأخص من قصص ألف ليلة وليلة ، وانطبعت فى ذهنه عن الرشيد وعصره تلك الصور الرائعة التى تقدمها إلينا ، بل لم تخل معظم التواريخ الغربية الرصينة من التأثر بهذه الصور فى تقديرها للرشيد وعصره(١) .

---

(١) رجعنا فى هذا البحث إلى تواريخ الطبرى وابن الأثير وأبى الفدا وابن خلدون ، وإلى العقد الفريد لابن عبد ربه وكتاب الأغانى وكتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، وكتاب الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطقى وغيرها .

ست الملك الفاطمية

(٣٥٩ — ٤١٤ هـ) ، (٩٧٠ — ١٠٢٣ م)

تسطع فى تاريخ مصر الإسلامية شخصية نسوية تكاد تغشى بروعتها وبهائها كل شخصية نسوية أخرى فى تاريخنا . تلك هى شخصية شجرة الدر أول وآخر ملكة جلست على عرش مصر الإسلامية ، وحكمت مصر حيناً لم يطل أمده ، ولكنه خلد فى تاريخنا مثلا فريداً يثير إعجاب الأجيال .

وقد لاتتفوق شجرة الدر فى خلالها أو شخصيتها على شخصيات نسوية كثيرة تبوأت مكانتها فى قصور الخلفاء أو السلاطين ، وكان لها أحياناً أثرها البارز فى توجيه سياسة الملك ولكن من وراء الستار ؛ ولكن شجرة الدر تمتاز على هذه الشخصيات جميعاً بما هيأه لها القدر من الجلوس على عرش الخلفاء والسلاطين ، وتخليد مكانتها بذلك فى سجل الملوكية الرسمى .

على أن مصر الإسلامية قد عرفت غير شجرة الدر شخصيات نسوية أخرى كان لها أعظم نفوذ فى توجيه سياستها ومصايرها . وفى طليعة هذه الشخصيات الأميرة ست الملك الفاطمية ابنة الخليفة العزيز بالله ، وأخت ولده الخليفة الحاكم بأمر الله ؛ وقد ولدت هذه الأميرة النابهة سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠م) بعد الفتح الفاطمى لمصر بنحو عام ، وقدمت إلى مصر مع والدها العزيز فى ركب جدها المعز فى أواخر سنة ٣٦٢ هـ ، وربيت فى القصر الفاطمى بالقاهرة المعزية عاصمة الخلافة الفاطمية الجديدة . وكانت أمها جارية رومية أو قبطية على الأرجح كانت سرية للعزيز ، وفى بعض الروايات الكنسية المعاصرة أن هذه الجارية النصرانية كانت أيضا أمّا للحاكم بأمر الله وهى رواية ضعيفة ينقصها التحقيق . والمرجح حسبما تحدثنا معظم الروايات المعاصرة

واللاحقة أنها كانت فقط أمّا لست الملك دون الحاكم . أما الحاكم فقد ولد بعد مولد أخته بستة عشر عاماً من أم أخرى هى زوجة العزيز الشرعية التى تنعتها الرواية الإسلامية باسم « الست العزيزية » . وقد كان لهذه المصاهرة النصرانية أعظم أثر فى سياسة العزيز بالله فيما بعد ، كما كان لها أعظم أثر فى تربية ست الملك وفى تكوين مبادئها الدينية والسياسية . ذلك أنه كان لهذه السيدة النصرانية التى حظيت بحب الخليفة وغدت أم ابنته الكبرى ، أخوان هما ارسانيوس واريسطيس رفعهما العزيز إلى ذروة المناصب الكنسية ، فعين ارسانيوس مطرانا ثم غدا بطريقا للطائفة الملكية بالإسكندرية ، وعين اريسطيس بطريقا لها ببيت المقدس؛ وكان للحبرين نفوذ عظيم فى البلاط الفاطمى . وكان من أثر هذا النفوذ أن طبعت سياسة العزيز نحو النصارى بطابع الاعتدال والعطف ، فقوى نفوذهم فى الدولة فى عهده وتبوأوا مناصب الوزارة والثقة ؛ وقد كان لليهود يومئذ فى الدولة الفاطمية مثل هذه المكانة من القوة والإعزاز ولا سيما فى ظل الوزير يعقوب بن كلّس وزير المعز لدين الله ثم ولده العزيز من بعده وقد كان يهوديا اعتنق الإسلام وتألق نجمه بتولى الوزارة حتى غدا أعظم رجل فى الدولة؛ بيد أن مبالغة العزيز فى اصطفاء الذميين لم تلبث أن أثارت فى أواخر عهده عاصفة من السخط ، وأدرك العزيز خطر هذه السياسة على سلطان الخلافة وهيبتها فانقلب حينا إلى مطاردة الذميين ، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى الترفق بهم والاعتماد على معاونتهم بتأثير زوجه النصرانية وتأثير ابنته ست الملك وذلك مع العمل فى الوقت نفسه على الحدّ من طغيانهم واستئثارهم بالسلطة . وهكذا استطاع اليهود والنصارى فى عهد العزيز بالله أن ينعموا بأعظم قسط من الجاه والنفوذ .

وكانت ست الملك منذ نشأتها أميرة عاقلة حازمة ، وافرة التحفظ والجد ، تعنى بالجليل من الأمور ، وكان والدها العزيز يحبها حبا جما ، فلما كبرت وترعرعت غدت موضع ثقته يستشيرها فى كثير من الأمور . وكان لآرائها وتوجيهها بلا ريب أكبر الأثر فى تعزيز سياسة التسامح التى اتبعها العزيز نحو النصارى ؛

وتنوه جميع الروايات النصرانية المعاصرة واللاحقة بفضل ست الملك فى صوغ هذه السياسة المستنيرة نحو الذميين فى عهد العزيز بالله .

ولما توفى العزيز بالله فى سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦م) وخلفه ولده الحاكم بأمر الله كانت ست الملك قد بلغت السادسة والعشرين من عمرها . وكان أخوها الحاكم الخليفة الجديد غلاماً يافعاً فى نحو الثانية عشرة من عمره ؛ فتولى إدارة الشئون « الأستاذ » برجوان مولى أبيه مدى حين واستأثر بكل سلطة . ولكن الخليفة الفتى ما لبث أن سئم هذه الوصاية فدبر مقتل برجوان (٣٩٠ هـ — ٩٩٩ م) واسترد سلطته . ومن ذلك الحين يبدأ عهد الحاكم بأمر الله الحقيقى ، وهو من أغرب العهود التى شهدتها مصر الإسلامية وأكثرها شذوذاً واضطراباً وأحفلها بالحوادث الجسام .

عاشت مصر فى ظل الحاكم بأمر الله زهاء ربع قرن شهدت فيه كثيراً من ألوان الطغيان والسفك والتناقض ؛ وحمل الحاكم تياراً من العنف والإغراق لم يسبق له مثيل ، فأكثر من إصدار المراسيم الشاذة المتناقضة ، مابين حرمان وإباحة ، يحرم بعض الأطعمة ثم يبيحها ، ويقلب الليل نهاراً ويجعله مسرح النشاط والعمل ، ويحظر التبرج على النساء ، ثم يحجر عليهن فلا يبيح لهن الخروج ، ويأمر بمطاردة النصارى واليهود ، ثم يعود فيعفو عنهم ، ويأمر بهدم الكنائس ، ثم يعود فيسمح ببنائها ، ويأمر بقتل الكلاب ، ويمعن فى القتل والسفك فيقتل وزراءه وكتّابه واحداً بعد الآخر ويقتل رؤساء العشائر ذوى النفوذ ، ويشجع الدعوات السرية الإلحادية ، ثم يهيم فى التقشف والزهد ويرصد النجوم بالليل ، وهكذا يمضى طوال عصره تدفعه مختلف النزعات والتيارات فتضطرب أمور الدولة ، وتضعف منعتها ، وتهددها الأخطار الخارجية ، وتضطرب حياة الشعب ، وتهب على المجتمع المصرى فى عهده ريح من الروعة والإرهاب والتوجس .

ماذا كان موقف ست الملك خلال هذه الأعوام الحرجة والأحداث المثيرة ؟ لقد لبثت ست الملك عقب وفاة أبيها العزيز مدى حين تتمتع بمكانتها ونفوذها فى البلاط

وتمد أخاها الخليفة الفتى بالنصح والإرشاد كلما شهدت عنفه وشذوذه ، وتعمل ما استطاعت للسهر على سلامته وسلامة الملك والدولة . ولكن الحاكم ما لبث أن تبرم بنصحها وتدخلها ، وظهرت بين الخليفة وأخته بوادر خلاف ما لبث أن استحكم فيما بعد ، واتخذ صورة خصومة مضطرمة كان لها أعظم الآثار وأخطرها .

وكانت ست الملك مذ شعرت بتقلص نفوذها فى البلاط قد لجأت إلى حياة العزلة ، وأقامت فى القصر الفاطمى الغربى المسمى بالقصر الصغير وهو المقابل للقصر الكبير أو القصر الخلافى ، يفصل بينهما الميدان الكبير المسمى « بين القصرين » على أنها لم تنقطع فى عزلتها لحظة عن متابعة الاهتمام بالشئون العامة . وكانت ترقب فى جزع وتوجس مسلك أخيها الحاكم وتحاول بكل ما وسعت أن تعمل على إصلاح الأمور ، وتهدئة الخواطر واتقاء الأزمات . ولما استأثر الحاكم بالسلطة واندفع فى تيار العنف والإغراق ، وأسرف فى القتل وإصدار الأحكام والقوانين الشاذة ، كانت ست الملك تعترضه وتسدى إليه النصح ، وتحذره من سوء العواقب ، وكانت هذه الأميرة النابهة تقدر مدى العواقب الخطيرة التى يمكن أن تؤدى إليها مثل هذه السياسة العنيفة الغاشمة ، وتشفق على ملك أسرتها أن تحتمله هذه العاصفة الهوجاء ، التى مازال يثيرها الحاكم منذ عشرين عاما دون تدبر ولا هوادة . وكان الحاكم من جانبه يحقد عليها ، وينأى عن نصحها ، ويأخذ عليها تدخلها فى شئون الدولة ، وكان فوق ذلك ينعى عليها مسلكها الشخصى ، ويتهمها بسوء السيرة والتقلب بين أذرع مختلف العشاق ، والتورط فى حمأة الفضائح الغرامية ، ويهددها بإرسال القوابل لاستبرائها . على أنه ليس فى سيرة ست الملك ما يدل على أنها كانت تنحدر فى حياتها الشخصية إلى مثل هذا الدرك المشين ، خصوصا وقد كانت فى العهد الذى نتحدث عنه قد جاوزت الخمسين من عمرها ، والرواية الإسلامية تشيد بالعكس بحزمها وعقلها وكياستها .

وهكذا استمر الحاكم فى سياسته العنيفة المخربة لايلوى على شىء ولا يقبل نصحا

من أحد . وكانت مصر قد قطعت فى ظل حكمه المضطرب الحافل بصنوف الأحداث والمحن زهاء خمسة وعشرين عاماً ، وقد أشرفت على شفا التفكك والدمار . ولكن شاء ربك أن ينقضى هذا الليل الطويل الذى خيم على المجتمع المصرى فجأة و بصورة مدهشة . ففى ليلة الاثنين ٢٧ شوال سنة ٤١١ هـ (١٣ فبراير سنة ١٠٢١ م) خرج الحاكم كعادته للطواف بالجبل ، وكان يشغف برصد النجوم كما قدمنا وركب حماره الأشهب ، وخرج من القاهرة يصحبه ركابيان فقط . ثم سار متوغلا فى شعب المقطم متجها نحو الجنوب ، وصرف الركابيين أثناء ذلك ، ومن تلك الساعة يختفى الحاكم بأمر الله من مسرح التاريخ إلى الأبد ، وتغمره الأساطير المغرقة . ذلك أن أحدا لم يعثر بجثته قط ، ولم يعرف مصيره قط بطريق التحقيق، وكل ما هنالك أنهم وجدوا حماره على مقربة من بركة حلوان وقد قطعت ساقاه الأماميتان ، وقيل أيضا إنهم عثروا بثيابه ملقاة فى قاع البركة وفيها أثر الطعان مما يدل على قتله .

***

وقد قيلت فى اختفاء الحاكم بأمر الله أساطير كثيرة فقيل إنه اختفى وارتفع إلى السماء وسوف يعود فى آخر الزمان . وقيل إنه توارى فى الصحراء وتنصر وترهب حتى توفى . وقيل غير ذلك . وكلها أساطير مغرقة . والحقيقة التى تؤيدها معظم الروايات المعاصرة والقريبة من العصر ،هى أن الحاكم ذهب ضحية المؤامرة والجريمة ، وقتل غيلة فى تلك الليلة المشهودة . ولكن من الذى قتله ؟ ومن الذى دبر قتله ؟

وهنا نعرض أغمض وأدق صفحة فى حياة الأميرة الفاطمية . ذلك أن معظم الروايات الراجحة تنسب تدبير هذه المؤامرة الخطيرة إلى ست الملك . والحقيقة أن ست الملك كانت أشد الناس جزعاً على مُلك أسرتها من أن تطيح به سياسة الحاكم الغاشمة وأشدهم حرصا على حمايته وتوطيده ، وأكثرهم مقاومة لسياسة أخيها المخربة . فلما أسرف الحاكم فى عيثه وفى نزواته الخطره ، ولما ضاقت ذرعاً بالمقاومة واستنفدت كل وسيلة ممكنة ، لم تجد مناصاً من اتخاذ الخطوه الحاسمة فى القضاء على الشر من أساسه

وذلك بالقضاء على شخص الحاكم ذاته ، وإبعاده نهائياً عن مسرح الحوادث .

ثم تحدثنا الرواية عن بطل الجريمة ، ويد الأميرة فى تنفيذها ، فتقول لنا إنه هو الحسين بن دوّاس زعيم كتامة أقوى القبائل المغربية ، وكان من أشد الناقمين على الحاكم لأنه مال على كتامة وسلبها نفوذها . وكان يخشى من غدره وبطشه . وبحثت ست الملك حولها بين العناصر الناقمة فلم تجد أوفر عزما وأشد مراساً من الحسين ابن دواس ، فاتصلت به سراً وعرضت عليه ما انتهت إليه الأمور من الاضطراب والفوضى من جراء تصرفات أخيها وتطرفه وإغراقه ، وانتهاكه حرمات الشريعة والإيمان بادعاء الألوهية ، وما يهدد الدولة والإسلام كله من خطر التمزق إذا استمر الحاكم فى غيه ولم يوضع حد لشنيع تصرفاته وجرائمه ، وأنه لاسبيل إلى تدارك الموقف ودفع الخطر غير قتل الحاكم وتولية ولده ؛ فلبى ابن دواس دعوة الجريمة وتعهد بالتنفيذ ، وأخذت عليه الأميرة ميثاقاً بالوفاء والكتمان ، وقطعت على نفسها مختلف المواثيق والعهود ، ووعدته بأنه سيكون مدبر الدولة وصاحب الكلمة العليا فى شئونها .

ورتب الحسين خطته ، وعهد بتنفيذ الجريمة إلى عبدين من أخلص عبيده ، فخلعت عليهما ست الملك ووهبتهما مالا وخيلا وغيرها ، وزودتهما بسكينين ماضيين ، واتفق على أن يكون التنفيذ فى مساء اليوم التالى حينما يخرج الحاكم كعادته ليلا إلى المقطم ، ويتوغل فيه منفردا مع بعض الركابية فقط . وتمت الأمور على هذا التدبير المحكم ، ففى مساء اليوم التالى وهو يوم الاثنين ٢٧ شوال خرج الحاكم راكباً حماره إلى الجبل ليرصد النجوم كعادته ، فلما توغل فى شعب الجبل منفرداً وليس معه سوى ركابى واحد فقط ، وطال تجواله حتى قرب الفجر ، خرج عبدا الحسين من مكمنهما وكانا يرصدان حركاته ، فانقضا عليه وقتلاه ، وقتلا الركابى وقطعا قوائم الحمار ، وحملا جثة الحاكم إلى سيدهما فى كساء فحملها إلى ست الملك ، فدفنته فى نفس مجلسها ، واتخذت كل أهبة لإخفاء الجريمة وتدبير ما يجب لجلوس الخليفة الجديد .

وهنا تبدو الأميرة الفاطمية فى ذروة حزمها وصرامتها ، فإنها بعد أن أتمت تدبيرها

فى تنصيب ولد أخيها أبى الحسن على (الظاهر) مكانه فى كرسى الخلافة واستوثقت من طاعة الزعماء والقبائل ، بادرت إلى القضاء على شركائها فى الجريمة ، فدبرت مقتل الحسين بن دواس وهو فى بعض أبهاء القصر ، ثم دبرت مقتل الوزير خطير الملك . ولم تبق على أحد ممن وقفوا على السر . وتمت هذه الإجراءات الدموية بسرعة وصرامة وذهب السر الرهيب مع الجناة إلى الأبد .

***

وجلس الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله مكان أبيه الحاكم فى العاشر من ذى الحجة سنة ٤١١ هـ وهو فتى يافع لم يجاوز السابعة عشرة . وتولت ست الملك تدبير الأمور وغدت كل شىء فى البلاط والدولة ، وأخذ الخليفة الجديد بوحى عمته القوية فى إصلاح الأمور وتهدئة الخواطر ، فألغى كثيراً من المراسيم الشاذة ، وأباح كثيراً مما منعه أبوه ، واستأنف سياسة التسامح نحو النصارى واليهود ، و بدأ عهد من السلام والأمن لم تشهده مصر طوال أيام الحاكم . و بذلت ست الملك جهوداً بارعة فى توطيد أركان الدولة ومطاردة الخوارج ؛ ونمى إليها أن عزيز الدولة فاتك الوحيدى والى حلب ينوى الخروج والعصيان فلجأت إلى مصانعته وأرسلت إليه خلعاً وأموالا ودست عليه فى نفس الوقت غلامه بدرا ليدبر مقتله ، و بذلت له وعوداً كبيرة ؛ ونفذ بدر جريمته وقتل فاتك بعض غلمانه ، وتولى بدر بعد مصرعه حكم حلب واقرته ست الملك على ولايته . وهكذا عملت بمختلف الوسائل على إخماد روح العصيان وتوطيد سلطان الدولة فى النواحى .

ولم تنس ست الملك شئون السياسة الخارجية فسعت إلى الصلح والمهادنة مع الدولة البيزنطية تأميناً لحدود مصر الشمالية ، وأوفدت إلى بازيل الثانى قيصر قسطنطينية بطريق بيت المقدس سفيراً ليعمل على عقد الصداقة بين الدولتين ، وليطمئن بلاط قسطنطينية على مصير النصارى ، وحمايتهم فى أنفسهم وأموالهم ، واحترام شعائرهم ، و إعادة أملاكهم وكنائسهم . وهكذا استمرت هذه الأميرة

النابهة زهاء ثلاثة أعوام بعد مصرع أخيها ، توجه شئون الملك والخلافة بهمة و براعة تخلق بأعظم الزعماء والقادة . بيد أنها كانت تدنو مسرعة من الخاتمة ، ولم تلبث أن توفيت فى أواخر سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣ م) وقد بلغت الخامسة والخمسين من عمرها .

لقد عاشت ست الملك الفاطمية أميرة فقط ولم تجلس على عرش ولم تتبوأ رياسة أو زعامة رسمية . ولكنها كانت بذكائها وقوة نفسها و بارع خلالها أقدر من كثيرين ممن تبوأوا العروش والرياسة . و إذا كانت الرواية لم تحدثنا كثيراً عن جمالها وسحرها كامرأة فإنها تفيض فى مواهبها البديعة كمدبرة للملك والسلطان .[1]

(١) تحدثنا بإفاضة عن نشأة الأميرة ست الملك وحياتها والدور الذى قامت به فى مصرع أخيها فى كتابنا « الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية » ص ٤٢ ، ٤٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ و ١٣٤ ، ١٣٦ وكذلك المراجع .

الحسن الصباح

(نحو ٤٣٠ — ٥١٨ هـ) ، (١٠٣٨ — ١١٢٤ م)

فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، بينما كانت الدولة الفاطمية بمصر ترفع لواء الشيعة الدينى والسياسى ، كانت الدعوة الشيعية فى فارس والعراق تتمخض عن فرقة أخرى ، تنتمى كالخلافة الفاطمية إلى الإمامة الإسماعيلية ، وتشق طريقها إلى السلطان والملك بأساليب عجيبة لم تعرفها من قبل أية فرقة إسلامية أخرى . وكان سلطان الشيعة السياسى الذى حققه الفاطميون فى مصر بفتوحهم ، و إقامة دولتهم الباذخة ، قد أخذ فى الضعف والانحلال . ولكن الدعوة الشيعية لبثت مع ذلك قوية تضطرم فى المشرق . وكانت تتجه دائماً إلى الخلافة الفاطمية لتستمد منها الإلهام والعضد الروحى ، ولكنها كانت تتخذ مع ذلك صبغة محلية تكيفها الحوادث والظروف .

وكانت هذه الفرقة المذهبية الجديدة تنضوى منذ البداية تحت علم الإمامة الإسماعيلية . بيد أنها عرفت فيما بعد فى مختلف الأقطار بأسماء مختلفة مثل الملحدة والمزدكية والتعليمية والباطنية ، وعرفت فى الشأم أيام الصليبيين بالحشيشية . والباطنية أشهر ألقابهم وأخصها ، أطلق عليهم لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً ولكل تأويل تنزيلا[1] ؛ ولأنهم من جهة أخرى كانوا يحرصون على كتمان دعوتهم وغاياتهم[2] ، يبثونها فى الخفاء ولا يبدونها إلا لخاصة الصحب والتلاميذ .

ومؤسس هذه الدعوة الإسماعيلية الباطنية ، وواضع أصولها ، ومنظم دعاتها رجل تقدم لنا سيرته العجيبة صفحة من أغرب صحف الدعوات السرية ، هو الحسن بن على

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ٢ ص ٢٩ (هامش كتاب الفصل) .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٩٤ .

الصبَّاح الحميرى ، وهو شخصية تذكرنا أعمالها وقوة خلالها بأعظم زعماء الحركات السرية والإرهابية الحديثة ، بل سنرى فيما يلى أن الحركات الثورية والإرهابية الحديثة التى هزت أركان العروش والدول، قد تقتبس كثيراً من نظمها وتعاليمها السرية، من نظم الحسن وتعاليمه ، وأن الحسن كان إمام هذا الفن وأستاذه الذى لا يجارى .

كان الحسن الصباح إماماً من أئمة الدعوة السرية فى عصر كانت الدعوة فيه أنفذ سلاح لغزو المجتمعات والجماهير . وكان قطباً من أقطاب الخفاء ، يحيطه الخفاء بسياج من القوة والروع ، وكانت فلسفته أعظم عناصر قوته . ذلك لأن الحسن لم يكن متآمراً وداعية فقط ، بل كان أيضاً كما سنرى فيلسوفاً يطبع فلسفته كثير من الذكاء والطرافة ، وكان ينظر من خلال فلسفته إلى العالم والمجتمع بمنظاره الخاص ، ويتخذ منها قانوناً خاصاً للحكم على الأشخاص والأشياء والحوادث .

***

ظهر الحسن فى عصر كان الإسلام يستقبل فيه مرحلة من أدق المراحل وأخطرها ، ويستجمع قواه ليخوض مع النصرانية فى ميدان الحروب الصليبية معركة جديدة من معارك الحياة والموت . وكان مولده فى طوس من أعمال خراسان فى حدود الثلاثين بعد المائة الرابعة . وكان والده الصباح فقيهاً متواضعاً يعتنق مذهب الشيعة الرافضة فى الخفاء ، ويستتر بثوب من التقشف والورع . وكان ينتحل لنفسه نسبة عربية ويزعم أنه سليل الصباح الحميرى . وقضى الحسن صباه فى طوس ، ودرس الفقه والحديث على المحدث الشهير موفق الدين النيسابورى . وكان من زملائه فى الدراسة إثنان تألق نجمهما فيما بعد ، وأصبحا من أعلام العصر ، وهما الشاعر الأشهر عمر الخيَّام ، والوزير الكبير نظام الملك . وكانت طوس يومئذ مركزاً للدراسات الدينية الخطيرة . وفيها ولد وظهر فى نفس العصر أعظم فلاسفة الإسلام الروحيين ونعنى حجة الإسلام الغزالى . وكانت أيضاً مركزاً للدعوات الدينية السرية ، ومهبطاً لأقطاب الدعاة . وفيها تلقى الحسن الدعوة الإسماعيلية منذ حداثته . ويحدثنا الحسن عما خالجه يومئذ من تردد

فى قبولها ، وما كان يعتقده من أن مذهب الإسماعيلية ، إنما هو مذهب الفلاسفة ، وأن إمامهم خليفة مصر الفاطمى ، إنما هو مفكر من المفكرين الفلاسفة ، وكيف انتهى أخيراً إلى اعتناق المذهب ، وغدا من تلاميذ عبد الملك بن عطّاش أحد أقطاب دعوتهم ، ثم صحبه إلى الرّى شاباً يضطرم إخلاصاً للدعوة وحماسة فى بثها[١] .

ودرس الحسن الكيمياء والفلك وضروب السحر والخفاء التى كانت فى عصره علوماً رفيعة ، وكانت سلاحاً يشهره الأذكياء والأدعياء على البسطاء والعامة . وكان صديقه ورفيق صباه نظام الملك قد شق طريقه إلى السلطان والمجد ، فاتصل به يلتمس عونه وعضده فألحقه بخدمة السلطان . وقرّبه السلطان وحظى لديه بما أبدى من فطنة وبراعة . ولكنه لم يلبث أن انقلب على صديقه والمحسن إليه يحاول الإيقاع به . وأوجس نظام الملك خشية من دسه ونفوذه فعمل على إقصائه ، واتهمه بالإلحاد وبث الدعوة الإسماعيلية ، فأقصاه السلطان وغادر البلاط ساخطاً يلتمس لنشاطه آفاقاً أخرى .

وكانت هذه مرحلة التكوين والاستعداد فى حياة الحسن . وكان هذا الرهط المستتر من الدعاة يتجه دائماً إلى مصر وإمامها الفاطمى ، قطب الدعوة وملاذها ، ورمز سلطانها وسيادتها ، فإلى مصر اتجهت أنظار الحسن . وشجعه شيخه عبد الملك لما آنس فيه من مقدرة وإخلاص على السفر إليها ، ليحظى برؤية إمامها المستنصر بالله الخليفة الفاطمى ، وليستمد منه التأييد والعون ؛ فسار الحسن إلى مصر وهبطها فى حدود الثمانين (نحو سنة ٤٨٠ هـ)[٢] . وفى رواية أخرى أن الحسن سار إلى مصر فراراً من نقمة حاكم الرى إذ اتهمه ببث الدعوة الإلحادية والتستر على نفر من دعاة المصريين[٣] . ولما وصل إلى مصر لقى منتهى الحفاوة ، واستقبله داعى الدعاة الشريف

(١) رجعنا فى ذلك إلى ما أورده مسيو Jourdain المستشرق الفرنسى فى مذكرة استقاها من مخطوطات إسماعيلية محفوظة بدار المكتبة الوطنية بباريس ووجهها إلى المؤرخ Michaud صاحب تاريخ الحروب الصليبية (أنظر Michaud: T.I. p. 474 et suiv.).

(٢) مذكرة مسيو چوردان المشار إليها . (٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٩٤ .

طاهر القزوينى وعدة من الشيوخ الأكابر عند الحدود . ورحب به الخليفة المستنصر بالله ، وأكرم وفادته ، وأفرد لإقامته منزلاً خاصاً ، وقربه وأمره بدعاء الناس إلى إمامته . ولبث الحسن بمصر ثمانية عشر شهراً يتمتع فيها بتأييد الخليفة ورعايته وثقته ، ويدرس أساليب الدعوة على أساتذة دار الحكمة المصرية التى لبثت بالرغم من تقلص نفوذها القديم أعظم مركز على لتلقين الدعوات السرية . بيد أنه لم يستطع أن يحرز من النفوذ ما كان يطمح إليه . ذلك أن الخليفة الفاطمى لم يكن يومئذ أكثر من زعيم روحى ، وكانت مصاير الحكم والسلطان قد انتهت يومئذ كلها إلى أمير الجيوش بدر الجمالى ، المتغلب على الدولة والمستأثر بشئونها . ولم يوفق الحسن إلى الحظوة لدى أمير الجيوش إذ كان يوجس خيفة من نياته ومشاريعه . واستحكم الجفاء بين الرجلين . ولما ثارت مسألة ولاية العهد واختار المستنصر ولده نزاراً لولاية عهده ، أيده الحسن فى اختياره بحماسة . ولكن خالفه أمير الجيوش وحزبه واختار ولد الخليفة المستعلى لولاية العهد ؛ وكان هذا الخلاف منشأ فرقة إمامية نعتت بالنزارية نسبة لنزار ولد المستنصر . وسخط أمير الجيوش على الحسن لمناوأته ، وانتهز هذه الفرصة فحمل الخليفة على إقصائه ، وأمر به فاعتقل فى بعض قلاع دمياط . بيد أنه استطاع غير بعيد أن يفر من معتقله ، وأن يجوز فى بعض السفن إلى ساحل الشام .

ونزل الحسن فى حلب وأقام بها حيناً ثم رحل إلى بغداد ، فخوزستان وأصفهان ويزد وكرمان ، وهو يبث دعوته أينما حل . وكان يبثها فى الواقع فى مهاد خصبة تجتاحها الدعوات السرية منذ بعيد . بيد أن الحسن لم يكن رجلاً نظرياً يقف عند الدعوة والمثل النظرية ، وإنما كان رجل عمل يرى فى الدعوة مرحلة تمهيدية ، ويتطلع إلى اجتناء ثمراتها العملية . وكانت فارس تقدم يومئذ بنظمها الإقطاعية وأحوالها السياسية والاجتماعية المضطربة إلى المغامرين خير الفرص . وكانت المنطقة الشمالية الغربية ما بين الديلم والعراق تتخللها عدة قلاع منيعة شاهقة تقع فى هضاب وعرة ، ويستطيع المسيطر عليها ، أن يبسط سيادته على تلك المنطقة كلها . فإلى هذه المنطقة

اتجهت أنظار الحسن . وكان الإسماعيلية قد بدأوا بالفعل حركتهم العنيفة ، فرفعوا لواء الثورة فى أنحاء همذان ، وحاربوا جند السلطان ؛ واستطاع أحد زعمائهم أحمد بن عطاش ولد الشيخ عبد الملك أن يستولى على قلعة « شاه در » بالقرب من أصفهان ، وأن يتخذها قاعدة للهجوم والدفاع . أما الحسن فوجه اهتمامه إلى ولاية روذبار الواقعة فى شمال قزوين ، وإلى قلعتها المنيعة ألَموت . وكان قد بعث دعاته إلى هاتيك القلاع والحصون ، يبثون الدعوة بين الجند ، ويفسدون ولاءهم وعقائدهم وكان حاكم القلعة من قبل مَلِكشاه علوياً يدعى أبو مسلم ، وهو صهر لنظام الملك ، فاتصل به الحسن وتوثقت بينهما أواصر الصداقة ولبث الحسن يتحين الفرص ؛ وفى ذات مساء وثب بصاحب القلعة فى جمع من أنصاره فأخرجه منها واستولى عليها . وكان ذلك فى السادس من رجب سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) .

وبادر السلطان بإرسال الجند إلى ألَموت لاستردادها . فضيقوا الحصار عليها ، وجهد الحسن وأنصاره داخلها ؛ فعندئذ فكر فى اغتيال نظام الملك خصيمه ومطارده الحقيق ، فدس عليه فتى من دعاته فاغتاله ذات مساء من شهر رمضان (سنة ٤٨٥) وقتل القاتل لوقته[١] . ووقع الاضطراب فى البلاط واستدعى السلطان جنده فرحلوا عن ألَموت ، وتنفس الحسن الصعداء . ثم بادر إلى تحصين القلعة وملأها بالرجال والذخائر والأقوات ، وغرس حولها الأشجار الباسقة وغدت ألَموت ومعناها « تعليم العقاب » تسيطر بقوتها ومناعتها على ولاية روذبار كلها .

ولم يمض سوى قليل حتى توفى السلطان ملكشاه ، ووقع الخلاف بين ولديه محمود وبركيارق . وانتهز الإسماعيلية فرصة الحرب الأهلية بين الأخوين فاستولوا على عدد كبير من القلاع والحصون فى قوهستان وأصفهان وهمذان وغيرها ، واستفحل أمر ابن عطاش صاحب قلعة « شاه در » وبسط سلطانه على كثير من أنحاء اصفهان ،

---

(١) الروضتين فى تاريخ الدولتين ج ١ ص ٢٥ وابن خلدون ج ٤ ص ٩٤ ، وكلاهما يبدى فى روايته أن نظام الملك توفى قتيلا بيد الباطنية . وابن خلدون صريح فى أن القتل تم بتحريض الحسن . ولكن ابن الأثير يقدم لنا فى ذلك رواية أخرى (ج ١٠ ص ٧٠ و٧١) .

وازداد الإسماعيلية قوة حين حالفهم السلطان بركيارق على أخيه ، ونشطوا إلى مطاردة الأمراء السلاجقة حلفاء السلطان محمود واغتالوا عدة منهم . وبثوا الرعب والروع فى أنحاء فارس، وفشت دعوتهم بين الجند والعامة، وغدوا قوة يخشى بأسها . وكان بركيارق نفسه أول من خشى بطشهم فانقلب إلى قتالهم ، وفتك بجموعهم فى أنحاء مملكته . ولما انتهت الحرب الأهلية بين أبناء ملكشاه وعقد الصلح بينهم ، جد الأمراء السلاجقة فى محاربة الإسماعيلية ، وأثخن فيهم السلطان محمد بن ملكشاه ، وأفنى جموعهم فى أنحاء أصفهان ، وحاصر ابن عطاش فى شاه دز ، واستبسل الإسماعيلية فى الدفاع فلم يغنهم ذلك شيئاً ، ووقعت القلعة أخيراً فى قبضة السلطان ، وأسر ابن عطاش وآله ولقوا أروع موت .

وليس من موضوعنا أن نتتبع أدوار هذه المعركة التى اضطرمت فى فارس بين الإسماعيلية والأمراء السلاجقة وخلفائهم التتار . ويكفى أن نقول أنها استطالت زهاء قرن ونصف بسط الإسماعيلية خلالها حكم إرهاب حقيقى على الأنحاء الشمالية ، ولم يظفر السلاطين بالقضاء على دولتهم المروعة إلا بعد جهود جبارة متوالية .

فى ذلك الحين كان الحسن الصباح ممتنعاً فى ألَموت معقله ومركز سلطانه ؛ وكان صعوده إلى « ألَموت » بدء مرحلة جديدة فى حياته وحياة طائفته . ومن ذلك الحين ينتظم الإسماعيلية إلى دولة حقيقية ، ويغدو الحسن الصباح زعيماً لدولة دينية سياسية . دولة من نوع خاص يتمتع زعيمها قبل كل شىء بصفة الإمامة الروحية ، ويستند إلى قوة خفية غير ظاهرة ، قوامها جيش من الدعاة والفدائيين المتعصبين ، يتشحون بأثواب من الزهد والورع ، ويعتمدون على غزو الأذهان والعقول ، وعلى سلاح المؤامرة والغيلة ، ويؤيدون تعاليمهم الخفية بالخناجر المستورة ، ومثلهم الفلسفية والروحية بأعمال عنف مروعة . والواقع أن دولة الاسماعيلية الباطنية لم تكن سوى جمعية سرية هائلة ، وضع الحسن نظمها ومبادئها المدهشة ، ولبث أعواماً طويلة يرعاها ويوطدها فى عزلته ، حتى غدت قوة عظيمة تحدث آثارها العميقة فى حوادث العصر وتطوراته .

٢

وقد وضع الحسن قواعد مذهبه ومبادئ طائفته بالفارسية ، فى عدة رسائل فلسفية كلامية نقل إلينا خلاصتها مواطنه ومعاصره الفقيه والمتكلم البارع أبو الفتح الشهرستانى(١) فى كتابه « الملل والنحل » . وقد عاش الشهرستانى فى ذلك العصر المضطرب الحافل بالحروب والثورات الداخلية ، وعاصر حركات الإسماعيلية ووثباتهم فى فارس ، وعاصر إمامهم الحسن منذ « صعوده » إلى ألَموت حتى وفاته ، ونقل إلينا تعاليمه قبل أن تمتد إليها يد التغيير والتبديل . و إليك خلاصة هذه التعاليم التى جعلها الحسن دستوراً لدعوته ، والتى تدلى بكثير من الطرافة فى الابتكار والمحاجة .

يقول الحسن بوجوب الدعوة إلى تعيين إمام صادق قائم فى كل زمان ومكان ، و إن الفرقة الناجية تتميز من سائر الفرق بأن لها إماماً وليس لغيرهم إمام . و يقول فى معرفة البارى بضرورة استعمال العقل والنظر إلى جانب المعلم الصادق ، و إن الناس فى ذلك فرقتان قالت الأولى بوجوب الاستعانة فى معرفة الله بالمعلم الصادق ، و إنه لا بد من معرفته أولاً والظفر به ثم التعلم منه . وقالت الثانية بالأخذ فى كل علم من معلم وغير معلم ؛ و إن الحق مع الفرقة الأولى فرأسهم يجب أن يكون رأس المحققين ، و إذ تبين أن الباطل مع الفرقة الثانية فرؤساؤهم يجب أن يكونوا رؤساء المبطلين . قال وبالاحتياج عرفنا الإمام ، و بالإمام عرفنا مقادير الاحتياج ، كما بالجواز عرفنا الوجوب أى واجب الوجود ، و به عرفنا مقادير الجواز فى الجائزات .

ثم يقول الحسن إن فى العالم حقاً وباطلاً ، و إن علامة الحق هى الوحدة وعلامة الباطل هى الكثرة ، و إن الوحدة مع التعليم والكثرة مع الرأى ، والتعليم مع الجماعة ، والجماعة مع الإمام ، والرأى مع الفرق المختلفة ، وهى مع رؤسائها . وجعل الحق والباطل ، والتشابه بينهما من وجه ، والتمايز بينهما من وجه ، التضاد فى الطرفين ، والترتب فى أحد الطرفين ميزاناً يزن به جميع ما يتكلم فيه ، ووزن بذلك الخير

---

(١) كان مولد الشهرستانى فى سنة ٤٦٧هـ ووفاته سنة ٥٤٨هـ بشهرستان من أعمال خراسان

والشر ، والصدق والكذب ، وسائر المتضادات ؛ وطريقته أن يرجع فى كل مقالة وكلمة إلى إثبات المعلم ؛ وأن التوحيد ، هو التوحيد والنبوة معاً ، حتى يكون توحيداً ؛ وأن النبوة هى النبوة والإمامة معاً حتى تكون نبوة . ولم يتعد فى مسألة الألوهية قوله : إن إلهنا هو إله محمد ، وهو الذى أرسل رسوله بالهدى ، والرسول هو الهادى إليه . وقد منع الحسن العامة عن الخوض فى العلوم ، وكذلك الخاصة عن مطالعة كتبه المتقدمة إلا من استطاع منهم فهمها .

هذه خلاصة الآراء والمبادئ التى أقام عليها الحسن الصباح دعوته ، وجعلها دستوراً لطائفته ، وقد ذكر لنا الشهرستانى بعد إيرادها أنه كثيراً ما ناظر القوم أى الإسماعيلية فى هذه المقدمات . فلم يظفر منهم بطائل ، وأنه كثيراً ما نعى عليهم التسليم والتقليد دون المحاجة والإقناع (١) .

وليس من موضوعنا أن نناقش هذه الآراء والمبادئ فذلك شأن المتكلمين ، وقد ناقشوها فى مواطن كثيرة . وقد وضع الغزالى مواطن الحسن ومعاصره ، رسالة خاصة فى تفنيد مبادئ الإسماعيلية الباطنية أسماها « فضائح الباطنية » ، وحمل فيها عليهم وعلى مبادئهم حملة شديدة ، ووصف مذهبهم إجمالاً فيما يأتى : « أما الجملة فهو أنه مذهب ظاهره الرفض ، و باطنه الكفر المحض ، ومفتتحه حصر مدارك العلوم فى قول الإمام المعصوم ، وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق ، لما يعتريها من الشبهات ، ويتطرق إلى النظار من الاختلافات ، و إيجاب لطلب الحق بطريق التعليم والتعلم ، وحكم بأن المعلم المعصوم هو المستنصر ، وأنه مطلع من جهة الله على جميع أسرار الشرائع ، يهدى إلى الحق و يكشف عن المشكلات ، وأن كل زمان فلا بد فيه من إمام معصوم يرجع إليه فيما يستبهم من أمور الدين . هذا مبتدأ دعوتهم . ثم إنهم بالآخرة يظهرون ما يناقض الشرع وكأنه غاية مقصدهم ، لأن سبيل دعوتهم ليس بمتعين فى فن واحد ، بل يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيه بعد أن

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ٢ ص ٣٢ — ٣٦ .

يظفروا منهم بالانقياد لهم والموالاة لإمامهم » . ثم يقول : « والمنقول عنهم الإباحة المطلقة ، ورفع الحجاب ، واستباحة المحظورات واستحلالها ، وانكار الشرائع ، إلا أنهم بأجمعهم ينكرون ذلك إذا نسب إليهم »[١] .

***

كانت هذه الدعوة الفلسفية الكلامية تمثل فى برنامج الحسن جانبه المعنوى والنظرى فقط . أما الجانب العملى فكانت تحدوه ثورة إلحادية حقيقية ؛ وكان شعار الحسن الخفى الواقعى : « أنه لا شىء حق ، وكل شىء مباح » . بيد أنه كان يتشح بثوب من الورع الفياض ، ويسبغ على آرائه وخططه صبغة دينية عميقة ، ويستظل بلواء الإسلام الحق والإمامة المقدسة ، ويتظاهر بأنه لا يبغى سوى توطيد كلمة الدين وقمع البدع والضلال . وكان النظام السرى المدهش الذى وضعه لطائفته أنفذ أسلحته وأمضاها . وكانت الطائفة تتدرج فى مراتب سبع سرية على رأسها الرئيس أو السيد أو الشيخ ، وهو اللقب الذى اختاره الحسن وآثره على ألقاب الملك والإمارة ، وعرف فيما بعد « بشيخ الجبل » نظراً لامتناع الشيخ فى قلعته الجبلية الشاهقة . ويلى الشيخ المقدمون فالدعاة فالرفاق فالفدائيون ، وهم عماد الطائفة وسر قوتها وسيفها المشهر دائماً على أعناق خصومها ، ثم الحراس والمحاربون ثم التلاميذ . ولا يقف أهل المراتب الأخيرة على شىء من أسرار الدعوة وغاياتها ، ولا يقف عليها سوى كبار المقدمين والدعاة ، وأهل المراتب الصغرى آلات صماء توجه حيثما وكيفما أريد .

وقد استعان الحسن فى تنظيم طائفته بخبرة واسعة بالناس والطبيعة البشرية ؛ وكان يعرف حق المعرفة ما يمكن اجتناؤه من الدعوة السرية ، وما جناه الفاطميون بواسطتها من الظفر والسلطان ، فكانت وسيلته وسلاحه النافذ فى تأييد هيبته وسلطانه . وكان يعلم من دراسة عميقة للسياسة والتاريخ ، أن الإلحاد والفساد الخلقى قد يعاونان أحياناً على إسقاط أسرة ، ولكنهما لا يعاونان قط على تأسيس أخرى .

---

(١) الغزالى فى رسالة فضائح الباطنية التى نشرت بعناية المستشرق جولدسهر ، ومهد لها بمقدمة طويلة بالألمانية ، وطبعت فى ليدن (ص ٨ و ١٠).

وقد تفيد الفوضى المحكومين أحياناً ، ولكنها يجب ألا تكون قط غاية الحكام ، وأن الكتلة التى تخضع لواحد أو أكثر لا يمكن قيادتها إلا بقوانين وأصول أخلاقية ودين مستنير ؛ فهذه وحدها كفيلة بطاعة الشعوب وسلامة الأمراء(١) .

وعاش الحسن فى ألَموت فى عزلة مطبقة ، يؤلف كتب الدعوة ، ويسهر على مصاير طائفته وسلطانه . وفى عهده ازدهرت الطائفة واستطاعت بسلسلة من المغامرات والمعارك المتواصلة أن تبسط سلطانها على عدد من الحصون والمعاقل القوية فى العراق والشام . وغدا الإسماعيلية فى الواقع قوة سياسية يحسب حسابها ولا سيما فى فارس . ولما استفحل أمر الطائفة هب الأمراء السلاجقة إلى محاربتها وسحقها كما رأينا . وانتهت المرحلة الأولى من النضال بسحقهم وزوال نفوذهم من منطقة أصفهان . أما الحسن فلبث ممتنعاً فى ألموت يعمل على توطيد نفوذه فى منطقة روذبار . ولما وقع الخلاف بين أبناء مَلِكشاه عمل الإسماعيلية على توسيع نفوذهم ، وأثخنوا فى تلك الأنحاء وقطعوا طرق القوافل ، وأسرفوا فى الاعتداء والسفك والنهب ، وبسط الحسن فى تلك الأنحاء حكم إرهاب حقيقى ؛ فاستغاث الناس بالسلطان ، وحاول السلطان أن يدعو الحسن إلى طاعته بالحسنى . وهنا يُروى أن الحسن حينما وفد عليه رسول السلطان يدعوه إلى طاعته ، دعا أمامه باثنين من رجاله وأمر أحدهما أن يغمد خنجره فى قلبه ، وأن يلقى الثانى بنفسه من أعلى الحصن ، ففعلا فى الحال وهلكا على الأثر . ثم قال الحسن للرسول : قل لمولاك يطيعنى هكذا سبعون ألفاً من الرعايا المخلصين .

فعندئذ سيَّر السلطان ، وهو يومئذ محمد بن ملكشاه ، جنده لمحاربة الإسماعيلية والاستيلاء على ألموت معقلهم ، وتوالت حملاته عليهم ، ولكنهم استطاعوا هزيمتها جميعاً . فلم ير السلطان بداً من أن يشهر عليهم حرباً عظيمة ؛ فأرسل إليهم فى سنة ٥٠٥ هـ (١١١١ م) جيشاً ضخماً بقيادة الأمير أنوشتكين شيركير فهاجمهم واستولى على عدة من قلاعهم . وغادر الإسماعيلية الحصون المفتوحة إلى ألموت

(١) فون هامار Von Hammer فى كتابه عن الإسماعيلية أو الحشيشية . ص ٨٣ .

فعصت بهم ، وجمع الحسن قواته واستعد للمعركة الحاسمة . ثم سار أنوشتكين إلى ألموت ، وضرب حولها الحصار الصارم ، و بنى حولها المساكن لجنده . وطال الحصار أعواماً ؛ ولقى الإسماعيلية أهوالاً فى جلب الأقوات والمؤن ، وأشرفوا على الهلاك ، وهددهم شبح الموت جوعا ، وكاد اليأس يحملهم على التسليم ؛ ولم ينقذهم من القضاء المحتوم سوى موت السلطان محمد (٥١١ هـ) . وعندئذ اضطر أنوشتكين أن يرفع الحصار وأن يرحل ؛ فطارد الإسماعيلية مؤخرته ، واستولوا على ما خلفه من الأقوات والأسلاب ، وقويت بذلك نفوسهم وآمالهم ، وعاد سلطانهم كما كان خطراً مروعاً .

٣

إلى ذلك الحين قطع الحسن فى ألموت منذ استيلائه عليها زهاء ثلاثين عاماً ، يوطد زعامته الدينية وسلطانه السياسى ببراعة مدهشة . وكان يحرص جد الحرص على إمامته الدينية ويحيطها بجميع المظاهر الصارمة المؤثرة ، وكان يعيش فى منتهى التقشف ، ويشتد فى تطبيق أصول الدين وفرائضه ، ويسود الزهد المطبق والطاعة العمياء كل مكان ، وتحرم الخمر والموسيقى وكل الملاذ والملاهى الدنيوية المحرمة . وكان الشيخ أو شيخ الجبل (وهو اللقب الذى اتخذه الحسن) يرتدى دائماً البياض على طريقة المبيضة ، ويرتدى الرفاق والفدائية أثواباً بيضاء وأحذية وأحزمة حمراء . وكان يلازم معقله طوال السنين لا يغادره مطلقاً ، بل يقال إنه مدى إمامته فى ألموت وقد طالت خمسة وثلاثين عاماً ، لم يظهر فى شرفة قصره أكثر من مرتين[١] .

وعاش الحسن طويلا بعد أهله وصحبه جميعاً ، وسقط معظم أكابر دعاته صرعى الخناجر ؛ وفى أواخر حياته شابت الوحشية طباعه ، وتفاقمت صرامته وقسوته ، حتى أنه قتل ولديه بيديه أولهما وهو « الأستاذ » الذى كان يرجى أن يخلفه فى رياسة الطائفة ، لأنه اتهم بالاشتراك فى مقتل حسين القينى مقدم قوهستان ، وهو من خاصة الدعاة المقربين ، والثانى لأنه شرب الخمر . بيد أنه لا ريب أن هناك بواعث

(١) مذكرة مسيو چوردان المشار إليها .

أخرى حملت الحسن على هذه الصرامة الدموية ، فربما خشى من دسائس ولديه ، وقد سئما حكمه الطويل ، ويئسا من تولى السلطة مكانه ، وربما رآهما الحسن غير خليقين بخلافته فى رياسة تقتضى كثيراً من المواهب والصفات الرفيعة فاعتزم أن يسحق الأسرة ، وأن يترك خلافته للأصلح من دعاته . ذلك أن روابط الدم والقرابة لم يكن لهما كبير حساب فى جماعة توثق روابطها قبل كل شىء بأواصر الجريمة والدم المسفوك(١) .

ويقول لنا فون هامار فى هذا الموطن : « إن الحسن كان جامداً خلال سلطانه ولكنه كان يدفعه إلى أطراف خراسان والشام . وكان يوجه بقلمه خناجر أتباعه الفدائية . وكان أداة رائعة للقدر ، كالوباء والحرب ، كارثة على الملوك الضعفاء ، والشعوب المنحلة » .

وقد ترك لنا المؤرخ الفارسى « ميرخوند » فى كتابه « روضة الصفاء » نبذة طويلة عن تاريخ الإسماعيلية فى فارس ؛ وأهمية روايته فى أنها منقولة عن التاريخ الذى وضعه الوزير عطاء الملك وزير السلطان هولاكو عن الإسماعيلية ، منقولاً عن كتبهم وأوراقهم بعد أن سقطت ألموت فى يد السلطان ، ولقى الإسماعيلية مصرعهم فى فارس سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) . وتاريخ ميرخوند هو مرجعنا فى كثير من الوقائع والتفاصيل التى أوردناها(٢) .

***

وتوفى الحسن الصباح فى ألموت سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) بعد أن حكم خمسة وثلاثين عاماً وقد أشرف على التسعين من عمره .

وكان الحسن كما رأيت رجلاً من أفذاذ الرجال ، ومغامراً يفيض ذكاء وجرأة وإقداماً ؛ وكان مفكراً من أعظم مفكرى عصره . وقد شق إلى الرياسة والملك طريقاً

---

(١) فون هامار .

(٢) مذكرة مسيو چوردان المشار إليها .

وعراً محفوفاً بالمخاطر ، فذلل وعره وصعابه بدهاء و بعد نظر ، وثاقب معرفة بالناس والحوادث . و إذا كان قد لجأ فى تحقيق خططه وغاياته إلى وسائل مروعة وأساليب مثيرة يأباها الولاء والشرف والخلق الأمثل ، فهو لم يكن فى ذلك إلا مطبقاً لنوع من السياسة المكياڤيلية ، قبل عصر المكياڤيلية ، وهى سياسة لا تحجم اليوم عنها ولا تأنف من اتباعها فى عصرنا دول عظيمة قوية . و إذا كان قد اختار هذه الأساليب الدموية لإنشاء دولته وتوطيد سلطانه ، فإنه لم يكن يقصد فيما يرجح أن ينحدر الإسماعيلية إلى ذلك المعترك الإجرامى الذى انحدروا إليه على يد خلفائه ، حتى غدوا غير بعيد جمعية من المغامرين والقتلة السياسيين الذين لا تحدوهم أية غاية مثلى .

وتنوه الرواية الإسلامية بشجاعة الحسن وقوة رأيه ، و براعته فى مختلف العلوم والفنون[1] ؛ و يعتبره المستشرق فون هامار عبقرية عظمى .

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٢٢ ؛ وأبو الفدا ج ٢ ص ٢١٤ .

سنان شيخ الجبل

رأينا فى الفصل السابق كيف غدت طائفة الإسماعيلية على يد إمامها ومنشئها الحسن الصبّاح قوة دينية وسياسية يحسب حسابها ، وكيف استطاعت أن تلعب فى حوادث فارس السياسية فى أوائل القرن السادس الهجرى دوراً خطيراً .

ولم يكن نشاط هذه القوة السياسية الجديدة مقصوراً على شمال غربى فارس حيث قامت دولة الإسماعيلية فى ألَموت ، ولكنه لم يلبث أن انساب نحو الغرب حتى الشام ، وهنالك ألفى فى سير الحوادث والظروف فرصة سانحة للعمل . وكانت الأمم الإسلامية فى الشرق الأوسط ، تجتاز خلال القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) مرحلة عصيبة من تاريخها ؛ ففى هذه الحقبة استقر الفرنج الصليبيون فى فلسطين وثغور الشام ، وقامت مملكة نصرانية لاتينية فى بيت المقدس ، فى قلب ديار الإسلام ، وانقسمت الكتلة الإسلامية فى المشرق إلى دويلات صغيرة متنازعة ، ونشب بين الإسلام والنصرانية فى تلك المنطقة صراع مستمر طويل الأمد ، وغدت المعارك سجالاً بين هذه القوى الخصيمة المتفرقة . ولكن الفرنج الصليبيين احتفظوا لأنفسهم مدى حين بنوع من التفوق . ذلك لأن الخلافة الفاطمية فى مصر كانت تجوز مرحلة انحلالها ، وكانت الإمارات الإسلامية فى شمال الشام مشغولة بمعاركها المحلية المستمرة ، وكان الفرنج ينتهزون الفرص السانحة فيعملون على إذكاء الخلاف ، ويظاهرون أميراً على أمير ، ويحققون لأنفسهم ما استطاعوا من الأسلاب والمغانم .

ففى تلك الفترة العصيبة المضطربة كانت الشام فضلاً عن كونها مسرحا للحروب الأهلية والمعارك الصليبية المتواصلة ، مسرحاً لنشاط بعض الجمعيات السرية التى ألفت

فرصتها فى تلك الفوضى السياسية والاجتماعية الشاملة . وكان فى مقدمة هذه الجماعات طائفة فرسان المعبد أو الداوية (Templars) وطائفة الأسبتارية (Hospitallers) أو فرسان القديس يوحنا ، وهما طائفتان من الفرسان النصارى ظهرت كلتاهما بعد قيام المملكة الصليبية ، وأنشئت فى البداية لبواعث وظروف دينيه ، ثم انقلبت بعد ذلك إلى جمعية سرية مجاهدة . وقامت إلى جانب هاتين الطائفتين النصرانيتين طائفة إسلامية هى طائفة الإسماعيلية أو الباطنية تتسم بنفس صفاتها التى أسبغها عليها مؤسسها الحسن الصباح ، وتعتمد فى تنفيذ مآربها على نفس وسائلها أعنى على الإرهاب السياسى والاغتيال المنظم . وذلك أنه لما اشتدت مطاردة الأمراء السلاجقة للإسماعيلية فى فارس فى أوائل القرن السادس فر بعض دعاتهم إلى الشام ولبثوا حيناً يبثون هناك دعوتهم سراً . وكان الأمراء المحليون مثل صاحب حلب وصاحب دمشق يلجأون أحياناً إلى هؤلاء الدعاة الخطرين فى تنفيذ مشاريعهم واغتيال خصومهم ، وبذلك أضحوا فى الشام مثلما غدوا فى فارس قوة سياسية يحسب حسابها . ولما كثر جمعهم وقوى أمرهم طلب زعيمهم بالشام بهرام الاسترابادى من صاحب دمشق حصناً يأوى إليه مع أنصاره ، فأقطعه قلعة بانياس (٥٢٠هـ) فتحصنوا بها ؛ ولم يأت منتصف القرن السادس حتى كانت لهم فى الشام سلسلة من القلاع المنيعة بين طرابلس وحماة يتخذونها قواعد للإغارة والدفاع حتى غدوا عاملاً قوى الأثر فى حوادث هذا العصر وتطوراته .

كان الداوية والأسبتارية يعملون فى البداية لخدمة القضية الصليبية وتوطيد سلطان الصليبيين فى المشرق ؛ وكانت نظمهم ووسائلهم فى العمل تشبه من بعض الوجوه نظم الإسماعيلية ووسائلهم . ذلك أنهم فضلاً عن الجهاد الحربى السافر كانوا يعتمدون على التآمر والدس والاغتيال المنظم . ولما اضطربت الأمور وتفرقت كلمة الأمراء الصليبيين استحال الدواية والأسبتارية إلى جماعات سرية نفعية ترتكب جرائمها وتبحث عن مغانمها حيثما استطاعت دون النظر إلى اعتبار الدين أو القومية . وكان الإسماعيلية

أو الباطنية بالرغم من ثوب الرياء المذهبي الذى أسبغوه على عقائدهم الدينية والسياسية ، يقومون من جانبهم بمثل هذا الدور فى استغلال الحوادث والظروف . وقد ألفوا فى الحوادث والمعارك الصليبية ميداناً خصباً لدسائسهم ومشاريعهم الدموية ، واستطاعوا أن يستغلوا هذا النشاط الخطر فى توطيد نفوذهم وملء خزائنهم ، فنراهم يبحثون وراء طالعهم فى هذا المعسكر أو ذاك ، ويتقلبون فى خدمة الأمراء المسلمين والفرنج طبقاً للحوادث والظروف . وتطلق الرواية العربية على الباطنية فى هذه الفترة اسم « الحشيشية » ويستعملها بالأخص العماد الأصفهانى وأبو شامة المقدسى مؤرخا الحروب الصليبية . وترجع هذه التسمية فيما يرجح إلى أن الدعاة الباطنيين كانوا يأكلون أوراق شجرة «الحشيش» وأن هذا المخدر اقترن باسمهم فى فارس وفى الشام . والظاهر أيضاً أن التسمية الغربية للباطنية وهى Assassins ربما كانت تحريفاً لكلمة « الحشيشية » أو ربما أطلقت عليهم لكثرة جرائمهم .

والواقع أن الباطنية ظهروا عندئذ فى شكل جمعية سرية إرهابية خطرة يحسب حسابها ويخشى بأسها أمراء المسلمين والفرنج معاً . وقد ارتكب دعاتها فى تلك الفترة عدة من جرائم الاغتيال الرنانة ، وفتكوا بعدة من الأمراء والقادة المسلمين والفرنج ، وكان من ضحاياهم الكونت ريمون أمير طرابلس قتلوه غيلة فى سنة ١١٢٥ م . ونشب النضال حيناً بينهم وبين فرسان المعبد (الداوية) ثم تفاهما ولعبا أدواراً مختلفة فى المعارك الصليبية ، وتقلبا فى محالفة المسلمين والفرنج ، وكان لدسائسهم ونشاطهم أثر بارز فى تطور الحوادث والمعارك فى بسائط الشام .

٢

وهكذا كان الإسماعيلية يمثلون فى الشام نفس الدور الخطر الذى كان يمثله زملاؤهم فى فارس . وكان أولئك الدعاة والمتآمرون الأذكياء يبثون أينما حلوا بذور التوجس والروع ؛ وكانوا يمتنعون بقلاعهم الشاهقة يتحينون فرص العمل الخفى الغادر . وكان الفدائية منهم ، وهم الذين يناط بهم تنفيذ الجرائم السياسية ، رجالاً من أخطر طراز

يمتازون بالإقدام المدهش، لايتهيبون الموت ، ولا يردهم عن غايتهم شيء ؛ وقد رأينا إمام الإسماعيلية الأكبر الحسن الصباح يزهد فى ألقاب السلطان والإمارة ويكتفى بلقب شيخ الجبل ؛ فكذلك كان زعيم الإسماعيلية فى الشام يتخذ لقباً مماثلاً فيلقب بالمقدّم أو الشيخ أو شيخ الجبل ؛ وكلمة «الشيخ» تعنى هنا السيد أو الرئيس خلافاً لما يذهب إليه رواة الفرنج من اعتبارهم الشيخ هنا بمعنى « الرجل المسن » وهو خطأ شائع فى معظم التواريخ الفرنجية .

وكان مقدم الإسماعيلية أو شيخ الجبل فى الشام فى أواسط القرن السادس زعيما وافر الجرأة والذكاء هو راشد الدين سنان بن سلمان ؛ ولا تعرف الرواية سناناً إلا بأنه مقدم الإسماعيلية ، ولا تحدثنا عن أصله ونشأته ، ولكن لا ريب فى أنه أحد أولئك الدعاة المغامرين الذين يكتنف الغموض حياتهم الأولى ، ثم يظهرون فجأة على مسرح الحوادث ؛ وكان مقره فى حصن مصياب (أومصياف) على مقربة من طرابلس ، وهو يومئذ أمنع حصون الإسماعيلية بالشام . وكان هذا الداعية الإسماعيلى يخفى مشاريعه ومطامعه الدنيوية تحت ستار من الورع المؤثر ، ويبدو دائماً فى صفة الإمام الدينى ، ويرتدى الثياب الخشنة ، ويعظ أنصاره طول اليوم من فوق رابية ، ويحيط كل حياته بحجاب من الغموض حتى قيل إنه لم يرقط نائماً أو آكلا أو شارباً ؛ على أنه كان بالرغم من هذه المظاهر الورعة الخلابة مغامراً لا ذمام له ، يتربص فرص الوثوب والفتنة ، ويتقلب فى خدمة الصديق والعدو معاً . ولم ير سنان بأساً من محالفة الفرنج الصليبيين ؛ فنراه يتصل بأمورى ملك بيت المقدس ويرسل إليه الداعى بهاء الدولة سفيراً ليسعى لديه إلى إعفاء الإسماعيلية من الجزية التى تعهدوا بدفعها . ونجح السفير فى مهمته ولكن قتله الداوية (فرسان المعبد) حين عودته ؛ وخشى ملك الفرنج عواقب هذه الجريمة فاعتقل القتلة وقضى عليهم بالسجن ، وذلك استبقاء لمودة الإسماعيلية واتقاء بطشهم .

ولعب سنان فى حوادث هذه الفترة دوراً عظيما . ومع أنه لم يكن جباراً قوى

البنية فقد كان قوياً بدسائسه ووسائله الإرهابية الخطرة ؛ وكان أمراء الشام المسلمون يرهبون جانبه ويلتمسون محالفته . ولما تألق نجم صلاح الدين وقبض على زمام الأمور فى مصر اتجهت أبصار خصومه إلى الإسماعيلية أو الحشيشية ، كما تسميهم الروايات المعاصرة ؛ ففى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) دبر أنصار الدولة الفاطمية الذاهبة مؤامرة لقلب حكومة القاهرة واغتيال صلاح الدين ، وفكروا فى الاستعانة بالفرنج كما فكروا فى الاستعانة بسنان شيخ الجبل ؛ فبعثوا إليه ليدبر كميناً لاغتيال السلطان (صلاح الدين) على يد بعض الفدائية سواء فى الشام أو فى مصر ، ووعدوه بالمنح والعطايا الجزيلة . ولكن سرعان ما افتضحت المؤامرة وقبض على مدبريها وأعدموا . ولم تسنح الفرصة فى هذه المرة ليعمل شيخ الجبل ، ولكن الفرصة سنحت غير بعيد ؛ ففى أوائل سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥م) كان السلطان صلاح الدين غازياً على رأس جيشه فى شمالى الشام على مقربة من حلب ، وكان يعتزم أن يعمل على سحق الإمارات المستقلة التى تمزق الشام وتجعل منه فريسة هينة للفرنج الصليبيين ؛ وكان أمير حلب عز الدين مسعود يخشى على ملكه إذا وفق صلاح الدين إلى تنفيذ برنامجه ، فاتفق مع سنان شيخ الجبل على اغتيال صلاح الدين أثناء وجوده بالشام . وكان الاسماعيلية أنفسهم يرون فى تقدم صلاح الدين خطراً داهما على سلطانهم ، ويرحبون بكل مؤامرة أو مشروع لسحقه . ولما بدأ صلاح الدين حصار حصن أعزاز من أعمال حلب بعث سنان إلى معسكره بعض الدعاة الفدائية فاندسوا إليه متنكرين فى ثياب الجند ؛ وفى ذات مساء وثب أحد الباطنية بصلاح الدين وهو فى خيمة بعض الأمراء يفحص خطط الدفاع وطعنه بخنجره فى رأسه ، وكان السلطان يعرف غدر الباطنية ويحذر منهم بارتداء الدروع المصفحة فحالت قلنسوته الصلبة دون إصابته ، فحوّل القاتل عندئذ خنجره إلى خد السلطان فجرحه جرحاً بالغاً ، ثم دفعه إلى الأرض وحاول أن يجهز عليه . وذهلت بطانة السلطان لهذه المفاجأة الغادرة مدى لحظة ، ولكنهم بادروا إلى القاتل وطعنه أحد الأمراء بسيفه فأرداه . ولكن وثب عندئذ من جوانب

الخيمة عدة أخر من الباطنية وهم فى ثياب الجند ، وانقض أحدهم على السلطان فتلقاه بعض رجال الخاص وقتلوه . ووثب آخرون من القتلة هنـا وهنالك ، واشتد الهرج والاضطراب وقتل عدة من الباطنية ، ونجا السلطان بأعجوبة وسار إلى خيمته والدماء تقطر منه ، واتخذت التحوطات الصارمة لسلامته ، وانهار بذلك مشروع سنان وحلفائه مرة أخرى .

وكان الاعتداء على صلاح الدين محاولة خطيرة ، وكان نذيراً بما يحيق به و بدولته من غدر الإسماعيلية ومؤامراتهم من الخطر الداهم ، فعوّل على مهاجمة قلاعهم وسحق نفوذهم ؛ فسار إليهم فى العام التالى (سنة ٥٧٢ هـ) وحاصر مصياب أمنع قلاعهم وفيها مركز زعامتهم ، فاستغاث سنان شيخ الجبل بصاحب حماة وهو خال السلطان ورجاه أن يشفع لديه فيهم وتعهد له بالتزام الحيدة والولاء نحو السلطان ، وهدده فى الوقت نفسه إذا أبى هذه الشفاعة ؛ فخشى الأمير من وعيدهم و بذل وساطته لدى السلطان حتى أقنعه بالعفو عنهم ، فغادر قلاعهم بعد أن أخذ عليهم المواثيق والعهود . ولزم الإسماعيلية وزعيمهم بعد ذلك خطة الولاء نحو السلطان ، إما خشية سطوته وإما لأنهم خشوا رجحان كفة الصليبيين إذا اختفى صلاح الدين من الميدان .

ولبث الإسماعيلية من بعد شيخهم سنان زهاء قرن آخر يمتنعون بقلاعهم فى الشام و يتهزون فرص المعارك والأحداث المختلفة ليظهروا على مسرح الحوادث حيثما آنسوا الغنم ، وشغل بلاط القاهرة عنهم طوال هذه الحقبة بمكافحة الفرنج ورد الخطر الصليبى . فلما كان عهد الظاهر بيبرس سارت حملة مصرية إلى الساحل فى سـنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) وحاصرت قلاع الإسماعيلية واقتحمت مصياب أمنع حصونهم ومقر زعامتهم ، وخربت قلاعهم ومزقت قواهم كل ممزق ، و بذلك انهار نفوذهم فى الشام كما انهار فى فارس قبل ذلك بقليل ، واستحالت هذه الطائفة الإرهابية الخطرة بعد ذلك إلى شراذم لا أهمية لها سواء من الوجهة السياسية أو المذهبية ؛ وانتهى بذلك تاريخها الحافل بالجرائم والمؤامرات المدهشة .

الملكة شجرة الدر

(نحو ٦١٢ — ٦٥٥ هـ) ، (١٢١٥ — ١٢٥٧م)

لما توفى السلطان الناصر صلاح الدين ملك مصر والشام فى سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) ترك مملكة شامخة ولكن مفككة العرى ، وكانت وفاته خاتمة لعهد من أمجد عهود الإمبراطورية الإسلامية المصرية ؛ ففيه حُطمت المملكة الصليبية فى فلسطين واستُردت بيت المقدس (٥٨٣ هـ) ، ومُزقت قوى الصليبيين فى سائر الأنحاء . وخلف صلاح الدين فى ملك مصر ولده الملك العزيز ، وكان نائبه بها ، وخلفه فى الشام ولده الأفضل ، وفى حلب ولده الظفر ؛ وبذا انقسمت المملكة المصرية الشامخة إلى ثلاث ممالك ، وأخذت قواها التى حشدت من قبل مجتمعة لمحاربة الصليبيين تتبدد فى سلسلة لانهاية لها من الحروب الأهلية ؛ ونشبت الحرب حيناً بين العزيز وأخيه الأفضل . ولما توفى العزيز بعد قليل فى سنة ٥٩٥ هـ وخلفه على عرش مصر ولده المنصور طفلاً ، سنحت الفرصة للأفضل فقدم إلى مصر بدعوة من الأمراء ، واستولى على زمام الأمور بضعة أشهر ، ولكن الحرب نشبت بينه و بين عمه العادل ، وانتهى الأمر بهزيمته واستيلاء العادل على عرش مصر والشام وهنا آنس الفرنج ضعف المملكة المصرية ، وقدمت حملة صليبية جديدة إلى مياه فلسطين ، وطمع الفرنج فى استرداد بيت المقدس ، ونشبت بينهم و بين العادل عدة مواقع انتهت بعقد الهدنة بين الفريقين (٦٠٠هـ — ١١٩٨م) . وفى عصر الملك العادل هبط النيل هبوطاً شديداً ، وعانت مصر من القحط والغلاء أهوالاً مروعة يصفها لنا عبد اللطيف البغدادى نزيل مصر يومئذ وصفاً يرتجف له الفؤاد فرقاً[١] . وفى سنة ٦١٥ هـ عاد الصليبيون إلى مهاجمة مصر وزحفوا على مدينة دمياط ،

(١) راجع هذا الوصف فى كتاب « الإفادة والاعتبار » لعبد اللطيف البغدادى (مصر) ص ٤٩ وما بعدها .

وسار الكامل ولد العادل ونائبه بمصر لمقاومتهم ، وقدمت عساكر الشام بقيادة أخيه الملك المعظم ، ولكن الصليبيين استولوا على دمياط بعد معارك شديدة ، وارتدت القوات المصرية إلى قرية المنصورة جنوباً ؛ ومات الملك العادل أثناء ذلك وخلفه على عرش مصر ولده الكامل وفى الشام ولده الملك المعظم ؛ وحاول الصليبيون أن يسيروا من دمياط إلى الداخل ولكنهم ردّوا على مقربة من المنصورة (٦١٨ هـ) وانتهى الأمر بعقد الصلح بين الفريقين ، على أن يخلى الفرنج دمياط ويستردوا بيت المقدس عدا الأحياء والمعاهد الإسلامية .

وحكم الملك الكامل زهاء عشرين عاماً ، وامتد حكمه إلى الشام واستقرت الأمور فى عهده ، وتوطدت أركان المملكة وانتعشت قواها المبددة . وتوفى سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) .

فخلفه على عرش مصر ولده الأصغر الملك العادل أبو بكر وكان نائبه بها ؛ وكان ابنه الأكبر الصالح نجم الدين نائباً عنه بحلب وبلاد الشرق، فلم يرقه هذا التصرف ورأى أنه أحق بملك مصر من أخيه ، وسار فى أنصاره معلناً الخلاف . ووصل إلى جنوبى الشام بعد عدة وقائع وخطوب . وهنا دبر له الناصر داود صاحب « الكرك » كميناً وأسره وزجه سجيناً إلى القلعة مع بعض حشمه وجاريته « شجرة الدر » أم ولده خليل (صفر ٦٣٧ هـ) . فلبث يرسف فى أسره سبعة أشهر . ولما علم أخوه العادل باعتقاله أرسل إلى صاحب الكرك يطالبه بتسليمه نظير فدية كبيرة ، فأبى الناصر وطالب مقابل تسليمه بنيابة دمشق؛ فعندئذ اتفق العادل مع عمه الصالح صاحب دمشق أن يسير كلاهما لقتال الناصر ويحصرانه بذلك من الشمال والجنوب . وفى أثناء ذلك تفاهم الناصر مع أسيره الصالح نجم الدين ، وأطلق سراحه وتحالف معه على أن يقطعه الشام ويستقل هو بملك مصر .

وكان العادل ملكاً سيىء السيرة ، يقضى وقته فى اللهو والمجون الصاخب ، ويطلق يد الندماء والعابثين فى شئون الدولة ؛ فحقد عليه معظم الأمراء ، وكانت منهم جماعة من

المماليك الكاملية تخشى سوء العاقبة وترى فى الملك العادل فتى طائشاً لايصلح للملك ، وتتربص الفرص للوثوب عليه ؛ فلما سار العادل لمحاربة الناصر صاحب الكرك رأوا الفرصة سانحة للعمل فساروا إليه فى معسكره ببلبيس وأحاطوا بخيمته وقبضوا عليه ، وكتبوا إلى الصالح نجم الدين يستدعونه لتولى الملك . فسار الصالح إلى مصر فى عصبته ودخل قلعة الجبل وجلس على العرش (٢٥ ذى الحجة سنة ٦٣٧) وقبض على أخيه العادل وزجه إلى ظلام السجن ، فلبث فيه عدة سنين ، ثم دس عليه الصالح من خنقه (٦٤٦ هـ) ، وبذا لقى نهايته المحزنة .

٢

كان الملك الصالح نجم الدين حينما جلس على عرش مصر فتى فى نحو الرابعة والثلاثين من عمره . وكان مولده بمدينة القاهرة فى سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) وبها نشأ وترعرع ؛ ولما استولى الفرنج على دمياط أيام أبيه الكامل (٦١٥ هـ) وعقد الصلح بينهم وبينه ، أرسله أبوه مع نفر من الأمراء رهينة إلى الفرنج مقابل رهائنهم حتى تنفذ شروط الصلح ؛ ولما استولى الكامل على الديار الشرقية (آمد وغيرها) عين ولده الصالح نائباً عليها (٦٢٩هـ) ، ثم أرسله فى سنة ٦٣١هـ لمقابلة الروم (البيزنطيين)؛ ولبث الصالح نائباً على الديار الشرقية حتى توفى أبوه فى سنة ٦٣٥ هـ ، ولقى ما لقى من الخطوب حتى استطاع أن يستخلص عرش مصر لنفسه من أخيه العادل حسبما قدمنا.

ودخل الصالح مصر فى أواخر سنة ٦٣٧ هـ ومعه « شجرة الدر » حظيته وأم ولده الأصغر خليل . وقد كان مقدم شجرة الدر يومئذ فيما يبدو أول عهدها بمصر . ولا تذكر الرواية اسمها قبل ذلك إلا حينما سجنت مع سيدها فى قلعة الكرك قبل ذلك بأشهر قلائل ، وهو فى طريقه إلى مصر . وتقول لنا الرواية إنها كانت فى صحبة الصالح مذ كان نائباً عن أبيه بالمشرق ، ثم صحبته عند سيره إلى مصر ، وشاطرته آلام المحنة والاعتقال بشجاعة وصبر[1] .

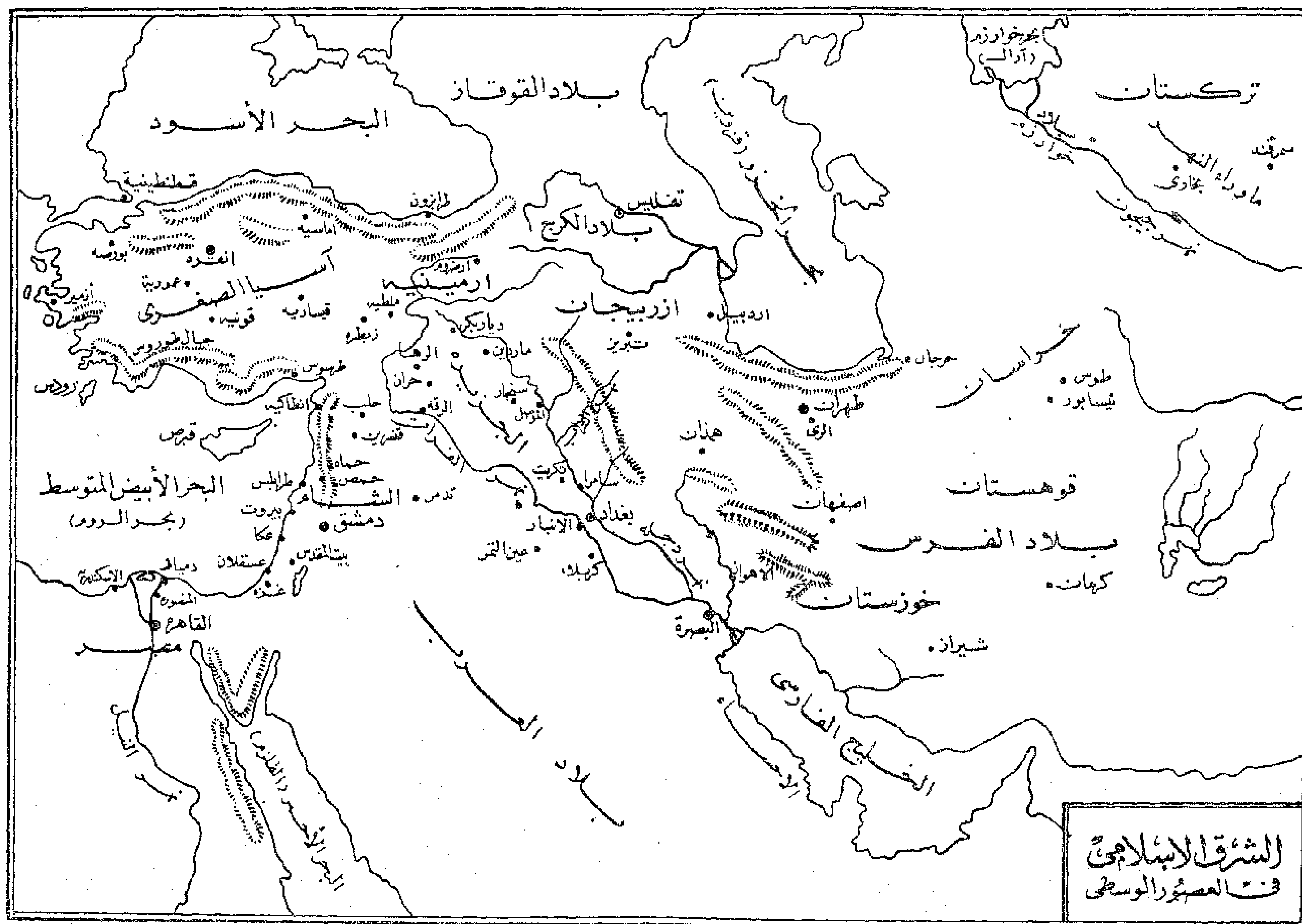
(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٧٣

فمن هى هذه المرأة التى سطعت غير بعيد فى بلاط مصر ، والتى قدر لها أن تتولى عرش مصر فيما بعد ، وأن تغدو بتبوئها الملك مثلاً فريداً فى صحف التاريخ الإسلامى؟

كانت شجرة الدر حسبما تصفها الرواية « جارية » تركية أو أرمينية أو رومية ، اشتراها الملك الصالح أيام إقامته بالمشرق . وهنا يبدو السبب فى عجز الرواية عن أن تقدم إلينا شيئاً عن حقيقة أصلها ونشأتها فهى لم تكن إلا واحدة من ألوف الجوارى اللائى كانت تغص بهن قصور الخلفاء والسلاطين فى تلك العصور ، ولا تعرف عنهن شيئاً إلا حينما يسطع نجمهن فيغدون «أمهات ولد» ينجبن الخلفاء والسلاطين ، أو يجزن بذكائهن وقوة سحرهن إلى ميدان السلطة والنفوذ ويشاطرن فى توجيه الشئون .

وهكذا فإنا نقف على ذكر شجرة الدر لأول مرة فى سنة ٦٣٧ ﻫ وهى مع سيدها الملك الصالح فى طريقه إلى مصر ، وتصفها الرواية عندئذ بجاريته وحظيته وأم ولده خليل . وإذن فقد كانت شجرة الدر عندئذ ما تزال جارية وأم ولد فقط ، ولم تكن قد غدت زوجة شرعية للملك الصالح . وقد كان ولدها « خليل » يومئذ فيما يبدو طفلاً لايتجاوز بضعة أعوام ثلاثة أو أربعة ، وقد مات كما نعلم وهو مايزال فى طور الطفولة ؛ وتزيد الرواية على ذلك أن شجرة الدر حينما زجت مع سيدها إلى قلعة الكرك كانت حاملاً فسقطت غماً وروعاً . فإذا فرضنا أن هـذا هو حملها الثانى بعد ولدها خليل ، وإذا ذكرنا أن سيدها الملك الصالح اشتراها مذ كان نائباً بالمشرق حوالى سنة ٦٣٠ ﻫ فإنا نستطيع أن نقدر سنها حين دخولها إلى مصر على الأقل بنحو خمسة وعشرين عاماً .

وكانت شجرة الدر امرأة بديعة الخلال وافرة الجمال والسحر ، حسنة التثقيف ، بارعة فى القراءة والكتابة . وتنوه الرواية فوق ذلك بوفرة ذكائها ودهائها وحسن تصريفها للأمور ؛ وإذن فلم تكن شجرة الدر غانية قصر فقط ، ولكنها كانت فوق ذلك تتمتع بشخصية قوية . وقد استطاعت غير بعيد أن تحرز بخلالها وقوة نفسها مكانة ممتازة لدى سيدها ، فكانت حظيته الأثيرة ، وتوثقت مكانتها بمولد ولدها



الشرق الإسلامي
في العصور الوسطى
البحر الأسود
بلاد القوقاز
تركستان
بلاد الكرج
تفليس
آسيا الصغرى
ارمينيه
ازربيجان
خراسان
قوهستان
بلاد الفرس
خوزستان
البحر الأبيض المتوسط
(بحر الروم)
الشام
دمشق
بغداد
البصرة
القاهرة
مصر
الخليج الفارسي
بلاد العرب
سمرقند
ما وراء النهر
بخارى
قسطنطينية
انقره
قونيه
قيساريه
عموريه
ملطيه
زبطره
طرسوس
انطاكيه
حلب
قنسرين
حماه
حمص
طرابلس
بيروت
عكا
عسقلان
غزه
بيت المقدس
تدمر
الرها
حران
الرقه
ماردين
الموصل
سنجار
تكريت
سامرا
الانبار
عين التمر
كربلاء
الاهواز
اصفهان
همذان
الري
طهران
جرجان
طوس
نيسابور
كرمان
شيراز
اردبيل
تبريز
قبرص
رودس
دمياط
الاسكندرية
المنصوره

خليل ، وبرزت الأمومة من بين صفاتها فعرفت « بأم خليل » وغلب عليها هذا اللقب حتى بعد وفاة ولدها ، ولازمها طول حياتها ، ولقبت به حين تولت العرش فعرفت بالملكة « عصمة الدين أم خليل شجرة الدر »(١) .

ولما ابتسم الدهر للملك الصالح ، وتولى عرش مصر تألق نجم جاريته وحظيته شجرة الدر إلى جانب نجمه . وكان فوق حبه العميق لها يقدر مواهبها ، ورجحان عقلها ، وكانت مذ جمع القدر بينهما تعاونه فى تدبير الأمور بحكمتها وصائب رأيها ، فلم تلبث أن تبوأت فى البلاط وفى الدولة أسمى مكانة ، وغدت ملكة غير متوجة يغلب نفوذها وسلطانها كل نفوذ وسلطان ، ولم تلبث أن غدت مرجع الأمر والنهى كله . ورأى الملك الصالح أن هذه المرأة الموهوبة الساحرة التى فتنته بخلالها الرفيعة تستحق أن تكون أكثر من حظية وأم ولد ، فأعتقها وتزوجها ولم تبق شجرة الدر

(١) تختلف الرواية الإسلامية فى صحة اسم الملكة شجرة الدر ، فتذكر بعض الروايات أنه « شجر الدر » وليس « شجرة الدر » . وممن أورده بالصيغة الأولى أى شجر الدر جمال الدين بن واصل وهو مؤرخ معاصر ؛ وقد ذكرها على هذا النحو مراراً فى كتابه « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » (مخطوط دار الكتب ج ٢ لوحة ٣٣١ و٣٦٢ و٣٧٢) ؛ وكذلك أبو الفدا فى تاريخه (ج ٣ ص ١٤٠ و١٤١ و١٤٢ و١٩٢) ؛ وابن خلدون (ج ٥ ص ٣٦٢ و٣٦٣ و٣٧٧) . وأخذ بعض المستشرقين بهذه التسمية (دائرة المعارف الإسلامية فى مقال شجر الدر) وكذلك المستشرق لاين پول فى كتابه عن تاريخ مصر (ص ٢٥٥) . ولكن فريقاً آخر من المؤرخين ولا سيما المتأخرين يأخذ بالتسمية الأخرى أعنى « شجرة الدر » ومن هؤلاء الصفدى فى « الوافى بالوفيات » وابن قزأوغلى فى « مرآة الزمان » (وقد نقل عنهما صاحب النجوم الزاهرة) والمقريزى فى كتاب السلوك وفى الخطط ، وابن شاكر الكتبى فى (فوات الوفيات ج ١ ص ٩٧) وابن تغرى بردى فى (النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٣ وما بعدها) ، ولو أنه فى كتابه المنهل الصافى يسميها « شجر الدر » (مخطوط دار الكتب ج ٢ ص ١٧٦ و ١٧٧) والسيوطى فى حسن المحاضرة (ج ٢ ص ٣٨ و ٣٩) وابن إياس فى (بدائع الزهور ج ١ ص ٨٩) ومن الغريب أن ابن خلكان وهو قريب من هذا العصر لا يذكر اسم شجرة الدر فى سائر المواطن التى لها علاقة بها مع أنه يحدثنا عن حياة الملك الكامل والصالح والعادل وغيرهم .

ومع أنه يبدو أن اسم « شجر الدر » هو التسمية الأصح من الناحية الرسمية ، خصوصاً وأن ابن واصل ، وهو مؤرخ معاصر عرف الملكة واتصل ببلاطها يؤيد هذه التسمية ، فانه يلوح لنا من جهة أخرى أن اسم « شجرة الدر » هو الإسم الغالب الذى كانت تعرف به الملكة فى البلاط وفى الحكومة أو بعبارة أخرى هو الإسم الشعبى الذى غلب عليها . ولهذا فضله وأخذ به معظم المؤرخين المصريين ، وفى مقدمتهم المقريزى . وقد رأينا نحن من جانبنا أن نأخذ بهذه التسمية الأكثر ذيوعاً .

بعد جارية تسمو بجمالها وسحرها ، ولـكنها غدت غير بعيد سيدة القصر الشرعية . كانت هذه الجارية التركية أو الرومية تلعب يومئذ فى بلاط القاهرة نفس الدور الذى لعبته من قبل صبح النافارية جارية الحكم المستنصر وأم ولده المؤيد فى بلاط قرطبة ؛ ولما توفى ابنها خليل طفلاً بعد ذلك بقليل لم تصدع هذه الضربة الأليمة من مركزها بل لبثت محتفظة بنفوذها وسلطانها .

وكان الصالح نجم الدين ملكا متين الخلق وافر الحشمة ، شديد الهيبة يمقت المجون والعبث ، ويؤثر العزلة ، ويميل إلى صحبة أهل الفضل والتقى ، ولا يختلط كثيراً بالشعب ، وكان يوكل شئون الدولة إلى كتّابه ، وله شغف خاص بلعب الصوالجة وإنشاء الأبنية الفخمة . وأما شجرة الدر فتصفها الرواية بأنها كانت إلى جانب خلالها الشخصية البديعة ، امرأة وافرة الهيبة تميل إلى التدين وتشغف بحب الخير وأعمال البر ، ولها فى هذا السبيل مآثر لا تحصى[(١)] .

ولم يكن للملك الصالح فى الوقت الذى بلغت فيـه شجرة الدر أوج نفوذها سوى زوجة حليلة أخرى وهى المعروفة ببنت العالمة . وكانت زوجاً لمملوكه الجوكندار (حامل الصولجان) فلما توفى تزوجها من بعده . ولم يكن بين جواريه العديدات من تدانى شجرة الدر فى مركزها أو تتسامى إلى نفوذها .

٣

وعنى الملك الصالح منذ تبوئه العرش بإصلاح الأمور وتوطيد الدولة وتوثيق روابطها المفككة ، وحالفه التوفيق فاستولى على دمشق من عمه الصالح إسماعيل وعين نائبه بها الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح ، وعين ولده المعظم تورانشاه نائباً على البلاد الشرقية . واستولى بعد ذلك على عسقلان ، وانتزع الكرك وأعمالها من صاحبها الناصر داود حليفه القديم . ولم تمض أعوام قلائل حتى استطاع أن يبسط سلطانه على معظم أنحاء المملكة المصرية القديمة ، وأن يقضى على أطماع الخوارج والمتغلبين فى النواحى .

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٩

وحالفه التوفيق أيضاً فى محاربة الصليبيين فهزمهم فى عدة وقائع محلية ، وزحف جنده على بيت المقدس وهزموا الفرنج وأحرقوا أحياءها النصرانية التى سلمت إليهم أيام الملك الكامل ، وأعادوها إلى حظيرة الإسلام مرة أخرى (٦٤٢هـ - ١٢٤٤ م) .

والملك الصالح هو منشئ فرقة المماليك البحرية التى لعبت أعظم دور فى تاريخ مصر فى القرنين السابع والثامن للهجرة (الثالث عشر والرابع عشر من الميلاد) ، وتبوأ عرش مصر منهم ثبت حافل من الملوك العظام . وكان الملك الصالح يشغف باقتناء المماليك الترك ؛ وقد اقتنى منهم عدداً وافراً حتى ضاقت القاهرة بهم ، وضج الناس من عيثهم واعتداءاتهم على النفس والمال وهو مما وصفه شاعر العصر بقوله :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ترك بدولة يا شر مجلوب
قد أخذ الله أيوبا بفعلته فالناس كلهم فى ضر أيوب

عندئذ رأى الصالح أن يبعدهم عن العاصمة فابتنى لهم فى جزيرة الروضة على مقربة من المقياس قلعة خاصة أسكنهم بها ، وسماهم المماليك البحرية ، وزودهم بأسطول نهرى من الشوانى المسلحة التى أعدت لقتال الصليبيين ، وكانت عدتهم زهاء ألف مملوك ، وقد عرفوا فيما بعد برجال « الحلقة » أو الحرس السلطانى ، وكانوا بما أثر عنهم من الشجاعة والبراعة فى القتال قوة لا يستهان بها .

وأصاب الملك الصالح فى أواخر عهده مرض عضال بدت أعراضه الخطيرة فى أوائل سنة ٦٤٦هـ ، وقد وُصف بأنه ناسور وعسر بول تلته قرحة فى الرئة ؛ وكانت حوادث الشام يومئذ تزعج السلطان حيث استولى لؤلؤ الأمينى صاحب حلب على حمص . فسار السلطان بالرغم من مرضه إلى الشام لإنجاد حمص ، وحمل فى محفة ، وهنالك بلغته الأنباء بأن حملة صليبية ضخمة فى طريقها إلى مصر . فاضطر إلى التنازل عن حمص للمتغلب عليها ، وعاد إلى مصر فى محفته وقد اشتد به المرض ، ونزل بقواته فى أشموم طناح على مقربة من دمياط التى كانت فى ذلك الحين مجاز الصليبيين المفضل لافتتاح مصر ؛ وكان ذلك فى المحرم سنة ٦٤٧ هـ .

والواقع أن مصر كانت تواجه عندئذ أعظم حملة صليبية سيّرت إليها ، وهى الحملة الصليبية السابعة التى قصدت مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا المعروف بالقديس لويس . وكان الغزاة قد أمضوا الشتاء فى قبرس ، ثم ساروا إلى مصر فى أسطول ضخم ، ووصلوا إلى المياه المصرية تجاه دمياط فى ٢١ صفر سنة ٦٤٧ هـ (يونية سنة ١٢٤٩م) وفى الحال أوفد لويس التاسع رسله إلى ملك مصر بكتاب ينذره فيه بوجوب الخضوع والتسليم ، ويؤكد له أن المقاومة عبث ، وأنه سيصل إليه بالرغم من كل شىء ، وأنه جاء بعسكر كعدد الحصى . وكان الملك الصالح مريضاً كما قدمنا ، وكان البلاط فى حيرة ، ولكن شجرة الدر كانت يومئذ إلى جانب السلطان ، وكانت تبعث بشجاعتها وثباتها إلى السلطان و بلاطه روح الثقة والعزم ، فلما وصل كتاب ملك الفرنج حزن السلطان واغرورقت عيناه بالدمع ، ولكنه تذرع بالشجاعة والعزم ، و بعث إلى ملك الفرنج بكتاب من إنشاء كاتبه القاضى بهاء الدين زهير الشاعر الأشهر يرد فيه الوعيد بالوعيد ، وينوه بقوة مصر وما أحرزته على الصليبيين من الانتصارات ، و ينذر فيه ملك الفرنج بأنه سيغدو صريع عدوانه و بغيه(١) .

وفى اليوم التالى نزل الفرنج إلى البر ، وكان السلطان قد حصن دمياط وشحنها بالمقاتلة والسلاح . وكان من المنتظر أن تقاوم الغزاة مدى حين . ولكن الفرنج حينما نزلوا إلى البر الغربى ، ووقعت بينهم و بين المسلمين المناوشات الأولى انسحب المسلمون إلى البر الشرقى ، وعندئذ دب الذعر إلى الحامية ، فما كاد الليل يرخى سدوله حتى غادر المسلمون قواعدهم وارتدوا إلى المعسكر السلطانى فى أشموم طناح ؛ وهرع فى أثرهم أهل دمياط فارين هلعين ، ودخل الفرنج دمياط فى صباح اليوم التالى دون قتال ولامقاومة ، واستولوا على ما فيها من الذخائر والأقوات الوفيرة ، واستشاط السلطان حنقاً لما وقع وعنف قائد الحامية المهزومة الأمير فخر الدين يوسف ، وأمر بشنق عدة كبيرة من مقدمى الجند جزاء جبنهم وتخاذلهم .

---

(١) راجع نص هذين الكتابين فى « السلوك فى دول الملوك » للمقريزى ج ١ (٢) ص ٣٣٤ و ٣٣٥.

ثم ارتد السلطان بمعسكره محمولاً فى محفته إلى المنصورة ، وهى المحلة التى أنشأها أبوه الملك الكامل على النيل حينما هاجم الصليبيون دمياط لأول مرة فى سنة ٦١٥هـ ونزل بقصرها المتواضع ؛ وأمر السلطان بتجديد المنصورة وتحصينها و إعدادها لنزول الجند ، واجتمعت القوات المصرية فى تلك القاعدة الجديدة . وقدم أسطول نهرى من الشوانى الحربية ورابط فى النيل تجاه المدينة ، وأنفذت الأوامر بحشد الجند إلى سائر الأنحاء ، وتوافد على المعسكر السلطانى سيل من الجند المتطوعة والعربان ، وبذل المسلمون غاية جهدهم فى الأهبة لمواجهة الخطر الداهم . وكان الفرنج فى أثناء ذلك قد استقروا بدمياط وشحنوها بالمقاتلة والسلاح ، وأخذوا يتأهبون للزحف صوب الجنوب .

وكانت المناوشات تقع أثناء ذلك سجالاً بين المسلمين والفرنج . وكلما سقطت جماعة من الفرنج أسرى فى يد المسلمين أرسلت إلى القاهرة وطيف بها لتقوية الروح المعنوية لدى الشعب القاهرى الذى ساد عليه الوجوم مذ سقطت دمياط ؛ واستطاعت عساكر الشام من جهة أخرى أن تهاجم الصليبيين وأن تنتزع منهم مدينة صيداء فجاء سقوطها معززاً للثقة والأمل .

واستمر الأمر على ذلك زهاء ستة أشهر من صفر إلى أوائل شعبان (من يونيه إلى أوائل نوفمبر سنة ١٢٤٩ م) والملك الصالح أثناء ذلك يعانى أوصاب المرض ويسير إلى الموت بخطى بطيئة . وفى أوائل شعبان اشتدت عليه وطأة السل ثم أصابه إسهال عجل بالخاتمة فتوفى فى قصره المتواضع بالمنصورة ليلة ١٥ شعبان سنة ٦٤٧هـ (٢١ نوفمبر سنة ١٢٤٩) وهو فى الرابعة والأربعين من عمره ، وأوصى قبيل موته بالعرش لولده الملك المعظم تورانشاه نائبه فى الديار الشرقية . وكان يومئذ فى حصن كيفا من أعمال ديار بكر فأنفذت إليه الكتب تدعوه إلى مصر على عجل .

٤

كانت وفاة السلطان فى تلك الآونة العصيبة ضربة مؤلمة ، وكانت كفيلة بأن تقضى على كل تدبير وأهبة للقاء العدو المغير ؛ ولكن القدر كان رحيما بمصر ، وقد

شاء القدر أن يختار لإنقاذ الموقف واتقاء الكارثة تلك الشخصية القوية الحازمة، شجرة الدر .

كانت شجرة الدر إلى جانب زوجها السلطان المريض فى قلب المعسكر السلطانى تشرف على تدبير الشئون و إنفاذ الأوامر بمعاونة رجال القصر المخلصين ، وفى مقدمتهم الأمير فخر الدين يوسف ومحسن الطواشى . وكانت ترقب سير المرض بجزع وتتوقع موت السلطان من وقت لآخر ؛ فلما وقعت الخاتمة المحزنة ، كانت على قدم الأهبة ، وكانت قد قررت أمرها ، واتخذت أهبتها لمواجهة كل احتمال . كانت تلك المرأة الذكية تعرف أن وفاة السلطان سوف تثير الأحقاد الدفينة ، وتمزق وحدة الجيش والأمة ، وتذكى ضرام الحرب الأهلية المخربة ، كل ذلك والبلاد تواجه خطر الغزو الداهم ، والعدو المغير جاثم فى أرضها يتأهب لإنزال ضربته القاضية .

وهنا تبدو عبقرية تلك المرأة المدهشة . ذلك أن السلطان ما كاد يسلم النفس الأخير ، حتى استدعت الأمير فخر الدين يوسف كبير الخاص ، ومحسن الطواشى ، وأوصتهما بكتمان موت السلطان خوفاً من سوء العواقب ، واتفقت معهما على تدبير أمور الدولة حتى يحضر ولد السلطان الملك المعظم من حصن كيفا ، فصدعا بالأمر ؛ وكان الأمير فخر الدين رجلاً وافر العقل والتدبير ، فبذل لتنفيذ هذه الخطة أصدق العون ، فأخذ العهد على كل من وقف على موت السلطان من رجال الخاص والأطباء والغلمان ، وتولى غسل جثمان الملك أحد الأطباء المعالجين ، ووضع الجثمان فى تابوت حمل تحت جنح الظلام إلى الروضة ثم دفن فيما بعد فى تربته بجوار المدرسة الصالحية بالقاهرة . و بقيت الخدمة السلطانية على حالها ، والأمراء يحضرون للخدمة كالعادة ، وشجرة الدر تقول لهم: «السلطان مريض ما يصل إليه أحد». وكان السماط السلطانى يمدّ فى مواعيده ، وكأنّ السلطان حى يتناول طعامه كالمعتاد ، وكانت الأوامر والكتب والمناشير تخرج كل يوم ممهورة بالعلامة السلطانية (توقيع السلطان) . وهنا تختلف الرواية فى تفسير هذا اللغز المحكم ، فيقول البعض: إن السلطان حينما شعر بدنو

أجله وقع على عدد كبير من الأوامر للاستعانة بها على إخفاء موته حتى يحضر ولده ، ويقول البعض الآخر : إن شجرة الدر كانت لبراعتها فى الكتابة تقلد العلامة السلطانية على الأوامر بمهارة ، وفى رواية ثالثة أن الذى كان يقوم بتقليد العلامة السلطانية هو غلام من غلمان السلطان يدعى سهيل(١) .

وعلى أى حال فقد استطاعت شجرة الدر أن تنفذ خطتها الجريئة ببراعة تثير الإعجاب ؛ وفى غداة وفاة السلطان استدعت أمراء العسكر وقالت لهم : إن السلطان قد رسم بأن يحلفوا له ولابنه الملك المعظم تورانشاه ، أن يكون سلطاناً بعده ، وللأمير فخر الدين يوسف أن يقوم بقيادة الجيش وتدبير أمور المملكة ؛ فصدع الأمراء بالأمر باعتبار أن السلطان ما يزال حياً ، ولكن يعجزه المرض عن القيام بالأمر ؛ وأنفذت شجرة الدر فى نفس الوقت إلى الأمير حسام الدين نائب السلطان بالقاهرة أمراً ممهوراً بالعلامة السلطانية أن يقوم بتحليف أكابر الدولة ومقدمى الجند بالقاهرة على ما تقدم ؛ فقام بتنفيذ الأمر بحضرة قاضى القضاة وكاتب الإنشاء الشاعر بهاء الدين زهير ، وصدرت الأوامر إلى خطباء الجوامع بالدعاء للملك المعظم تورانشاه بعد الدعاء لأبيه .

وسارت الأمور حيناً على هذا النحو والأمير فخر الدين يوسف يقوم بتدبير الشئون وإنفاذ الأوامر بإشراف شجرة الدر وتوجيهها ؛ وسار لاستدعاء الملك المعظم من حصن كيفا زعيم المماليك البحرية فارس الدين أقطاى .

٥

والظاهر أن الفرنج وقفوا من جواسيسهم على نبأ وفاة الملك الصالح بالرغم مما أحيط به من التكتم ، وقدروا مايترتب على ذلك من اضطراب الأمور فى المعسكر الإسلامى ، فقرروا السير من دمياط لمقاتلة المسلمين وزحفوا جنوباً نحو فارس كور(٢) وسفنهم تسير بحذائهم فى النيل ، واقتربت طلائعهم من المسلمين فى أواخر شعبان ، فأخذ

(١) راجع ابن واصل فى « مفرج الكروب » (مخطوط دار الكتب ج ٢ لوحة ٣٦٢) والسلوك فى دول الملوك ج ١ (٢) ص ٣٣٩ و ٣٤٤ والنجوم الزاهرة عن مرآة الزمان .

(٢) هى فارسكور الحديثة .

المسلمون فى الاستعداد للقتال . ووصلت هـذه الأنباء إلى القاهرة فانزعج الكافة لاقتراب الخطر ، وأخذ الخطباء فى الجوامع يحثون الناس على الجهاد ، فهرع كثير من المتطوعة إلى المعسكر السلطانى . وفى أوائل رمضان (ديسمبر سنة ١٢٤٩) وصل الفرنج إلى شرقى المنصورة ، وكان يفصل بينهم وبين المسلمين بحر أشموم (البحر الصغير) واقتربت قواتهم فى النيل من المنصورة ، وكانت شوانى المسلمين ترابط إزاءها ؛ وكان معظم عسكر المسلمين فى شرقى النيل ، و بعض الفرق ترابط فى البر الغربى ؛ و بدأت المعارك المحلية بين الفريقين تنشب متعاقبة فى البر والبحر ، وأخصها تبادل الرمى بالنبال والمجانيق ، واستمرت هـذه المعارك مدى أسابيع سجالاً بينهما يفقد فيها كل منهما قتلى وأسرى . وكان المسلمون يرسلون أسرى الفرنج تباعاً إلى القاهرة لإنهاض الروح المعنوية بين الشعب ؛ و بذل الفرنج جهوداً عنيفة لإقامة جسر على بحر أشموم يعبرون عليه لكى يستطيعوا مهاجمة المسلمين بسائر قواتهم، ولكن المسلمين من جانبهم عملوا على إحباط هذه المحاولة ، وقذفت حراقات المسلمين نيرانها المروعة (النار اليونانية) على معسكر الفرنج فأحدثت فيه اضطراباً وذعراً ، وكان المسلمون ينفردون يومئذ بمعرفة أسرار هذا السلاح الذى لعب دوراً عظيما فى الحروب الصليبية ؛ واستمر الأمر على ذلك حتى أوائل شهر ذى الحجة والفرنج فى حيرة واضطراب ، وسرايا المسلمين تفاجئهم بالهجوم ، والنار اليونانية تدهشهم وتروعهم وتحرق خيامهم ومعداتهم ، ولا يجدون سبيلاً لاتقائها ؛ وأخيراً استطاع الفرنج أن يقفوا من بعض الخونة على وجود مخائض إلى الجنوب فى بحر أشموم ، فعبروا منها إلى البر الغربى ، وتقدمت فرسانهم ورماتهم بقيادة الكونت دارتوا أخى ملك فرنسا ، وفاجأوا المعسكر الإسلامى بالهجوم ، وكان قائد المسلمين الأمير فخر الدين فى الحمام فهرع مذعوراً ليقود المعركة فأثخن جراحاً وقتل ، وتفرق فرسانه ؛ وتابع الفرنج هجومهم إلى قلب المعسكر الإسلامى داخل المنصورة ، وتفرقت جموعهم تثخن فى المسلمين هنا وهنالك ، ووصلت طلائع الهاجمين إلى أبواب القصر السلطانى ، وكادت الدائرة تدور

على المسلمين وتحيق بهم الهزيمة المروعة . ولكن حدثت عندئذ مفاجأة لم يتوقعها الفرنج ، وذلك أن الحرس السلطانى المكون من المماليك البحرية أو رجال « الحلقة » وهم مماليك الملك الصالح الذين عرفوا بالمهارة وشدة البأس، أطبقوا على الفرنج بقيادة رئيسهم بيبرس البندقدارى ، وحملوا عليهم بشدة متناهية حتى مزقوهم عن آخرهم ، وقتل الكونت دارتوا قائد الفرنج ومعظم رجاله ، ولم يبق من فرسان « الداوية »(١) سوى أفراد قلائل ، وهلكت فى تلك الموقعة زهرة الفرسان الإنجليز والفرنسيين ، وارتدت فلول الفرنج عند مغيب الشمس إلى تل جديله على بحر أشموم حيث بدأوا هجومهم المشئوم ، وحال الظلام بين الفريقين ؛ وكان ذلك فى اليوم الخامس من ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ الموافق ٩ فبراير سنة ١٢٥٠ م .

تلك هى المرحلة الأولى من موقعة المنصورة الشهيرة التى خلدت فى صحف مصر الإسلامية ؛ بيد أنها لم تكن الخاتمة ، وكان مقدراً أن يشهد الفرنج ذروة المحنة ، وأن يجرعوا الكأس إلى الثمالة ؛ وأرسلت أنباء النصر فى الحال إلى القاهرة ، فاطمأن الناس بعد الانزعاج ، وحل الاستبشار مكان التوجس ، وزينت المدينة ابتهاجاً بالنصر ، وكان يوماً مشهوداً .

ولم تكن شجرة الدر بمعزل عن هذه الحوادث الخطيرة ، فقد كانت هـذه المرأة الباسلة وقت هجوم الفرنج فى القصر السلطانى، ترقب مصاير المعركة . ولما قتل الأمير فخر الدين يوسف ولاحت طلائع الهزيمة فى البداية على المسلمين ، لم يخبُ عزمها ، بل لبثت رابطة الجأش والجنان ، تعاون برأيها وتشجيعها فى توجيه المعركة . ولما زال الخطر ورد الفرنج إلى مراكزهم ، لم تختر شجرة الدر قائداً جديداً للجيش ، بل آثرت أن تتولى بنفسها تدبير أمر الجند ؛ ولبثت على ذلك أياماً تعنى بشئون الجيش إلى جانب عنايتها بشئون المملكة حتى قدم السلطان الجديد الملك المعظم تورانشاه .

---

(١) الداوية أو فرسان المعبد The Templars وهم حسبما تقدم من أشهر جماعات الفرسان الدينية أيام الحروب الصليبية .

٦

ارتدت فلول الفرنج منهزمة عقب الموقعة تقصد إلى مراكزها العامة ، والمسلمون فى أثرها يثخنون فيها . وكانت القوات الفرنجية المتخلفة قد انتهزت الفرصة أثناء ذلك فأنشأت خلال اليوم قنطرة على بحر أشموم مما استولت عليه من الأخشاب والعتاد من المسلمين ، فلما ظهرت طلائع المهزومين عبرت قوات من الفرنج إلى البر الآخر لحمايتهم ، فعاد المسلمون إلى مراكزهم عند دخول الظلام .

وجمع الفرنج قواتهم فى تلك البقعة وعدلوا عن خطة الهجوم إلى الدفاع بعد الذى حاق بهم . وكذلك نظم المسلمون صفوفهم ، وأخذوا يحشدون عددهم وذخائرهم لمهاجمة الفرنج وردهم إلى الشمال .

ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى جاءت الأنباء بمقدم الملك المعظم ، وكان قد غادر حصن كيفا بالمشرق قبل ذلك بنحو شهرين ، وعرج فى طريقه على دمشق ، ونظم شئون السلطنة فيها ؛ ووصل إلى الصالحية فى ١٦ ذى القعدة أى بعد موقعة المنصورة بعشرة أيام ، فاستقبله هنالك نائب السلطنة الأمير حسام الدين وكبار رجال الدولة ، وتسلم مقاليد الملك بصفة رسمية ؛ وأعلنت عندئذ وفاة الملك الصالح لأول مرة ، وكانت شجرة الدر طوال هذه الفترة تحرص على كتمان موته ، وتؤكد لرجال الدولة والقادة أن السلطان مريض لا سبيل إلى الوصول إليه .

وكانت فترة عصيبة استطالت زهاء ثلاثة أشهر ، ولكن شجرة الدر لم تفقد ثباتها لحظة واحدة ، وحالفها التوفيق فاستطاعت أن تسهر على وحدة الدولة وسلامة المملكة ، وأن تؤدى مهمتها الفادحة بنجاح منقطع النظير .

وفى اليوم الحادى والعشرين من ذى القعدة وصل الملك المعظم فى ركبه إلى المنصورة ، ودخل قصر أبيه فاستقبلته شجرة الدر بحفاوة وسلمت إليه مقاليد الأمور ؛ وكان حريًّا أن تنال شجرة الدر شكره وعرفانه ، لما أسدت إلى الوطن والعرش فى تلك الآونة العصيبة من جليل الخدمات ، ولما يدين لها من فضل ترشيحه للملك ،

وأخذ العهد له فى غيبته ؛ ولكن تورانشاه كان أبعد من أن يشعر نحو تلك المرأة القوية بشكر الصنيعة ، بل كان بالعكس يخشاها و يتوجس من سلطانها ونفوذها ؛ وسرعان ما تنكر لها و بعث إليها وهى بالقاهرة يهددها و يطالبها بأموال أبيه وذخائره ؛ فقيل إنها التجأت حيناً إلى بيت المقدس خيفة بطشه وغدره [1] . وكان الملك المعظم فتى نزقاً عنيف الأهواء ، فأساء السيرة وبطش بكثير من رجال الدولة وحطهم عن مراكزهم ، واضطهد مماليك أبيه الملك الصالح فنقم عليه أكابر الدولة وزعماء المماليك ، وتغيرت نفوسهم عليه وأخذوا يتربصون الفرص لإزالته من طريقهم .

وفى أثناء ذلك كان الفرنج فى مراكزهم فى حيرة واضطراب . وكانت المؤن تأتيهم فى السفن من دمياط عبر النيل ، فدبر المسلمون خطة لقطع المؤن عنهم والبطش بهم ، وصنعوا عدة سفن قطعاً متفرقة حملت على ظهور الجمال ثم أنزلت فى النيل على مقربة من دمياط وشحنت بالمقاتلة ؛ فلما جاءت مراكب الفرنج محملة بالميرة هاجمها المسلمون بشدة وحطموها وغنموا ما فيها من العدد والأقوات وأسروا عدداً كبيراً من الفرنج ؛ فاشتد الضيق بالفرنج وساءت حالهم . وفى التاسع من ذى الحجة قدم من دمياط أسطول فرنجى جديد مشحون بالأقوات والمؤن ، فلقيته سفن المسلمين على مقربة من دمياط واستولت منه على اثنتين وثلاثين سفينة (مارس سنة ١٢٥٠ م) فتفاقم الأمر على الفرنج ، ودب إليهم الجوع والوهن وأخذ المرض يتفشى فيهم ؛ وكانت النيران التى تطلقها حراقات المسلمين على معسكرهم ، تزيد فى بؤسهم وكربهم ، وكان لويس التاسع بالرغم من هذا الموقف الخطر يأبى الارتداد حتى غلب نصح أمرائه وقادته ، فاعتزم مفاوضة المسلمين على نفس الشروط التى قبلها الملك الكامل سنة ١٢١٩ ﻫ وهى أن يرد الفرنج دمياط إلى المسلمين على أن يستردوا بيت المقدس ؛ ولكن المسلمين لم يقبلوا المفاوضة على هذا الأساس لما يعلمونه من تفاقم حالة الفرنج ، فعندئذ بلغ اليأس بالفرنج مبلغه ، وعولوا على الارتداد شمالاً نحو دمياط ، وأحرقوا خيامهم

---

(١) النجوم الزاهرة (عن ابن قزأوغلى) ج ٦ ص ٣٧١ و٣٧٣ .

وعتادهم . وفى مساء يوم الثلاثاء الثانى من محرم سنة ٦٤٨هـ (١٥ أبريل سنة ١٢٥٠م) بدأ الفرنج ينسحبون تحت جنح الظلام ، وسارت سفنهم فى النيل قبالتهم ؛ ولكن المسلمين كانوا ساهرين يرقبون حركة الفرنج ؛ وعندئذ جازت قواتهم فوق الجسر الذى أنشأه الفرنج على بحر أشموم ، وطاردوهم بشدة ، فما أسفر الصبح حتى احتطوا بهم من كل صوب ، وكانت الموقعة الشهيرة فى تاريخ مصر وتاريخ الحروب الصليبية ، وفيها هزم الفرنج هزيمة شديدة ، ومزقوا شر تمزيق ، وقتل وأسر منهم ألوف عدة ، وغنم المسلمون معظم خيولهم وعتادهم وأموالهم .

ولجأ لويس التاسع أو رى إفرنس[١] كما تسميه الرواية المصرية فى نفر من خاصته وقادته وفرسانه إلى قرية منية أبى عبد الله الواقعة على النيل على مقربة من فارسكور وطلب الأمان من المسلمين فمنح الأمان ، واقتاده الطواشى جمال الدين محسن مع صحبه من الكبراء وعدتهم نحو خمسين إلى المنصورة ، وهناك اعتقل ملك فرنسا فى دار القاضى فخر الدين بن لقمان ، ووضع القيد الحديدى فى يديه ، ووكل بحفظه الطواشى صبيح المعظمى[٢] . وفى بعض الروايات أن لويس التاسع اقتيد إلى معتقله معززاً مكرماً[٣] ؛ وكان نصراً باهراً لم يسمع بمثله منذ أيام السلطان الناصر صلاح الدين .

وسار الملك المعظم تورانشاه من المنصورة إلى فارسكور ، وهنالك نصب الدهليز السلطانى ، وأقام السلطان إلى جانبه برجاً من الخشب ، وانكب على لهوه وملاذه . وأرسلت البشرى إلى سائر الأنحاء فعم السرور والفرح فى العاصمتين القاهرة ودمشق . وجاء فى رسالة السلطان إلى نائبه فى دمشق الأمير جمال الدين بن يغمور فى تفصيل الموقعة ما يأتى « نبشر المجلس السامى الجمالى بل نبشر المسلمين كافة بما من الله به على

---

(١) رى إفرنس أو ريدافرنس هى مقابل الفرنسية القديمة Roy de France أو ملك فرنسا ؛ ولم يفت الرواية الإسلامية حقيقة شخصيته وأهمية مقامه . قال ابن واصل مؤرخ العصر : «وكان هذا اريد افرنس من أعظم ملوك الفرنجة وأشدهم بأساً . وإفرنس هى أمة الفرنج، ومعنى ريد افرنس ملك إفرنس فى لغتهم معناها الملك » (مفرج الكروب) .

(٢) السلوك فى دول الملوك ج ١ (٢) ص ٣٥٦

(٣) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٦ .

المسلمين من الظفر بعدو الدين ، فإنه كان قد استفحل أمره واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد فنودوا لا تيأسوا من رحمة الله . ولما كان يوم الإثنين مستهل الأيام المباركة فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح وجمعنا العربان والمطوعة وخلقاً لا يعلمهم إلا الله . . . فلما كان ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم وقصدوا دمياط هاربين وما زال السيف يعمل فى أدبارهم عامة الليل وقد حل بهم الخزى والويل ؛ فلما أصبحنا يوم الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً غير من ألقى نفسه فى اللجج . وأما الأسرى فحدث عنه البحر ولا حرج . والتجأ الفرنسيس (يريد ملك فرنسا) إلى المنية وطلب الأمان فأمناه وأكرمناه وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته وجلاله وعظمته » .

والظاهر أن نصر المسلمين على الفرنج وشعورهم بزوال الخطر كان نذيراً باضطرام الخلاف الداخلى . ذلك أن الملك المعظم أساء السيرة كما قدمنا واضطهد كثيراً من رجال الدولة وزعماء المماليك البحرية ، ووضع فى مناصبهم رجالاً من خاصته وأصدقائه ، الذين قدموا معه من المشرق ، وأخذ يهدد زوج أبيه شجرة الدر ويطالبها بأموال أبيه وذخائره ؛ فغضب الأمراء وأكابر الدولة لتصرفاته ، وغضب المماليك البحرية لمناوأته إياهم ، وكذلك لمسلكه الخشن نحو شجرة الدر ونكران فضلها فى ضبط المملكة والتمهيد لجلوسه على العرش . وسرعان ما أخذت عوامل السخط تعمل عملها ؛ وكتبت شجرة الدر من القاهرة إلى زعماء المماليك البحرية تشكو أمرها وتطلب حمايتهم . وشعر المماليك البحرية بما يضمره السلطان لهم من الكيد والغدر ، فاتفقوا على قتله قبل أن يبطش بهم . وليس هناك ما يدل على أن شجرة الدر قامت بتحريضهم على ارتكاب مثل هذه الجريمة أو أنها اشتركت معهم فى تدبيرها ، ولكن المؤامرة دبرت ونفذت بسرعة فى المعسكر السلطانى . والظاهر أن الذى دبرها بالأخص إثنان من زعماء البحرية هما بيبرس البندقدارى وفارس الدين أقطاى . وفى مساء يوم الإثنين ٢٧ محرم (٦٤٨ هـ) أعنى بعد كسرة الفرنج بنحو ثلاثة أسابيع كان السلطان يجلس إلى

السماط فى خيمته ، وكان زعماء الحلقة قد دعوا لتناول الطعام معه . فما كاد ينتهى حتى اقترب الفارس بيبرس من السلطان وضربه بسيفه ضربة تلقاها السلطان براحته فشقت إلى الذراع ، فوقع الهرج فى المخيم السلطانى وهرع السلطان مع بضعة من خاصته إلى البرج الخشبى الذى أقيم وراء المعسكر واحتمى بأعلاه ، فأسرع زعماء الحلقة فى أثره وفى مقدمتهم بيبرس وأقطاى وأخذوا يرمونه بالنبال ، ثم ألقوا النار على البرج فاحترق ، ونزل السلطان وهو يصيح طالباً الغوث والنجدة ، دون أن يتحرك إنسان لنجدته ، وتلقاه البحرية بالسيوف من كل ناحية وأثخنوه جراحاً ، ولكنه استمر فى ركضه حتى ألقى بنفسه فى النيل وهم فى أثره ، واجهز عليه الفارس أقطاى بطعنة قاضية ، ثم حملت جثته إلى الجسر وبقيت هنالك ثلاثة أيام فى العراء ، ثم دفنت فى مكانها بلا احتفال ولا تكريم .

٧

وهكذا هلك الملك المعظم تورانشاه فى غمر دامية ، فتى فى عنفوانه ، ولم يطل حكمه أكثر من خمسة أسابيع ؛ وشاء القدر أن يختتم بموته ثبت ملوك بنى أيوب وأن ينتقل عرش مصر من بعده إلى أسرة ملوكية جديدة .

وهنا عرضت مشكلة دقيقة هى من يخلف الملك القتيل على العرش ؟ بيد أن البحرية لم يجدوا صعوبة فى حل تلك المشكلة . وكانت شجرة الدر فى قصرها بقلعة الجبل ترقب الحوادث ، وكانت هذه المرأة الموهوبة التى أثبتت بخلالها القوية أنها أقدر من عظماء الرجال تلوح لهم معقد الآمال ، ومن ثم فقد اجتمع زعماء البحرية ورجال الدولة وأمراء الجند فى المعسكر السلطانى ، واتفقوا على ترشيح شجرة الدر لتبوء عرش مصر الإسلامية .

أجل كان تنصيب الملكات فى الإسلام بدعة لم يسبق لها مثيل ، ولم تجلس من قبل امرأة على عرش دولة مسلمة مستقلة . ولكن ألم يكن من الممكن أن تستمد السوابق من نواح أخرى ؟ لقد جلس فى العصور الغابرة على عرش مصر ملكات عظام ،

وكانت الروايات والأساطير الذائعة يومئذ عن تاريخ مصر القديمة تذكر كثيراً من أولئك الملكات ، وكانت منهن واحدة على الأقل شهيرة معروفة تحيطها الأسطورة بكثير من الجلال والروع وهى كليوباطره أو كلابطره كما تسميها الرواية العربية[١] . بيد أنه كان ثمة سوابق أخرى أقرب وأكثر ذيوعاً ؛ فقد كانت الدولة البيزنطية (دولة الروم) وهى جارة مصر من الشمال دولة عظيمة يقود مصايرها القياصرة ، ولكن ألم تجلس الملكات (القيصرات) أيضاً على عرش القياصرة ؟ أجل جلس منهن قبل شجرة الدر اثنتان هما الأمبراطورة إيرينى معاصرة الخليفة المهدى وولده هرون الرشيد ، وهى التى تعرفها الرواية الإسلامية باسم « رينى » والأمبراطورة تيودورا معاصرة الخليفة المستنصر بالله الفاطمى . وكان مَثَل تيودورا بالأخص معروفاً فى مصر ، فقد بعث إليها المستنصر بالله الفاطمى ، سفارته الشهيرة سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) أيام الشدة العظمى يستمد منها القوت والعون فلم تحقق رجاءه ووقعت الحرب بين الدولتين . وإذن فلم يك تنصيب الملكات بدعة فى الدول العظيمة ، فلماذا لا تجلس على عرش مصر امرأة كما جلست النساء على عرشها من قبل وكما تجلس النساء على عرش القياصرة ؟

اتفق رأى الزعماء والقادة على تولية شجرة الدر ، وأن تخرج التواقيع السلطانية باسمها ، وأن يكون مقدم الجند الأمير عز الدين أيبك التركمانى أحد زعماء البحرية[٢] ؛ وأخذت البيعة للملكة الجديدة فى اليوم العاشر من صفر سنة ٦٤٨ هـ (مايو سنة ١٢٥٠ م) وحمل البشرى إليها الأمير عز الدين ، فابتهجت لما وقع وبدأت عهدها الجديد كملكة لمصر الإسلامية .

وكانت تولية شجرة الدر حادثاً فريداً فى التاريخ الإسلامى ، وإذا استثنينا ما يقدمه لنا تاريخ بعض الإمارات الهندية المسلمة فإنه لم يحدث قط فى أية مملكة مسلمة أن

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٢) ابن واصل فى « مفرج الكروب » (مخطوط ج ٢ لوحة ٣٧٢) .

تولت الملك امرأة[١]، وكذلك لم تجلس بعد شجرة الدر إلى يومنا امرأة قط على عرش مملكة مسلمة مستقلة .

وكان للحادث أعظم وقع فى العالم الإسلامى حتى قيل إن الخليفة المستعصم بالله العباسى نعى على مصر أن تجلس على عرشها امرأة وأرسل إلى بلاط مصر يقول : « إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير إليكم رجلا »[٢]، ونعاه بعض فقهاء العصر واعتبروه خروجاً على الدين، وشعر الزعماء الذين ولوا شجرة الدر أنفسهم بهذا الشذوذ ، ومن ثم كان اختيارهم للأمير عزالدين أيبك ليكون مقدما على العسكر وليعاون شجرة الدر فى نفس الوقت على تصريف الشئون .

وقبضت شجرة الدر على زمام الأمور بحزم ، وكانت يومئذ فى نحو الأربعين من عمرها تفيض قوة وعزماً ، واختارت لوزارتها الصاحب بهاء الدين على بن محمد المعروف بابن حنّا وكان أول عهده بالوزارة ، واتخذت لنفسها طائفة من الألقاب الطريفة ، فهى الملكة عصمة الدين شجرة الدر ، وهى « الستر العالى » « والدة خليل » وهو ولدها المتوفى من الملك الصالح ، وكانت هذه علامتها على الأوامر والمراسيم . ودعى لها على المنابر بدعوات جديدة مبتكرة مثل « اللهم وأدم سلطان الستر الرفيع والحجاب المنيع ملكة المسلمين والدة الملك خليل » ومثل « واحفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح » ؛ وكذلك نقش اسمها على السكة بالعبارة الآتية « المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة

---

(١) وأشهر ما يقدمه إلينا تاريخ الإمارات الهندية المسلمة فى ذلك هو مثل السلطانة رضية ملكة دهلى (دلهى) التى وليت الملك عقب مقتل أخيها فى أواسط القرن السادس الهجرى واستقلت بالملك أربع سنين . وكانت تركب سافرة كما يركب الرجال (راجع رحلات ابن بطوطة — مصر — ح ٢ ص ٢٢) . وظهرت أيضاً فى أوائل القرن السابع فى بلاد خوارزم وخراسان أميرة أو ملكة عظيمة الشأن هى تركان خاتون والدة السلطان محمد بن تكش وكانت ذات سطوة وسلطان (أبو الفدا ج ٣ ص ١٤٨).

(٢) السلوك ج ١ (٢) ص ٣٦٨ ، وابن اياس ج ١ ص ٨٩ ، والسيوطى فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٩ .

الملك المنصور خليل أمير المؤمنين »[١] وقد اعتقد العلامة الأستاذ لاين پول أن هذه الألقاب تدل بأن شجرة الدر كانت جارية للخليفه المستعصم[٢] قبل أن تكون جارية للملك الصالح . ولكن هذا الاستنتاج بعيد الاحتمال . وأكبر الظن أن كلمة « المستعصمية » التى أطلقت على شجرة الدر كانت تعنى انضوائها تحت لواء الخليفة العباسى من الوجهة الدينية مثل ما كان عليه سلاطين آل أيوب إذ كانت ترد إليهم الخلعة والتشاريف عند تولى الملك من الخليفة العباسى .

وكان أول ماعنيت به الملكة شجرة الدر هو تصفية الموقف مع الفرنج وإجلائهم عن الأراضى المصرية ، فندبت الأمير حسام الدين محمد نائب السلطنة السابق لمفاوضة الملك الأسير لويس التاسع . وكان ثمة جماعة من الزعماء يؤثرون الاحتفاظ به وعدم إطلاق سراحه ، ويرون فى ذلك مصلحة كبيرة لمصر والإسلام . ولكن المفاوضات انتهت بالاتفاق على الإفراج عنه وعن باقى الأمراء المأسورين معه ، لقاء فدية قدرها ثمانمائة ألف دينار ، وأن يسلم الفرنج دمياط فوراً للمسلمين ، وأن يطلقوا جميع الأسرى المسلمين ، وأن يطلق المسلمون كذلك أسرى الفرنج المعتقلين منذ أيام العادل والكامل والصالح ؛ ثم خفضت الفدية المشترطة بعد ذلك إلى نصفها أى إلى أربعمائة ألف دينار ، وكانت مرجريت دى بروفانس ملكة فرنسا وزوج الملك الأسير يومئذ فى دمياط تعانى آلام المرض والمحنة ، فبذلت لجمع الفدية المطلوبة جهوداً فادحة ؛ ودخل المسلمون دمياط فى الثالث من صفر (٦٤٨ ﻫ) . وعلى أثر ذلك أفرج عن الملك لويس التاسع وزملائه من الأمراء ورجال الدولة ؛ وكان من رفاقه فى المعتقل مستشاره ومترجمه المؤرخ دى جوانفيل وهو الذى ترك لنا عن أخبار الحرب الصليبية السابعة وحوادث مصر يومئذ مذكرات قيمة شائقة[٣] . وغادر الفرنج أراضى مصر تواً وركب

(١) راجع كتاب الأستاذ لاين پول المشار إليه ص ٢٥٥

(٢) وتوجد فى المتحف البريطانى قطعة من النقود من عصر شجرة الدر تحمل الألقاب المشار إليها وهى القطعة الوحيدة من نوعها (يراجع Lane - Poole : A History of Egypt p. 255 note)

(٣) وقد وضعها دى جوانڤيل De Joinville بعنوان Histoire de St. Louis (تاريخ القديس لويس) ولها ترجمة انجليزية بعنوان : Memoirs of the Crusades

لويس التاسع وفلول جيشه ومن أفرج عنه من أسرى الفرنج وقد بلغوا يومئذ عدة آلاف ، البحر فى سفنهم إلى ثغر عكا ، وكان ذلك فى شهر مايو سنة ١٢٥٠ م .

وهكذا سحقت تلك الحملة الصليبية العتيدة فى الأراضى المصرية ، وقامت مصر عندئذ بدورها التاريخى مرة أخرى فردت عادية الغزاة الصليبيين عن مصر و بلاد المشرق ، وعملت على حماية الإسلام والمدنية الإسلامية من عدوان هذه الحملات البربرية ، وقضت على قوة من أعظم القوى النصرانية التى سيرت لغزو مصر باسم الدين.

وقد ترك لنا الشاعر الكبير جمال الدين بن مطروح نائب دمشق فى تلك الموقعة أبياتاً شهيرة مازالت ترددها الأجيال يقول فيها :

قل للفرنسيس(٢) إذا جئته ... مقال نصح من قؤول فصيح
آجرك الله على ماجرى ... من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصر تبغى ملكها ... تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لايرى منهم ... إلا قتيل أو أسير أو جريح
وفقك الله لأمثالها ... لعل عيسى منكم يستريح
إن كان باباكم بذا راضيا ... فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم إن أضمروا عودة ... لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشى صبيح

٨

كانت تولية شجرة الدر حركة جريئة ولكن خطرة فى نفس الوقت . ذلك أنه بالرغم من كل ماعرف عن الملكة الجديدة من أصالة فى الرأى وقوة فى الخلال ومقدرة فى تدبير الشئون ؛ و بالرغم مما أسدته إلى المملكة من جليل الخدمات وما أحرزته من

(٢) يريد هنا لويس التاسع ملك فرنسا .

نجاح فى إجلاء الفرنج ، فإن فريقاً كبيراً من الأمراء والزعماء فى مصر والشام لم يرق لهم أن يستظلوا بلواء امرأة . وسرعان ماظهرت بوادر الانتقاض الأولى فى الشام حيث أبى نائب السلطنة فى دمشق الأمير جمال الدين بن يغمور وكثير من الأمراء أن يقدموا عهد الطاعة للملكة الجديدة ، وأرسلوا إلى صاحب حلب الملك الناصر صلاح الدين يوسف حفيد السلطان صلاح الدين الأيوبى يطلبون إليه القدوم إلى دمشق ، فاستجاب لدعوتهم ، وقدم إلى دمشق وتسلمها ، وقبض على الأمراء الصالحية أنصار شجرة الدر ؛ وكان لهذه الأنباء فى بلاط القاهرة أعمق صدى ، فجدد الأمراء والمماليك عهد الطاعة لشجرة الدر وعز الدين أيبك و بادروا إلى تجهيز القوات لإرسالها إلى الشام .

ولكن شجرة الدر أخذت تشعر بحرج الموقف وتشعر بضعفها كامرأة ، ورأت أن تتزوج من الأمير عز الدين أيبك فتقوى بذلك مركزها كملكة وتدعم عصمتها وهيبتها كامرأة ؛ وتم هذا الزواج بالفعل فى ١٩ ربيع الثانى سنة ٦٤٨ هـ ؛ ولكن الظاهر أن هذه الخطوه لم تحدث أثرها فى تهدئة الأمور ولم ترض الأمراء الناقمين ، فعندئذ رأت شجرة الدر أن تقدم على الخطوة الحاسمة ، وأن تفتدى سلام المملكة ووحدتها بذلك العرش الذى رفعها القدر إليه ؛ فاتفقت مع الأمراء المماليك على أن تخلع نفسها ، وأن يتولى العرش مكانها زوجها الأمير عز الدين أيبك ؛ ونفذ هذا المشروع فى نهاية ربيع الثانى وجلس عز الدين أيبك على عرش مصر باسم الملك المعز ، وانتهت بذلك سلطنة شجرة الدر ، وكانت قصيرة المدى ولم تدم أكثر من ثمانين يوماً من عاشر صفر إلى آخر ربيع الثانى سنة ٦٤٨ هـ .

ورأى المماليك فوق ذلك إرضاء لبنى أيوب وتهدئة لثورتهم أن ينصبوا إلى جانب المعز على العرش شخصاً من بيت الملك فاتفقوا على إقامة الملك الأشرف موسى من عقب الملك العادل ، وهو يومئذ طفل فى نحو السادسة ، وأخذت له البيعة فى اليوم الثالث من جمادى الأولى ، وبذا جلس على عرش مصر ملكان ، وخرجت الأوامر والمراسيم باسم الملكين الأشرف والمعز وكانت تحمل صورة التوقيع الآتى « رسم

بالأمر العالى المولوى السلطانى الملكى الأشرفى والملكى المعزى » .

على أن كل هذه الخطوات لم تحقق الغاية المنشودة ، فلم تهدأ ثائرة المعارضين ولم يعترف أمراء بنى أيوب بالملك المعز ، واستمرت الخصومة حول العرش فى مصر على اضطرامها ، وسير الملك الناصر صلاح الدين صاحب دمشق جنده إلى مصر يحاول انتزاعها من المماليك ، فسار إليهم الأمير فارس الدين أقطاى فى قوة متنخبة من الجند المصريين ، وشتت شملهم بالقرب من غزة وعاد إلى القاهرة ظافراً (٥ رجب ٦٤٨هـ). ولكن هذا الفشل لم يثن الملك الناصر عن مشروعه ، فجمع قواته مرة أخرى وسار بنفسه إلى مصر ومعه عدة من أمراء بنى أيوب ، وذاع خبر مسيره فى القاهرة فاضطربت الأمور وقُبض على كثير من المعارضين وأنصار بنى أيوب ، وسار الأمير فارس الدين أقطاى للقاء المهاجمين ، ثم تبعه الملك المعز فى بقية العسكر ، والتقى الفريقان على مقربة من مدينة الصالحية ، ونشبت بينهما معركة كبيرة رجحت فيها كفة الشاميين أولا، ولكن المماليك صمدوا ودارت الدائرة فى النهاية على الشاميين فهزموا هزيمة شديدة ، ومزقت قواتهم ووقع عدة من أمراء بنى أيوب فى الأسر ، وكان ذلك فى أوائل ذى القعدة سنة ٦٤٨ هـ .

فعاد الملك الناصر منهزماً بفلوله إلى دمشق واعتصم بها ، واستقر الملك المعز فى ملك مصر ، وأخذ يعمل على توطيد عرشه واستقرت الأمور نوعاً ، ثم عقد الصلح بينه و بين خصمه القوى الملك الناصر فى سنة ٦٥١ هـ على أن يستقل المعز بالديار المصرية وغزة وبيت المقدس ، و يستقل الناصر بما بقى من أراضى المملكة المصرية والمشرق ، وأفرج المعز عن أولاد الناصر و باقى الأمراء الأيوبية المأسورين لديه ، وصفت العلائق نوعاً بين القاهرة ودمشق ، واستطاع المعز أن يتفرغ للشئون الداخلية .

ماذا كان موقف شجرة الدر خلال هذه الفترة المضطربة ؟ لقد عادت شجرة الدر بعد أن خلعت نفسها من الملك امرأة وزوجاً فقط ، ولكنها لبثت كما كانت أيام زوجها الأول الملك الصالح سيدة القصر والبلاط . وكان المعز أميراً عاقلاً حصيف الرأى

والخلال طاغية ظلوماً فى نفس الوقت ؛ ولكنه كان يخشى هذه المرأة القوية التى رفعته إلى الملك ويصدع بأمرها ووحيها . وكانت شجرة الدر من ورائه تحميه وتحمى عرشه من كيد خصومه الأقوياء . وكان الملك المعز يعيش فى توجس دائم من دسائس زعماء البحرية زملائه السابقين ، ويخشى من غدرهم على نفسه وعرشه ؛ وكان الخطر ماثلا فى الواقع ، وكان ثمة عدة من هؤلاء الزعماء وفى مقدمتهم الأمير فارس الدين أقطاى وبيبرس البندقدارى وقلاوون الألفى يتربصون به ويتحدّونه بلا انقطاع . وكان فارس الدين أقطاى يتزعم هـذه الكتيبة الخطرة من خصوم الملك المعز ويناوئه كلما سنحت الفرص ، وكان كلما قصد إلى القلعة سار إليها فى موكب عظيم من الفرسان كأنه ملك متوج . وحدث أن خطب فارس الدين أقطاى ابنة صاحب حماة وطلب إلى الملك المعز إسكانها فى القلعة فى جناح من القصر الملكى لأنها من سلالة ملوكية فخشى المعز عاقبة هذا الطلب وتظاهر بالموافقة عليه ؛ ولكنه اعتزم فى الواقع أن يتخلص من هذا المنافس الخطر ؛ وبينما كانت العروس فى طريقها إلى مصر فى موكبها الفخم دبر الملك المعز أمره واستدعى الأمير فارس الدين أقطاى ذات يوم إلى القلعة وأعد له فى نفس الوقت كميناً لقتله ؛ وجاء أقطاى إلى القلعة مطمئناً ، وما كاد يجوز الأبواب حتى أغلقت ومنع مماليكه من اللحاق به ، وانقض عليه القتلة وفى مقدمتهم المملوك قطز الذى تولى ملك مصر فيما بعد ، وقتلوه وألقوا برأسه من فوق السور إلى مماليكه الذين احتشدوا أمام القلعة لحمايته (٣ شعبان سنة ٦٥٢ هـ) . فلما رأى أعيان البحرية ذلك خشوا أن تدور الدائرة عليهم ، فركنوا إلى الفرار وسار بعضهم إلى الشام وقصد بعضهم إلى قيصر الروم وتفرق بذلك جمعهم وأمن الملك المعز شر الفتنة إلى حين .

وعمد الملك المعز بعد ذلك إلى خلع الملك الأشرف موسى وهو الملك الطفل الذى أراد أن يتدرع بتوليته فى وجه بنى أيوب ، وأنزله من القلعة ورده إلى منزله السابق بين أهله واستقل المعز بتوقيع الأوامر والمراسيم .

وهكذا عمل الملك المعز على توطيد عرشه شيئاً فشيئاً ، ولاح له أنه أمن شر خصومه

من البحرية بعد أن مزق جمعهم وحطم شوكتهم . بيد أن الخطر كان يجثم فى ناحية أخرى وكان أقرب إليه مما يتصور .

٩

كانت شجرة الدر خلال ذلك هى الروح المسيطرة على كل شىء فى البلاط والدولة ؛ وكان الملك المعز يعانى من هذا الطغيان الأدبى المرهق ولا يرى سبيل الخلاص منه ؛ وكانت شجرة الدر بالرغم من هذا السلطان القاهر تجيش بكل ما تجيش به المرأة من صنوف الضعف والأهواء الخطرة ، وكانت قد جاوزت يومئذ طور الشباب النضر وأشرفت على الخمسين من عمرها ، ولكنها مع ذلك تضطرم بنار الغيرة المحرقة ، ولم يهدئ من ثورة غيرتها أنها أرغمت المعز غير بعيد على طلاق زوجه الأولى وأم ولده على ، ومنعته من زيارتهما أو الاتصال بهما[١] ، بل استمرت المناظر العاصفة تحدث بين الزوجين لأقل كلمة أو بادرة ، حتى غدا القصر وغدت الحياة المشتركة فى نظر الملك المعز جحيما لا يطاق .

وهكذا لبثت الوحشة بين المعز وشجرة الدر فى ازدياد ، ولما سئم المعز هذه الحياة الزوجية النكدة فكر فى أن يضع لها حداً واعتزم أن يختار له زوجة أخرى ، وبعث بالفعل إلى الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يخطب ابنته وكانت رائعة الحسن ، ولعله لم يكن فى الوقت نفسه بعيداً عن التفكير فى التخلص من شجرة الدر والتحرر من نيرها المرهق بإزالة شخصها من الوجود . وتحدثنا الرواية فى هذا الصدد بأنه كان للملك المعز منجم أخبره أنه سيموت قتيلاً على يد امرأة فلم يشك فى أنها هى شجرة الدر وفكر فى أن يكون البادئ بالعمل ، ولكن شجرة الدر كانت ساهرة ترقب حركاته ومشاريعه ؛ وحدث حادث ترتب عليه افتضاح المعز . ذلك أنه قبض ذات يوم على عدة من المماليك البحرية وسيرهم إلى القلعة لاعتقالهم فى «الجب» وعلى رأسهم أيدكين الصالحى أحد غلمان الملك الصالح ، فلما وصلوا تحت الشباك الذى تجلس

---

(١) السلوك فى دول الملوك ج ١ (٢) ص ٤٠١ .

فيه شجرة الدر وكانت تجلس فيه عندئذ ، انحنى أيدكين احتراماً وصاح بالتركية : « والله ياخوند ما عملنا ذنباً يوجب مسكنا ، ولكنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل ما هان علينا لأجلك فإنا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم . فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ما ترين» فأومأت إليه شجرة الدر بمنديلها بما معناه « قد سمعت كلامك» ، ولما زج أيدكين وزملاؤه إلى الجب قال لهم « إن كان حبسنا فقد قتلناه » .

وثارت شجرة الدر سخطاً وكبرياء ، وأدركت بثاقب فكرها وخبرتها بدسائس القصر أنها إذا لم تبادر إلى التخلص من زوجها الملك المعز فانه سيعاجلها بالتخلص منها ، وأرسلت شجرة الدر سراً إلى الملك الناصر صاحب دمشق بهدية ورسالة تنبئه فيها أنها اعتزمت التخلص من الملك المعز وتعده بالزواج منه وتمليكه عرش مصر ، فلم يلتفت الناصر إلى عروضها لما يعلمه من روعة دسائسها وخطر الاتصال بها .

ووقف بدر الدين ملك الموصل على هذا السر الرهيب فأرسل إلى الملك المعز يحذره من مشاريع زوجه وغدرها ، ولم يكن المعز بحاجة إلى التحذير فقد كان يشعر فى الواقع بالخطر الذى يتربص به ، وكان يتحوط لنفسه من شجرة الدر وغلمانها أينما ذهب، وأخيراً اعتزم أن يخرجها من القلعة مبالغة فى الاطمئنان وأن يسكنها فى دار الوزارة ، ثم غادر القلعة وأقام أياماً فى مناظر اللوق بعيداً عنها يدبر أمره ويعد العدة لتنفيذ مشروعه الأخير .

وشعرت شجرة الدر من جانبها بأن الفرصة تكاد تفلت من يدها ، وأنها إذا لم تبادر فوراً إلى العمل انهار مشروعها كله ؛ فلم تضع وقتاً ولجأت إلى دهاء المرأة وخديعتها وبعثت إلى الملك المعز فى مقامه باللوق تتلطف به وتستحلفه الصفح والصلح وتدعوه إلى قصر القلعة وتؤكد له كل عهد بالولاء والاخلاص ؛ فما الذى جال بخاطره عندئذ ؟ وهل كانت ما تزال تجذبه نحو تلك المرأة الساحرة بقية من صبابة الماضى ؟ وهل نسى عندئذ ما كان يخالجه من ريب فى نياتها الخطرة ؟ وهل آمن عندئذ بأنها سوف تعود حقاً إلى صوابها وولائها وتتخلى عن مشاريعها السوداء ؟ وعلى أى حال فإن الملك

المعز لم ير بعد التفكير بأساً أن يستجيب إلى دعوة زوجه المغرية ، وكان ذلك يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ[1] وقد أنفق المعز عصر ذلك اليوم فى لعب الكرة مع بعض خاصته ، وما غربت الشمس حتى غادر المعز فى ركبه ميدان اللوق إلى القلعة ودخل القصر مجهداً متعباً .

فاستقبلته شجرة الدر بحفاوة بالغة وغمرته بالابتسام والمداعبات ، فاستسلم المعز إلى حفاوتها الغادرة ولم يتخذ لنفسه أى تحوط ، وكانت شجرة الدر قد قررت أمرها واختارت نفس الوقت والساعة لتنفيذ جريمتها ؛ وكانت قد رتبت لاغتيال المعز خمسة من غلمانها هم نصر العزيزى ومحسن الجوهرى ومملوك يدعى سنجر وخادمان من ذوى البأس والشدة ؛ فاستراح المعز قليلاً ، ثم قصد إلى الحمام ليلاً ليغتسل وهو آمن مطمئن ، ولكنه ما كاد يخلع ثيابه حتى انقض عليه الغلمان الخمسة وهو عار لينفذوا فيه حكم الإعدام الذى أصدرته شجرة الدر . وتنقل إلينا الرواية عن مصرعه روايات مثيرة . فيقال إن القتلة أخذوا بأنثييه وخنقوه فى نفس الوقت حتى زهق . وفى رواية أخرى أن شجرة الدر أخذت تضربه بالقبقاب على رأسه وهو يستغيث حتى أجهزت عليه ؛ وتضيف الرواية إلى ذلك أن المعز حينما انقض عليه القتلة وشعر بأنه هالك أخذ يستغيث بشجرة الدر ويتضرع إليها أن تنقذه ، وأن شجرة الدر تأثرت لتضرعه وطلبت إلى الغلمان أن يتركوه فصاح بها محسن الجوهرى مغضباً : « إذا تركناه فإنه لا يبقى علينا ولا عليك » . وهكذا تمت الجريمة وقتل الملك المعز أروع قتلة بتدبير زوجه الغادرة الخؤون بعد أن جلس على عرش مصر سبع سنين ، وكان قد أشرف على الستين من عمره (١٠ أبريل سنة ١٢٥٧ م) .

وبادرت شجرة الدر فى الحال إلى العمل لاتقاء عواقب الجريمة فأرسلت ليلا إلى

---

(١) يقول لنا المقريزى إن ذلك اليوم — وهو اليوم الذى قتل فى مسائه الملك المعز — كان يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ (السلوك ج ١ (٢) ٤٠٣) . ويقول لنا صاحب النجوم الزاهرة إن ذلك اليوم كان يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الأول (ج ٦ ص ٣٧٥) ، وقد رأينا بعد مقارنة التاريخ والحوادث أن نأخذ بالرواية الثانية باعتبارها أقوى وأرجح .

القاضي ابن مرزوق واستشارته فى الأمر بعد أن نبأته بموت الملك المعز، فاعتذر ولم يبد رأيا، وأرسلت فى نفس الوقت تعرض السلطنة على بعض الأمراء الصالحية مثل الأمير عزالدين أيبك الحلبى وجمال الدين العزيزى فلم يرتضها أحد منهم رهبة وروعاً؛ وهكذا أخفقت شجرة الدر فى محاولتها أن تقيم على وجه السرعة فى السلطنة أميراً تستتر وراءه فى الحكم. وأذيع فى صباح اليوم التالى أن الملك المعز مات بالليل فجأة، فحدث أيما هرج واضطراب، ولم يصدق معظم الناس هذا النبأ، وذاعت مختلف الاشاعات وكثرت الظنون والريب، وركب المماليك إلى القلعة وعلى رأسهم الأمير بهاء الدين الأشرفى مقدم الحلقة، وحاصروا القصر وقبضوا على الخدم والحريم، فأقر بعضهم بحقيقة ما وقع. وفى الحال استدعى كبير الوزراء شرف الدين الفائزى[1] ونادى الأمراء المعزية بتولية الملك المنصور علىّ ولد الملك المعز على العرش مكان أبيه، وكان يومئذ صبياً فى نحو الخامسة عشرة، ووافق الأمراء الصالحية على توليته اتقاء الفتنة، وفشلت جهود الأمراء المتوثبين لاغتصاب العرش.

وأراد الأمراء المعزية القبض على شجرة الدر وكانت قد امتنعت بجناحها فى القلعة مع نفر من خدمها وجواريها، وحاولوا اقتحام الدار فمنعهم الأمراء الصالحية، وكادت تقع بين الفريقين فتنة لولا أن تعهد الأمراء المعزية آخر الأمر بتأمين شجرة الدر وعدم التعرض لشخصها. وفى اليوم التاسع والعشرين من ربيع الأول أخرجت شجرة الدر باتفاق الفريقين من جناحها الملكى واعتقلت مع بعض جواريها فى البرج الأحمر أمنع أبراج القلعة يومئذ، وكان يقع فى الناحية الجنوبية منها، وقبض على الخدم الذين اشتركوا فى الجريمة وفى مقدمتهم محسن وسنجر وصلبوا على باب القلعة، ولم ينج منهم سوى نصر العزيزى الذى استطاع الفرار إلى الشام، وأعدم عدة كبيرة من الغلمان والطواشية، وقبض على الوزير الصاحب بهاء الدين بن حِنّا وزير شجرة الدر السابق بتهمة الاشتراك

---

(١) هو الوزير شرف الدين أبو سعيد هبة الله بن صاعد الفائزى وكان قبطياً فأسلم وتقدم فى وظائف الدولة حتى ولى رياسة الوزارة للملك المعز وولى الوزارة من بعده لولده المنصور أياماً قلائل، ثم قبض عليه وتوفى قتيلا فى جمادى الأولى سنة ٦٥٥ هـ.

فى الجريمة ولم يفرج عنه إلا بعد أن افتدى نفسه بمبلغ طائل؛ وأما شرف الدين الفائزى فقد قبض عليه بعد أن تولى الوزارة للملك الجديد أياماً ، ثم قتل فى سجنه بعد ذلك بقليل ؛ وأحاطت المماليك المعزية بالقصر السلطانى ووضعوا أيديهم على جميع ما فيه ، واقتسموا جوارى شجرة الدر ومتاعها ، وسادت فى القصر والبلاط أسباب الذعر والإرجاف مدى حين .

١٠

ولبثت شجرة الدر فى معتقلها بالبرج الأحمر أياماً وهى تعانى أمرّ ضروب التوجس والروع ، وقد كانت بلا ريب تشعر بمصيرها المحتوم ، وأى مصير كان ينتظرها سوى الموت فى أعنف صورة ؟ ولم يك ثمة سبيل للفرار وأعين المماليك المعزية ترقبها بمنتهى الحذر . وكان المماليك المعزية يخشون هذه المرأة الخطرة بالرغم من محنتها واعتقالها ، ويعتقدون أنه لا ضمان لاستقرارهم فى العرش والسلطة سوى إزالتها من الوجود ؛ وكان الملك الفتى (المنصور) وأمه يضطرمان ظمأ للانتقام من الزوج القاتلة ؛ وهكذا كان القدر الصارم يتربص بشجرة الدر ويدنو منها سراعا ، وكان الأمراء المعزية يترقبون الفرصة للعمل ويطالبون جهاراً بتسليم شجرة الدر ومعاقبتها على ما أثمت ، والمماليك الصالحية من جانبهم يحاولون إنقاذ شجرة الدر وحمايتها، بيد أنهم كانوا الفريق الأضعف، فلم تمض أيام قلائل حتى خفتت معارضتهم وانحنوا أمام العاصفة . وفى يوم الجمعة العاشر من شهر ربيع الثانى[1] نفذ المماليك المعزية إلى البرج الأحمر بأمر الملك المنصور وأمه ، وقبضوا على شجرة الدر وحملوها إلى أم الملك المنصور لكى تتولى عقابها بنفسها ؛ وهنا

---

(١) تختلف الروايات المصرية فى تاريخ مقتل شجرة الدر كما اختلفت فى تاريخ مقتل زوجها الملك المعز فيقول لنا المقريزى إنها قتلت يوم السبت ١٨ ربيع الأول أعنى بعد مقتل المعز بثلاثة أيام وذلك وفقاً لروايته (السلوك ج ١ (٢) ص ٤٠٤) ويقول لنا صاحب النجوم الزاهرة نقلا عن غير رواية إن مقتل شجرة الدر كان فى يوم السبت ١١ ربيع الثانى وذلك لسبعة عشر يوماً من مقتل الملك المعز (ج ٦ ص ٣٧٧ و٣٧٨) ويقول أبو الفدا إنها قتلت فى يوم ١٦ ربيع الثانى، ويقول ابن إياس إنها قتلت يوم الثلاثاء ٢٥ ربيع الثانى (ج ١ ص٩٢). وقد أخذنا نحن بالرواية الثانية لأنها أكثر اتفاقاً مع سير الحوادث .



مدفن شجرة الدر (القاهرة)
تصوير إدارة حفظ الآثار العربيـة

يقول لنا المقريزى: «فضربها الجوارى بالقباقيب إلى أن ماتت فى يوم السبت وألقوها من سور القلعة إلى الخندق وليس عليها سوى سراويل وقميص، فبقيت فى الخندق أياماً وأخذ بعض أراذل العامة تكة سراويلها . ثم دفنت بعد أيام — وقد نتنت وحملت فى قفة — بتربتها قرب المشهد النفيسى ... »[١]. وتزيد الرواية على ذلك أن شجرة الدر حينما أيقنت بهلاكها كان من قوة نفسها أن أخفت جملة من المال والجواهر، وانتقت فوق ذلك طائفة من الجواهر والحلى النفيسة وحطمتها وسحقتها فى الهاون حتى لا تقع فى أيدى أعدائها[٢] .

وهكذا زهقت شجرة الدر أول وآخر ملكة لمصر الإسلامية ، تلك التى لبثت أعواماً طويلة زينة البلاط المصرى وصاحبة الحول والسلطان فيه ، وزهقت بنفس الأسلوب المروع الذى زهق به زوجها الملك المعز ؛ وكان القصاص مثيراً ، ولكن عادلاً ، وكان الفصل الأخير من مأساة قصر متعددة الفصول والنواحى ، بدأت رائعة باهرة ثم انحدرت إلى ظلمات الجريمة .

كانت شجرة الدر بإجماع الروايات المعاصرة والمتأخرة شخصية عظيمة تمتاز بخلال ومواهب غير عادية ، وكانت إلى جانب جمالها الرائع وسحرها الوافر كامرأة وحظية

---

(١) دفنت شجرة الدر فى التربة التى أنشأتها لنفسها بقرب مشهد السيدة نفيسة فى سنة ٦٤٨ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٤) . وما تزال هذه التربة قائمة إلى اليوم . وهى توجد داخل مسجد صغير أصله مدرسة أنشأتها شجرة الدر بجوار تربتها بشارع الخليفة وتعرف اليوم باسم جامع شجرة الدر أو جامع الخليفة وعلى التربة قبة من طراز عباسى كتب فى جنباتها ما يأتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . عز الستر الرفيع والحجاب المنيع ، عصمة الدنيا والدين ، والدة الملك خليل بن مولانا السلطان الملك الصالح نجم الدين أبى المظفر أيوب بن مولانا الملك الكامل ناصر الدين أبى المعالى محمد بن أبى بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين قدس الله روحه ونور ضريحه؛ التى خطبت الأقلام بمناقبها على منابر الطروس ، وشهدت لها المفاخر بالمجد الثابت فى أعلى العز بين الورى ، وأصبحت شموس المملكة بها طالعة ، وآراء الأمراء لها مطيعة وسامعة ، وأعز الله أنصارها ، وضاعف اقتدارها ، وأعلى منارها ، وجعل فى الملأ الأعلى خدامها . ولم تزل مؤيدة منصورة على مر الليالى والأيام ، بمحمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين الكرام » . (ورد هذا النص ضمن بحث عن العمارة الإسلامية فى العصر الأيوبى للأستاذ حسن عبد الوهاب ونشر بمجلة العمارة عددى ٧ — ٨ لسنة ١٩٤٠) .

(٢) السلوك ج (٢) ص ٤٠٤ ، والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٨ .

تتمتع بصفات باهرة قلما تجتمع فى حسناء وافرة السحر ، فقد كانت قوية النفس صارمة العزم وافرة الحرمة والحشمة ، تعيش فى جو من المهابة والجلال ؛ ولم تكن فقط جارية القصر الأثيرة تسيطر بأنوثتها ودلالها ، ولكنها كانت تسيطر أينما حلت بقوة عقلها وذكائها وروحها ؛ وقد لبثت مذ تولى سيدها وزوجها الملك الصالح ملك مصر زهاء ثمانية عشرة عاماً أبرز شخصية فى البلاط وفى الدولة ، يغلب رأيها كل رأى ونفوذها كل نفوذ ، ولم يكن تبوؤها العرش لفترة قصيرة المدى إلا عنوان الذروة فى هذا المجد العريق الذى شادته حولها خلال أعوام طويلة من السلطان غير المتوج . وقد كان لصائب رأيها وثبت جنانها وتوجيهها الجرىء أثناء غزو الصليبيين لمصر أعظم الأثر فى إنقاذ مصر من كارثة مروعة وتحويلها إلى نصر حاسم باهر. ولم تفقد شجرة الدر شيئاً من سلطانها القاهر حينما خلعت نفسها وتخلت عن عرشها للملك المعز ، ولكنها لبثت من ورائه سيدة الموقف وصاحبة الرأى ، وكانت حتى فى تلك الآونة التى بدأت تغالبها فيها الظروف وأخذ يخبو نجمها المتألق، أقدر من يسوس طوائف المماليك المتمردة ويهدئ ثورتها .

وكانت هذه المرأة العظيمة التى رفعها القدر إلى عرش مصر تتمتع فوق ذلك كله بخلال شخصية جليلة ، فقد كانت بالرغم من جمالها وسحرها ، سيدة متينة الخلق وافرة العفاف والصون ، تقية خيرة تعشق أعمال البر وتوقف عليها الكثير من مالها . وكانت الغيرة العنيفة هى أظهر ما فيها من ضعف المرأة ، وهى التى أضلتها ودفعتها فى النهاية إلى الخاتمة المؤسية .

***

وجلس بعد الملك المعز على عرش مصر حدث يافع هو ولده الملك المنصور على ، ولم يكن أصلح من يتولى الملك ولكنه كان مرشح المماليك البحرية ودرعهم لإقصاء بنى أيوب عن العرش ؛ ومع ذلك فلم تهدأ الخواطر ولم تستقر الأمور بولايته ، ولبثت الدسائس والمنافسات بين مختلف الزعماء على اضطرامها ؛ وكانت مصر أثناء هذا المعترك

الدموى حول عرشها تواجه فترة من أدق فترات تاريخها، وكانت غزوات التتار البربرية تنساب نحو المشرق بسرعة وصروح العالم الإسلامى القديم تنهار تحت ضرباتهم تباعاً ، وبلغ الخطر المروع ذروته حينما انقض التتار بقيادة عاهلهم هلاكو على بغداد واستولوا عليها وقضوا على الخلافة العباسية وقتلوا المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين بها ، وذلك فى صفر سنة ٦٥٦ هـ (فبراير سنة ١٢٥٨ م) ؛ وأخذ الشرق الإسلامى كله يرتجف فرقاً لاقتراب الخطر الداهم ، وكانت مصر أشد شعوراً من غيرها بالخطر لأنها كانت دائماً كعبة الغزاة من المشرق ؛ وسرعان ما كشف هلاكو عن نياته نحو الشام ومصر فأرسل رسله إلى أمراء الشام يدعوهم إلى الخضوع والتسليم العاجل ؛ وأخذت جيوش التتار تعبر الفرات متجهة نحو المشرق ، ولم يك ثمة شك فى النتيجة المروعة إذا سمح لهذا السيل المخرب أن ينساب إلى ربوع مصر الخضراء؛ ففى تلك الآونة العصيبة ظهر الأمير سيف الدين قُطُز أقوى الزعماء البحرية فى ميدان الحوادث، وكان يتولى نيابة السلطنة ويقوم للملك المنصور بتدبير شئون المملكة وكان يرقب سير الحوادث فى الشرق بجزع، ويرى أن وجود هذا الفتى اليافع على عرش مصر فى هذا الظرف الدقيق خطراً يهدد كيانها ، فانتهز أول فرصة وقبض على الملك المنصور وأمه وأخيه وزجهم إلى برج القلعة ونادى بنفسه ملكاً (٢٤ ذو القعدة سنة ٦٥٧ هـ) وأعلن إلى زملائه الأمراء فى صراحة أنه لايبغى الملك لذاته ، ولكنه يريد التأهب لرد التتار وإنقاذ مصر من شرهم فإذا تم القضاء على هذا الخطر فلهم أن يختاروا غيره للملك من شاءوا .

ووصل التتار إلى الشام فى أوائل سنة ٦٥٨ هـ واستولوا على حلب وأعلنت دمشق خضوعها لهم، ولم تمض أشهر قلائل حتى سيطروا على سائر جنبات الشام ، ثم انسابوا نحو الجنوب بسرعة مدهشة ، ووصلوا إلى فلسطين وأرسل هلاكو رسله إلى ملك مصر يطلب إليه الخضوع والتسليم ويهدده بالويل، وكانت مصر تستعد من أقصاها إلى أقصاها للقاء الغزاة، وبذل الملك قطز جهوداً عظيمة فى حشد الجند وإتمام الأهبة،

فلما وصل رسل هلاكو أجاب قطز بالقبض عليهم و إعدامهم وتعليق رؤوسهم على باب زَويلة ، ثم سار من فوره على رأس قواته إلى فلسطين و بادر بلقاء الغزاة فى عزم وثقة ؛ وكان التتار قد وصلوا عندئذ إلى أسوار غزة فردهم جند مصر بقوة واشتبكوا معهم فى معركة عظيمة حاسمة فى عين جالوت على مقربة من بيسان وذلك فى منتصف رمضان سنة ٦٥٨ هـ (سبتمبر سنة ١٢٦٠م) ؛ وفى عين جالوت أحرزت مصر نصراً باهراً واستطاعت أن ترد الغزاة البرابرة على أعقابهم، وكان يوماً عظيماً لمصر والإسلام ؛ ولم يمض قليل حتى استطاع الملك المظفر « قُطُز » أن يستخلص الشام من التتار وأن يردهم نحو المشرق منهزمين مدحورين ، وكان لمصر فضل القضاء على خطر التتار كما كان لها من قبل فضل القضاء على سيل الغزوات الصليبية ، وكانت فى عين جالوت تقوم برسالتها التاريخية فى حماية الإسلام والمدنية الإسلامية .

تيمورلنك

(٧٣٧ – ٨٠٧ هـ) ، (١٣٣٦ – ١٤٠٥ م)

كانت سهول التركستان الوعرة منذ أواخر القرن الثانى عشر الميلادى مبعثاً لطائفة من أكابر الغزاة البدائيين ؛ وكانت غزواتهم المخربة تنساب دائماً نحو الجنوب والغرب ، وكانت مناطق شمالى الهند وفارس تجذبهم دائماً بحضارتها ومواردها التالدة ؛ وكانت فارس بالأخص مركز اندفاعهم نحو الغرب . ففى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى خرج تموچين الشهير بجنكيزخان من أقاصى مملكته الشاسعة فى أواسط الصين على رأس جيش من المغول والتتار واجتاح بلاد التركستان (ما وراء النهر) ثم انحدر هذا السيل المروع إلى خراسان والهند وخرب مدنها الزاهرة (١٢١٩ م) وانساب التتار بعد ذلك خلال فارس حتى العراق ، ولكن السيل كان قد هدأت حدته ، وارتد الغزاة أمام جند الخلافة ؛ وعاد جنكيزخان إلى مملكته بعد أن جعل من أواسط آسيا قفراً بلقعاً .

ولم تخب فورة الغزو المخرب بوفاة جنكيزخان ؛ ولكنها تجددت بعد قليل على يد هلاكو عاهل التتار فى فارس . وكان اندفاع التتار يومئذ نحو الغرب أو بعبارة أخرى نحو الممالك الإسلامية قوياً مروعاً . ففى أوائل سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) زحف هلاكو على رأس جموعه التتار إلى بغداد وحطموا كل مقاومة ، ودخلوها دخول الضوارى المفترسة ، ودمروا صروحها ونهبوا خزائنها وذخائرها ، وقتلوا عشرات الألوف من أهلها ، وقضوا على الخلافة العباسية وعلى معالم الحضارة الإسلامية فى مناظر هائلة من السفك والتدمير ، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله وأفراد أسرته ، وانتهت بذلك حياة الدولة العباسية بعد أن عاشت نحو خمسة قرون .

ثم تابعت جموع التتار بعد ذلك زحفها نحو الغرب ، وجازت الفرات واجتاحت بلاد الجزيرة ، ثم اتجهت نحو الشام واستولت على حلب ودمشق ، وانسابت بعد ذلك نحو الجنوب تريد غزو مصر ؛ ولكن شاء القدر أن يكون تحطيم هذا السيل المدمر على يد مصر . ففي رمضان سنة ٦٥٨ هـ (سبتمبر ١٢٦٠ م) التقت الجيوش المصرية بالغزاة في عين جالوت على مقربة من بيسان ، ومزقتهم بعد موقعة دامية ، وارتد التتار على إثر هزيمتهم نحو الشرق ، واستطاعت مصر أن تؤدى بذلك رسالتها التاريخية فى حماية تراث الإسلام والمدنية الإسلامية مرة أخري .

ومضى زهاء قرن آخر قبل أن يتجدد خطر الغزو التترى . ولكنه عاد منذ منتصف القرن الرابع عشر يضطرم مرة أخرى وفى نفس مهده القديم أعنى سهول التركستان . ففي تلك الآونة ظهر فى الميدان قائد فتى قدر له فيما بعد أن يحتل مكانه بين أعظم غزاة التاريخ . ذلك هو تيمور أو تيمورلنك . وكان مولد هذا الفاتح العظيم فى سنة ١٣٣٦ م (٧٣٧ هـ) فى بلدة كش على مقربة من سمرقند ، وأبوه تراجاى زعيم قبيلة برلاص إحدى قبائل التتار القوية . وكان قد اعتنق الإسلام واعتنقه أبناء قبيلته ؛ وهكذا نشأ ولده تيمور مسلماً . وتعلم تيمور الفروسة منذ صباه ومهر فيها ؛ بيد أنه كان يعانى من عاهة أصيب بها وهو فتى وهى عرج فى إحدى ساقيه ترتب على إصابته فى بعض مغامراته من سهم رمى به ، ومن ثم كانت تسميته بتيمورلنك (أو تيمور الأعرج) . وظهر تيمور فى ميدان الحرب منذ سنة ١٣٥٨ م حيث أرسله « كورجان » صاحب جاكاتاى على رأس جيش من الفرسان ليغزو خراسان . ولما قتل كورجان وثب إلى الملك تغلق تيمور صاحب كشغر وهو من ولد جنكيزخان واختار تيموراً لحكم بلاد ما وراء النهر ، وغدا تيمور فى الوقت نفسه عقب وفاة أبيه زعيما لقبيلة برلاص وقوى أمره وتألق طالعه . ولما توفى تغلق تيمور حل تيمورلنك فى الحكم مكانه ؛ وثارت بينه وبين صهره ومنافسه مدى حين معركة

شديدة على الحكم فهزمه وقتله ، واستولى على بلخ وتربع أخيراً على عرش سمرقند ، وبسط سلطانه على المملكة كلها (سنة ١٣٦٩ م) .

ومن ذلك التاريخ يبدأ تيمور حياة الغزو الباهر ، وتسير غزواته فى نفس الاتجاهات التاريخية التى سلكها أسلافه الغزاة التتار من قبل . وقد بلغت غزواته زهاء خمس وثلاثين غزوة استطاع خلالها أن يثخن فى الأمم والممالك المجاورة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، وأن يفتتح قطراً بعد قطر ، ويسحق مملكة بعد أخرى . وكانت فارس وهى دائماً مجاز التتار إلى الغرب فى مقدمة فتوحه ، وكانت حينما غزاها قد انحدرت إلى عمر الفوضى وانقسمت إلى ممالك وإمارات عدة ، فاجتاحها تيمور بسرعة وقضى على أعظم أمرائها الشاه منصور فى موقعة شيراز ، وتابع زحفه حتى الخليج الفارسى ؛ ثم غزا بغداد والجزيرة والقوقاز وأرمينية ، وغزا خوارزم فقاومه ملكها تقطامش مدى حين وخاض معه عدة معارك انتهت بهزيمته وسقوط مملكته فى يد الفاتح (سنة ١٣٩٥ م) .

وفى سنة ١٣٩٨ غزا تيمور الهند . وكان يومئذ قد جاوز الستين ولكنه كان يضطرم أبداً بشغف الفتح ، فاجتاحها بسرعة وأثخن فى بسائطها وخرب قواعدها واستولى على دهلى حاضرتها ؛ وتم بذلك افتتاحه لممالك آسيا الوسطى . وفى العام التالى أعنى فى سنة ١٣٩٩ خرج تيمور من سمرقند بجيشه الظافر لآخر مرة واخترق فارس ، ثم اتجه نحو بلاد الكرج وأرمينية ، وكانت هذه المنطقة مثار خلاف دائم بينه وبين بنى عثمان الذين بزغ نجمهم فى هاتيك الأقطار قبل ذلك بنحو مائة عام ، وكانوا يغيرون على تلك المنطقة من آن لآخر ، وكانت أملاك تيمور وبنى عثمان تلتقى هنالك عند أرضروم والفرات ؛ وزحف تيمور على سيواس وكان الترك العثمانيون قد احتلوها قبل ذلك بقليل واستولى عليها ، وبلغت هذه الأنباء سلطان الترك بايزيد الأول وهو معسكر بجيشه تحت أسوار قسطنطينية يحاصرها ، فلم يستطع شيئاً ، واخترق تيمور بلاد الأناضول وانحدر بجيشه جنوباً نحو الشام وهى يومئذ ولاية مصرية يقصد افتتاحها ،

ثم يفتتح مصر وبذلك يبسط سلطانه على الشرق الإسلامى كله ، ويحقق المشروع الذى عجز التتار عن تحقيقه منذ مائة وأربعين عاماً عندما هزموا على يد مصر فى عين جالوت سنة ١٢٦٠م .

وفى أوائل سنة ٨٠٣هـ (١٤٠٠م) اجتاح تيمور شمالى الشام دون مقاومة واستولى على مدينة حلب فى مناظر هائلة من السفك والتخريب (ربيع الأول) ، ثم اخترق الشام جنوباً إلى دمشق ؛ فروعت مصر لهذه الأنباء ، واضطرب البلاط أيما اضطراب ، وهرع ملك مصر الناصر فرج بجيوشه لملاقاة الفاتح التترى فوصل إلى دمشق فى جمادى الأولى وفى ركابه جمع من العلماء على رأسهم المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون نزيل مصر يومئذ . واشتبك جند مصر تواً مع جند الفاتح فى معارك محلية ثبت فيها المصريون ، وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين . ولكن خلافاً حدث فى معسكر السلطان وغادره بعض الأمراء خفية إلى مصر ، ونمى إلى السلطان أن مؤامرة دبرت لخلعه فترك دمشق لمصيرها وارتد مسرعاً فى صحبه إلى القاهرة . وعندئذ رأى جماعة العلماء والفقهاء أن يحاولوا إنقاذ المدينة بطلب الصلح والأمان من الفاتح ، وتولى ابن خلدون لقاء تيمور ومفاوضته بالنيابة عنهم ؛ ويصف لنا المؤرخ ذلك اللقاء الشهير فى « تعريفه » وصفاً شائقاً ويورد لنا ما وقع بينه وبين الفاتح من الأحاديث[1] . ووافق تيمور على تسلم دمشق ومنحها الأمان ، وندب ولده شاه ملك لاستلام المدينة وحكمها ، ولكنها لم تنج مع ذلك من عيثه وسفكه، فقد اقتحم جنده المدينة وصادروا أهلها وأوقعوا فيها السفك والتخريب والنهب مدى حين .

---

(١) راجع كتابى ابن خلدون ص ٨٠ — ٨٦ وراجع « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا » وهى الترجمة التى كتبها ابن خلدون لنفسه وفيها يعرفنا بنشأته وحوادث حياته وقد ذيل بها تاريخه (المجلد السابع). ولكن فصول التعريف المطبوعة فى نسخة بولاق تقف عند سنة ٧٩٧هـ. وقد زاد ابن خلدون بعد ذلك فى التعريف زيادة كبيرة تشتمل على حوادث حياته فى مصر حتى قبيل وفاته بقليل . (راجع نسخة التعريف المخطوطة المحفوظة بدار الكتب وراجع وصف هذه النسخة فى كتابى « ابن خلدون » ص ٦٩) وكذلك راجع وصف ابن عربشاه لهذا اللقاء الشهير بين المؤرخ والفاتح فى كتاب عجائب المقدور ص ١٠٢ .

بيد أنه كان من حسن الطالع أن مُكث تيمور بالشام لم يطل . ذلك أنه لم يمض سوى شهرين حتى وصلته الأنباء عن أهبة بايزيد سلطان الترك وحركاته ، فغادر الشام شرقاً إلى الفرات ، ثم سار شمالاً إلى بلاد الكرج وأشرف مرة أخرى على حدود مملكة « الروم » وهو الإسم الذى كان يطلق يومئذ على مملكة الترك العثمانيين .

وهنا تبدأ بين هذين العاهلين العظيمين وقائع تلك المعركة الحاسمة التى تسبغ عليها تفاصيلها لوناً من الخيال الساحر . فقد استقبل تيمور سفراء بايزيد وأنبهم على مسلك مليكهم ، وكتب إلى بايزيد رسالة يلومه فيها على حمايته لبعض الأمراء الذين خرجوا عليه ، ويفاخر بفتوحاته الباهرة وسلطانه الباذخ ، و يحذره من سطوته و بطشه ، و يتحداه فى عبارات جافة مثيرة ؛ فرد عليه بايزيد برسالته الشهيرة التى تذكرنا عباراتها وأسلوبها برسائل الملوك الأقدمين وعهد الأساطير ، وفيها يسخر من تيمور و ينتقص من قدره وقدر فتوحاته وغزواته ، و ينسب توفيقه فيها إلى غفلة الزمن و إلى ضآلة شأن خصومه ، ويحمل على وسائله فى الحرب والسياسة ، و يرميه بالعدوان والغدر ، و يرمى جنده ومواطنيه التتار بالعجز والخور ، و ينوه بقوته ومقدرة جنده وعظيم استعداده للحرب والطعان . على أن ذلك لم يكن شيئاً بالقياس إلى ذلك التحدى الغريب الذى اختتم به بايزيد رسالته إلى تيمور ، إذ يقول له : « فإن لم تأت تكن زوجاتك طوالق ثلاثاً ، و إن قصدت بلادى وفررت عنك ولم أقاتلك فزوجاتى إذ ذاك طوالق ثلاثاً » ؛ ويعنى ابن عربشاه مؤرخ تيمور[1] عناية خاصة بذكر محتويات الرسائل التى تبادلها الملكان ، ويقول لنا إن تيموراً حينما وقف على هذا هذا القسم الغريب الذى يلقيه بايزيد فى وجهه ثارت نفسه غضباً « لأن ذكر النساء عندهم من العيوب ، وأكبر الذنوب » فكيف بهذه الإشارة المثيرة إلى نساء الفاتح وحليلاته .

وهكذا اعتزم العاهلان أن يخوض كلاهما ذلك النضال الذى يشهره كلاهما فى وجه

---

(١) فى كتابه عجائب المقدور فى أخبار تيمور .



تیمـــورلنك

الآخر ، فبادر تيمور إلى الزحف فى جيشه الزاخر شرقاً نحو هضاب الأناضول ونفذ إلى مملكة « الروم » واستولى فى طريقه على مدينة قيصرية ، ثم اخترق نهر هاليس وطوق مدينة أنقرة التى شاء القدر أن تغدو فى عصرنا مهداً لبعث تركيا الجديدة . وكان بايزيد قد استطاع فى الفترة التى قضاها تيمور فى الشام أن يجمع قواته وأن يستكمل أهبته . وتقول لنا الروايات المعاصرة إن جيش التتار بلغ يومئذ زهاء ثمانمائة ألف مقاتل ، وأن جيش الترك بلغ زهاء أربعمائة ألف ، وهى أرقام هائلة فى تلك العصور وخصوصاً إذا ذكرنا ما كانت عليه وسائل النقل والتموين يومئذ من نقص وصعوبة . وكان الجيش العثمانى يتفوق على جيش التتار بنظامه ويمتاز بالأخص بفرق الأنكشارية الجريئة ، ولكن جيش التتار فضلاً عن تفوقه العددى كان متفوقاً فى روحه المعنوى . وكانت هذه الانتصارات المتوالية التى أحرزها التتار ما بين السند والأناضول قد بثت فى نفوس الغزاة روحاً من الثقة الوطيدة . ولما وقف بايزيد على مقدم تيمور هرع إلى لقائه فى ظاهر أنقرة ، وكان هذا اللقاء الشهير بين الجيشين العظيمين فى يوم الأربعاء ٢٧ ذى الحجة سنة ٨٠٤[١] (أواخر يولية سنة ١٤٠٢) وأبدى بايزيد وجيشه شجاعة فائقة ، ولكن سرعان ما دب الوهن إلى قواته وانسحب بعضها من الميدان بإغراء تيمور ووعوده ، وعندئذ حلت النكبة بالترك فمزقت قواتهم وسحقت ، وأسر بايزيد وعدة من ولده وآله ، وفر ولده سليمان فى بقية من الجيش صوب بورصة (بروصة) عاصمة المملكة ، وطارد الغزاة العدو المنهزم واستولوا على كوتاهية ، ثم زحف محمد سلطان حفيد تيمور إلى بورصة فاستولى عليها وعاث فيها ونهب القصور الملكية وسبى حريم السلطان ، وفر سليمان إلى الشاطئ الأوربى حاملاً ما استطاع إنقاذه من خزائن أبيه ، وسحق ملك بنى عثمان تحت سنابك الغزاة مدى حين .

وهنا تعرض للجدل صفحة غريبة فى تلك المأساة الشهيرة . فإن ابن عربشاه

---

(١) عجائب المقدور (مصر) ص ١٣٩ .

مؤرخ تيمور يقول لنا : إن الفاتح التترى سجن بايزيد فى قفص من الحديد كما فعل قيصر مع سابور ملك فارس(١) ، وهى رواية عربية تؤيدها كثير من الروايات اليونانية واللاتينية المعاصرة . ومما يجدر ذكره أن ابن عربشاه مؤرخ معاصر كتب روايته بعد وفاة تيمور بنحو ثلاثين عاماً فقط واستقى مادته فى سمرقند ذاتها حيث عاش مع أسرته ردحاً من الزمن ، وسمع أقوال رواتها وشيوخها المعاصرين لتيمور ، واستقاها كذلك من بلاط السلطان محمد الأول بن السلطان بايزيد حيث قضى فى خدمته حيناً وتقلد لديه ديوان الإنشاء ، واطلع على جميع المصادر والوثائق التركية والفارسية التى تتعلق بسيرة تيمور وغزواته ، وإذن فليس فيما يبدو فى روايته عن القفص الحديدى الذى سجن فيه بايزيد ما يدعو إلى الريب .

وهنالك رواية أخرى يقدمها إلينا مؤرخ فارسى معاصر هو شرف الدين على الذى كتب سيرة تيمور بعد وفاته بعشرين عاماً تحقيقا لرغبة حفيده السلطان إبراهيم، وخلاصة هذه الرواية هى أن تيموراً حينما علم بأن السلطان الأسير (بايزيد) قد اقتيد إلى خيمته نهض للقائه ، وأكرم وفادته ، وأجلسه إلى جانبه ، وعتب عليه فى لفظ رقيق ، وحمله تبعة ما وقع ، ووعده بصون حياته وشرفه ، فتأثر بايزيد لكرم خصمه وأعرب عن ندمه وقبل منه خلعته ، وعانق ولده موسى الذى أسر معه والدمع ينهمر من عينيه ، وأنزل السلطان وباقى الأمراء منزلا حسنا . ولما وصلت زوج السلطان وهى الملكة رسبنا اليونانية وابنتها وباقى حريم السلطان حملن إليه مكرمات معززات . ولما دعى السلطان إلى الحفلة التى أقامها تيمور ابتهاجاً بالظفر وضع تيمور التاج على رأسه ، ووعده برد عرشه وملكه ؛ ولكن السلطان الأسير ما لبث أن توفى لحزن

(١) عجائب المقدور (مصر) ص١٣٩ . ويشير ابن عربشاه هنا إلى أسطورة تاريخية مشهورة ينسب وقوعها إلى عصر الأمبراطور جاليريوس فاليريوس الرومانى . وذلك أنه حارب الفرس فى جبال أرمينية سنة ٢٩٧ م وانتصر عليهم وأسر قائدهم وهو ملك أو أمير يدعى سابور ، فيقال إنه وضع أسيره فى جلد بقرة ، ويقال أيضاً إنه وضعه فى قفص من الحديد . وتنسب بعض الروايات هذه الواقعة إلى الأمبراطور مكسميان . وتروى هذه القصة على سبيل الأسطورة . وليس لها ما يؤيدها فى التاريخ .

تيمور عليه وأمر بدفنه بين مظاهر التكريم فى المدفن الذى أقامه لنفسه فى بورصه، واختار ولده موسى ملكا على الأناضول.

على أن هذه الرواية لا ترجح فى نظرنا رواية ابن عربشاه فهى على ما يلوح رواية قصر أريد بها تمجيد ذكرى الفاتح وعرض مناقبه. ويحاول المؤرخ الفيلسوف جيبون أن يوفق بين الروايتين فيقول لنا: إن رواية شرف الدين فى شقها الأول صحيحة لا ريب فيها، فقد استقبل تيمور أسيره برقة وأكرم وفادته، ولكن بايزيد قابل كرمه بكبرياء وغطرسة، فاستاء تيمور واعتزم أن يقود أسيره فى ركبه الظافر إلى سمرقند؛ ولكن محاولة بذلت لإنقاذ الملك الأسير حملت تيمورا على التشدد فى معاملته فزج به إلى قفص من الحديد اقتداء بما قرأه فى بعض السير القديمة من أن سابورا أحد ملوك الفرس وقع فى قبضة قيصر فسجنه فى قفص من الحديد[١]؛ ويضيف ابن عربشاه إلى ذلك أن تيموراً أراد أن يذهب فى التنكيل بأسيره إلى ذروة القسوة والمهانة فدعاه ذات يوم إلى حفل أنس عقده؛ ولما جاء دور الشراب التفت بايزيد فإذا بنسائه وجواريه يتولين سقاية الفاتح وصحبه أمام عينى مليكهن، وقد كان ذلك من تيمور مبالغة فى الانتقام من خصمه والتشفى منه لما اجترأ عليه من ذكر النساء فى مكاتبته[٢]. وقد كان لهذه الآلام المادية والمعنوية أثرها فى الملك الأسير فلم تمض على محنته بضعة أشهر حتى توفى فى غمر الحسرات والأسى، وكانت وفاته فى مارس سنة ١٤٠٣ م (٨٠٦هـ).

وكانت هذه أيضاً آخر غزوات تيمور وآخر انتصاراته، فلم يمض قليل على عوده فى جيشه المظفر إلى مملكته حتى أدركه المرض، وكان يتأهب لغزو الصين فلم يستطع تحقيق مشروعه، وتوفى بالحمى وهو معسكر بجيشه على ضفاف سيحون فى بلدة أوترار فى ١٧ فبراير سنة ١٤٠٥ م (شعبان ٨٠٧ هـ) وقد أربى على السبعين من عمره، فخط

(١) جيبون Decline and Fall of the Roman Empire الفصل الخامس والستون.

(٢) عجائب المقدور ص ١٣٣

جثمانه بالمسك وماء الورد ، ولف فى لفائف من الكتان ووضع فى تابوت من الأبنوس، وحمل إلى سمرقند حيث دفن فى مدفنه الذى ما يزال قائماً حتى يومنا .

ويقدم إلينا ابن عربشاه بأسلوبه البليغ المسجع عن تيمور صورة قوية ولكن قاتمة ، ويحمل عليه فى كثير من المواطن ، ويصف لنا ما أنزله الفاتح بمختلف الشعوب والأمم من رائع الويل والسفك فى قصيدة طويلة يقول فيها :

ناهيك منهم فتنــة كالأبحر الظلمـا تمور
الأعرج الدجال من قصم الجماجم والظهور
داخ البـــلاد ودارها نوائب الدنيـا تدور
أملى له الله الحليم فزاد عدواً فى فجور
فاجتاح كل الخلق من عرب ومن عجم القطور
ومحا الصدى ودعا الردى بحسامه الباغى يمور
أفنى الملوك وكل ذى شرف وذى علم وقور
وسعى إلى إطفاء نو ر الله والدين الطهور
فأباح إهراق الدماء من كل صبار شكور
وأحل سبي المحصـ نات المؤمنات من الخدور
طوراً يرى نكث العهو د وتارة نقض النذور
أبقت عليـه فعاله لعناً على مر العصور

ومع ذلك فلسنا نجد أبلغ من قلم ابن عربشاه نفسه فى وصف شخصية تيمور وخلاله ؛ فهو يفرد فى خاتمة كتابه فصلاً لذكر « صفات تيمور البديعة » يصف لنا فيه شخص الفاتح ويشيد بمواهبه الخارقة فى هذه العبارات الشعرية : « وكان تيمور طويل النجاد ، رفيع العماد ، ذا قامة شاهقة كأنه من بقايا العمالقة ، عظيم الجبهة والرأس ، شديد القوة والبأس ، عجيب التكوين ، أبيض اللون مشرباً بالحمرة غير مشوب بسمرة ، مستكمل البنية ، مسترسل اللحية ، أشل أعرج اليمناوين ، عيناه كشمعتين غير زهراوين ،

جهير الصوت لا يهاب الموت قد ناهز الثمانين . كأنه صخرة صماء ، لا يحب المزاح والكذب ، ولا يستميله اللهو واللعب ، يعجبه الصدق ولو كان فيه مايسوؤه ، لا يجرى فى مجلسه شىء من الكلام الفاحش ولا سفك دم ، ولا من سبى ونهب وغارة وهتك حرم . مقداماً شجاعاً يحب الشجعان والأبطال ، ذا أفكار مصيبة وفراسات عجيبة ، وسعد فائق وجد موافق ، وعزم بالثبات ناطق ولدى الخطوب صادق ، محجاجاً دراكاً للمحة وللمزة ، مرتاضاً مستيقظاً لرمزه ، يفرق بين المحق والمبطل بفراسته ، و يدرك الناصح والغاش بدربة درايته ، و يكاد يهدى بأفكاره النجم الثاقب ، و يستقيم بآراء فراسته ؛ فريد الطور بعيد الغور ، لا يدرك لبحر تفكيره قعر ، ولا يسلك فى طور تدبيره سهل ولا وعر » .
ثم يعمد المؤرخ بعد ذلك إلى تحليل نفسية الفاتح و بوادر عظمته ومخاره ، وإلى إحصاء مآثره بلهجة المؤرخ الصادق الذى لم تفقده عواطفه الشخصية ميزة الناقد الحق[1] .

و يعتبر تيمورلنك من أعظم فاتحى التاريخ ، وقد بسط حكمه على عدة ممالك وأقطار مترامية الأطراف ، تمتد من تركستان إلى الأناضول والشام غرباً ، ومن أواسط آسيا إلى نهر الكنج والخليج الفارسى جنوباً ، ووصلت فتوحاته إلى نهر الفولجا وشواطىء البوسفور . بيد أن وفاته كانت نذيراً بانحلال هذا الصرح الشامخ الذى شاده بعبقريته وظفره وسعد طالعه .

(١) راجع هذا الفصل فى عجائب المقدور ص ٢٠٩ وما بعدها .

الكتاب الثاني

تراجم أندلسية

موسى بن نصير

(١٩ — ٩٧ هـ) ، (٦٤٠ — ٧١٥ م)

كان فتح العرب لمصر فى سنة عشرين من الهجرة فاتحة اندفاع الغزوات الإسلامية نحو الغرب ؛ وبالرغم من صعوبة الفتوحات الغربية ، ووعورة الصحارى والهضاب التى جازها الغزاة ، وعنف المقاومة التى لقوها ، فإنه لم يمض زهاء نصف قرن آخر حتى شملت الغزوات الإسلامية شمال إفريقية بأسره ؛ ولم تأت أواخر القرن الأول للهجرة حتى كانت فتوح الخلافة تمتد من مصر غرباً إلى المحيط الأطلنطى . وتمت هذه الفتوح العظيمة وتوطدت ، على يد نخبة من أكابر القادة الذين تعاقبوا فى حكم إفريقية مثل عقبة بن نافع الفهرى ، وزهير بن قيس البلوى ، وحسان بن ثابت الغسانى ، وموسى بن نصير اللخمى .

وكان موسى بن نصير من أعظم الزعماء والقادة الذين وجهتهم الخلافة إلى الغرب . وكان أول فاتح مسلم قدر أن يجوز الإسلام على يديه إلى القارة الأوربية . ومع أن الرواية تتبع حياته بإفاضة منذ ولايته لحكم إفريقية ، فإنها لا تقدم إلينا عن نشأته وحياته الأولى تفاصيل شافية شأن كثير من زعماء الإسلام فى القرن الأول . على أننا نعرف مع ذلك أنه من التابعين لصحابة الرسول ، وأنه ولد فى سنة ١٩ هـ فى خلافة أمير المؤمنين عمر فى قرية من قرى الجزيرة أو بوادى القرى فى شمالى الحجاز على قول آخر . وأما عن نسبته فتقول الرواية إنه ينتسب إلى بكر بن وائل ، وإن أباه نصيراً كان ممن سباهم خالد بن الوليد فى موقعة عين التمر . وقيل إنه ينتسب بطريق الولاء إلى بنى لخم وإن أباه نصيراً كان على حرس معاوية بن أبى سفيان ، ثم كان وصيفاً لعبد العزيز بن مروان فأعتقه . وأما عن حياة موسى الأولى فلا تذكر

الرواية سوى القليل . وكل ما نعرفه منها أنه تقلب فى بعض المناصب العسكرية والإدارية الهامة قبل أن يعهد إليه بحكم إفريقية ، وقاد بعض الحملات البحرية فى عصر معاوية بن أبى سفيان ، وغزا قبرس وغيرها من الجزر القريبة ؛ وفى بعض الروايات أن عبد الملك بن مروان حينما ولّى أخاه بشراً على البصرة فى سنة ٧٣ هـ وكان يتولى قيادة الجند بمصر ، ندب موسى بن نصير لمعاونته ، وكان يومئذ بمصر فى خدمة أميرها عبد العزيز بن مروان صديقه وحاميه ، وأن موسى لبث وزيراً ومستشاراً لبشر أيام ولايته للبصرة ، فلما ولى الحجاج حكم العراق فى سنة ٧٥ هـ اتهم موسى باختلاس أموال البصرة ، ولم ينقذه من بطش الحجاج ، سوى تدخل عبد العزيز ابن مروان ، وكان قد وفد يومئذ على الشام بأموال مصر ، وهرع إليه موسى مستجيراً به؛ ثم عاد موسى إلى مصر مع عبد العزيز بن مروان ، ولبث بها يتبوأ لديه أسمى مراتب النفوذ والثقة حتى عين حاكماً لإفريقية[١] .

وتختلف الرواية فى تاريخ تولية موسى بن نصير لإفريقية اختلافاً بينا ، فالبعض يقول إنها كانت فى سنة ٧٨ أو ٧٩هـ فى عهد عبد الملك ، ويقول البعض الآخر إنها كانت فى سنة ٨٦ أو سنة ٨٩ هـ فى عهد ابنه الوليد . ونحن نؤثر الأخذ بالقول الثانى لأنه أكثر اتفاقاً مع سير الحوادث فى إفريقية ، ولأن معظم الروايات مجمعة على أن حسان بن النعمان والى إفريقية قبل موسى بن نصير لبث على ولايتها حتى وفاة عبد الملك . وقد توفى عبد الملك فى شوال سنة ٨٦ هـ . وكان عبد العزيز بن مروان أمير مصر قد توفى قبل ذلك سنة ٨٥هـ وندب عبد الملك ولده عبد الله أميراً على مصر فدخلها فى جمادى الآخرة سنة ٨٦هـ قبيل وفاة أبيه بأشهر قلائل ، وعزل عبد الله حسان

---

(١) وردت هذه التفاصيل فى كتاب « الإمامه والسياسة » المنسوب لابن قتيبة . ومع أن هذه النسبة يحيط بها كثير من الشك فان الكتاب يتضمن كثيراً من الأخبار والوثائق والتفاصيل المفيدة عن رجالات الإسلام فى عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية . (راجع الكتاب المشار إليه ج ٢ ص ٦٠ وما بعدها) .

ابن النعمان عن ولاية إفريقية ، واختار لولايتها موسى بن نصير . وكانت إفريقية تابعة يومئذ لمصر فى شئون الحكم والإدارة ، وكانت ولاية موسى لإفريقية على أرجح الأقوال فى سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) .

وكان موسى بن نصير قد اختبر مفاوز إفريقية من قبل ، وسيره عبد العزيز ابن مروان فى سنة ٨٤ هـ إلى برقة فافتتح درنة وسبى من أهلها جموعاً غفيرة . وكان البربر لا يزالون على اضطرابهم وتمردهم يتحينون الفرصة للثورة كلما سنحت . فما كاد موسى يلى الحكم حتى نزعوا إلى الثورة شأنهم عند كل تغيير فى الحكم . ولكنهم أخطأوا تقدير عزم الحاكم الجديد وصرامته . وسرعان ما سحقت الثورة فى كل ناحية ، ومزق موسى جموع الثوار بيد من حديد ، ودوخ هوارة وزناتة وكتامة وصنهاجة وغيرها من القبائل البربرية القوية ، ثم سار إلى طنجة وهى آخر معقل اعتصم به الثوار ، فافتتحها وولى عليها جندياً عظيماً هو طارق بن زياد الليثى ، وأثخن فى مفاوز المغرب الأقصى وطهرها من العصاة والمتآمرين ، واستمال إليه وجوه القبائل ، وحشد فى جيشه آلافاً من البربر المسلمين ، واهتم بنشر الإسلام بين القبائل ، فذاع بينهم ذيوعاً كبيراً .

وكان الروم (الرومان) بعد أن أخفقوا فى الحرب البرية ، ويئسوا من إنقاذ إفريقية قد لجأوا إلى غزو الثغور ونهبها . فابتنى موسى داراً عظيمة للصناعة على مقربة من أطلال قرطاجنة ، وأنشأ أسطولاً لحماية الثغور . وكان العرب قد بدأوا غزواتهم البحرية الأولى فى تلك المياه قبل ذلك بعدة أعوام ، وسير موسى ولده عبد الله فى السفن إلى الجزر القريبة فغزا جزائر البليار (الجزائر الشرقية) وكانت يومئذ من أملاك ملك اسبانيا القوطى ، وافتتح منها ميورقة ومنورقة . وسارت حملات بحرية أخرى إلى صقلية وسردانية وعاثت فى ثغورها . وهكذا بسط العرب سلطانهم على شمال إفريقية كله فى البر والبحر ، ولم يبق من ثغوره بيد النصارى بعد افتتاح طنجة سوى ثغر سبتة ، وكانت يومئذ من أملاك اسبانيا ويحكمها أمير من القوط يدعى

الـكونت يوليان . وكانت قد استطاعت لمنعتها الطبيعية ويقظة حاكمها ، أن ترد هجمات العرب ؛ وكان موسى يتوق إلى افتتاح هـذا المعقل الحصين . بيد أن مشاريعه فى الفتح لم تكن لتقف عند سبتة ، بل كانت تجاوزها إلى ما وراء البحر من الممالك والأمم المجهولة .

٢

كانت مملـكة القوط فى الضفة الأخرى من المضيق قد هرمت وأصابها الوهن ؛ وكانت وقت أن اقترب العرب من شواطئها فريسة الاضطراب والفوضى تمزقها الخلافات الداخلية ، ويقتتل حول عرشها الزعماء المتنافسون . وكان على عرش القوط يومئذ ملك شديد البأس والعزم هو رُدَريك أو لذريق حسبما تسميه الرواية العربية ، ولـكنه كان يواجه خطر الانتقاض المستمر ؛ ولم يكن ملكاً شرعياً ولـكنه استطاع أن ينتزع العرش من صاحبه الشرعى الملك وتيزا (أو غيطشة) عقب ثورة دبّرها بمؤازرة رجال الدين والأشراف الناقمين . ومع أنه استطاع أن يوطّد سلطانه مدى حين فإن الخطر لبث مع ذلك محدقاً بعرشه وملـكه ، وكان اقتراب العرب من شواطئ الجزيرة يحفز خصومه إلى التماس الوسيلة لإسقاطه وسحقه . وكان الـكونت يوليان من أنصار الحكم القديم ومن خصوم الحكم الجديد يخشى عواقبه على مركزه وسلطانه ؛ وكان غنياً شديد البأس وافر الأتباع والجند ، بعيداً عن سلطة العرش ، يقبض على مفتاح إسبانيا بحكمه لسبتة والمضيق ؛ فتفاهم معه أبناء الملك السابق وتيزا وباقى الزعماء الخوارج ؛ واستقر الرأى على الاستنجاد بالعرب جيران الـكونت . وهذا هو التعليل التاريخى للتحالف الذى عقد بين الـكونت يوليان وبين موسى بن نصير وانتهى بفتح العرب لإسبانيا . ولـكن الرواية — والرواية الإسلامية بنوع خاص — تقدم إلينا تعليلاً آخر ، فتقول إن يوليان كان يعمل بدافع الانتقام الشخصى أيضاً . فقد كانت له ابنة رائعة الحسن تدعى فلورندا أرسلها إلى بلاط طليطلة جرياً على رسوم ذلك العصر لتتلقى ما يليق بها من التربية بين كرائم العقائل والفرسان ؛ فاستهوى جمالها

الفتان قلب ردريك فاغتصبها وانتهك عفافها . وعلم الكونت بذلك فاستقدم ابنته إليه وأقسم بالانتقام من ردريك ونزعه ذلك العرش الذى اغتصبه . فلما نشبت الحرب الأهلية بين ردريك وخصومه والتجأ هؤلاء الخصوم إليه رأى الفرصة سانحة للعمل ، ولم ير خيراً من الاستنصار بالعرب ومعاونتهم على فتح اسبانيا .

والرواية الإسلامية تجمع على قبول هذه القصة والأخذ بها مع أخذها فى الوقت نفسه بالعوامل السياسية التى ذكرناها[1] . ولكن الرواية النصرانية تتردد فى قبولها ، وتنفيها الرواية الإسبانية وتعتبرها أسطورة صاغتها الأغانى والقصص القديمة ، بل يذهب بعض مؤرخى إسبانيا إلى انكار شخصية الكونت يوليان نفسه ، ويعتبرها شخصية خيالية . وإنكار الرواية الإسبانية لمثل هذه القصة معقول تحدوه بواعث لا تخفى ، فهى تأبى الاعتراف بواقعة تسجل خيانة الوطن على نفر من زعماء اسبانيا الأوائل وهى خيانة أدت إلى أن افتتح العرب إسبانيا ، وحكمها الإسلام قروناً طويلة . على أننا لا نجد فى القصة ما يحمل على إنكارها ، فوقوعها ممكن معقول فى مثل الظروف التى كانت تجوزها إسبانيا يومئذ ، من خلاف فى الرأى وتنازع على السلطة ، وانحلال أخلاقى واجتماعى . ولسنا من جهة أخرى نلمس فى الرواية الإسلامية أثر الاختراع فليس ثمة ما يدعو إليه . وليس من المعقول أن تخترع الرواية الإسلامية قصة مفادها أن المسلمين لقوا فى فتح اسبانيا معاونة لم يتوقعوها ، وأن هذه المعاونة ذللت لهم سبل الفتح ، ولعلهم بدونها ما أقدموا عليه أو تعرضوا للفشل . هذا إلى أن بعض الروايات

---

(١) يتناقل المؤرخون المسلمون هذه القصة منذ أقدم العصور ، فنراها فى رواية ابن عبد الحكم الذى كتب تاريخ فتح الأندلس بعد وقوعه بنحو قرن فقط (أخبار مصر وفتوحها ص ٢٠٥) وذكرها ابن حيان مؤرخ الأندلس (رواية نفح الطيب ج ١ ص ١٠٩) وابن القوطية (افتتاح الأندلس ص ٨) وصاحب «أخبار مجموعة» (ص٥) وكذلك ابن الأثير وابن خلدون . . إلخ . ولكن ينكرها ماريانا وماسدى أعظم مؤرخى اسبانيا . ويذهب بعضهم مثل مونتخار إلى إنكار شخصية الكونت يوليان ذاته وإلى أن القصة إنما هى اختراع عربى صاغته الأساطير والأناشيد المعاصرة ، ولكن يأخذ بالقصة ويؤمن بها بعض المستشرقين ولا سيما العلامة دوزى راجع :
Histoire des Musulmans d'Espagne (1932) V.I. p 271

الإسبانية القديمة ومنها ما هو قريب من الفتح يشترك مع الرواية الإسلامية فى ذكر قصة فلورندا والأخذ بها .

وعلى أى حال فقد اتصل الكونت يوليان بموسى بن نصير ودعاه إلى فتح اسبانيا . ووقعت المفاوضة بينهما فى ذلك المشروع الخطير . والظاهر أن يوليان وحلفاءه لم يقصدوا بهذه الدعوة أن يفتتح العرب اسبانيا لأنفسهم ، وأن يستأثروا بملكها ، بل كان مشروعهم على الأرجح أن يستعينوا بالعرب على محاربة المغتصب ، و إسقاطه واستخلاص الملك لأنفسهم . والظاهر أيضاً أن موسى وعدهم من جانبه بأنه لا يقصد سوى مجد الفتح وكسب الغنائم ، وأنه لا ينوى إنشاء دولة مسلمة وراء البحر ، وهذا تصوير للمشروع يؤيده منطق الحوادث وتشير إليه الرواية العربية[(١)] . وكان موسى قد وقف على أحوال اسبانيا وخصبها وغناها واستطاع أن يقدر أهمية هذا الفتح وجليل مغانمه ومزاياه ؛ فلما وقف من يوليان وحلفائه على ما تعانيه إسبانيا من أسباب التفرق والضعف ، وأيقن أنه يستطيع الاعتماد على عون يوليان وحلفائه ، كتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بأمر المشروع ويستأذنه فى الفتح ؛ فكتب إليه الوليد أن يختبره بالسرايا وألا يزج بالمسلمين إلى أهوال البحر . ومع أن المسلمين كانوا قد تمرسوا فى أهوال البحر واختبروا هذه المياه بالحملات والفتوح الناجحة ، فإن موسى لم يسعه إلا النزول على نصح الخليفة . فجهز خمسمائة مقاتل بينهم مائة فارس ، بقيادة ضابط من البربر يدعى طريف بن مالك ، فعبروا البحر من سبتة فى أربع سفن قدمها يوليان ، إلى البقعة المقابلة التى سميت جزيرة طريف باسم قائد الحملة وذلك فى رمضان سنة إحدى وتسعين (يولية سنة ٧١٠ م) . وجاست الحملة خلال الجزيرة الخضراء ، بإرشاد يوليان ، وأصابت كثيراً من الغنائم ، واستقبلت بالإكرام والترحيب ، وشهدت

---

(١) راجع « أخبار مجموعة » (ص ٨) والمقرى فى نفح الطيب (ج ١ص ١٢٠) وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٤) وراجع أيضاً Dozy; ibid; V. I. p 271; Gibbon: Roman Empire Chap L I.

كثيراً من مظاهر خصب الجزيرة وغناها ، ثم عادت سالمة ، وسرّ موسى بنتائج الحملة واستبشر بالفوز وجدّ فى أهبة الفتح .

وفى شهر رجب سنة ٩٢ هـ (أبريل سنة ٧١١ م) جهّز موسى جيشاً من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثى حاكم طنجة وقد اختُلف فى أصل فاتح الأندلس ونسبته ، فقيل هو فارسى من همذان و إنه كان مولى لموسى بن نصير ، وقيل إنه ينتمى إلى بطن من بطون البربر وهو الأرجح(١) . وكان طارق جندياً عظيماً ظهر فى غزوات المغرب بفائق شجاعته و براعته . وقدّر موسى خلاله ومواهبه فاختاره لحكم طنجة وما حولها وهى يومئذ أخطر مناطق المغرب وأشدها اضطراماً ؛ ثم اختاره لفتح الأندلس . وعبر طارق البحر بجيشه فى سفن يوليان ونزل بالبقعة التى ما زالت تحمل اسمه إلى اليوم أعنى جبل طارق ؛ وذلك فى يوم الإثنين الخامس من رجب سنة ٩٢ هـ (٢٧ أبريل سنة ٧١١م) واخترق الجزيرة الخضراء بإرشاد يوليان ، ثم زحف على ولاية الجزيرة واحتل قلاعها بعد أن هزم جموعاً من القوط تصدت لوقفه . و بادر حكام الولايات المجاورة بإخطار بلاط طليطلة بالخطر الداهم . وكان رُذَريك أو لذريق يشتغل يومئذ بمحاربة بعض الخوارج فى الولايات الشمالية فأسرع إلى طليطلة شاعراً بفداحة الخطر الذى يهدد عرشه وأمته ، و بعث قائده إديكو لردّ العدو حتى يستكمل أهبته ، ولكن طارقاً هزمه وتابع سيره صوب عاصمة القوط .

وكان ردريك أميراً شجاعاً وافر العزم ولكنه كان طاغية يثير بقسوته وصرامته حوله كثيراً من البغضاء والخصومات . وكان حزب العرش القديم الذى يلتف حول أبناء الملك السابق وتيزا (غيطشه) يتربص به و يعمل على إسقاطه ؛ وكانت ريح الخلاف والتفرق تعصف بالشعب القوطى كله . ومع ذلك فقد اعتصم القوط حين الخطر الداهم بنوع من الاتحاد . واستطاع ردريك أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة ، وحشد هؤلاء رجالهم وأتباعهم . واجتمع للقوط يومئذ جيش

---

(١) راجع البيان المغرب (ج٢ ص٦) ، ونزهة المشتاق للشريف الإدريسى (طبع رومة ص١٧٩)

ضخم تقدره بعض الروايات بمائة ألف . وسار ردريك نحو الجنوب للقاء المسلمين ، وكان طارق قد وقف على أمر هذه الأهبة العظيمة ، فكتب إلى موسى يستنجد به فأمدّه بخمسة آلاف مقاتل ، فبلغ المسلمون اثنتى عشرة ألفاً ، وانضم إليهم يوليان فى قوة من صحبه وأتباعه .

كان القوط أضعاف المسلمين ، وكان المسلمون يقاتلون فى أرض العدوّ فى هضاب ووهاد صعبة ؛ ولكن قائدهم الجرىء تقدّم إلى الموقعة الحاسمة بعزم . فكان اللقاء بين الجيشين فى سهل شريش على مقربة من قادس شمالى مدينة شدونة أو شذونة (مدينا سيدونيا) على ضفاف نهر وادى لكة (الجوادليت) وذلك فى الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٩٢ هـ (١٩ يولية سنة ٧١١م) ؛ وفرق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة لم تقع فيها بينهما سوى مصادمات بسيطة . وفى اليوم الرابع التحم الجيشان ونشبت بينهما معركة عامة ، واستمر القتال بينهما على أشدّه مدى أربعة أيام ؛ وكان الجيش القوطى بالرغم من ضخامته مفكك العرى منحل العزائم ؛ وكانت الخيانة تعصف بصفوفه وقيادته ؛ فلم يأت اليوم الرابع حتى كتب النصر للمسلمين وهزم القوط شرّ هزيمة ، ومزّقوا شرّ ممزق وغرق ملكهم ردريك فى النهر .

كانت شذونة موقعة الفصل وفيها دالت دولة القوط وغنم الإسلام ملك إسبانيا . وساد الرعب على القوط فاعتصموا بالحصون والجبال وتفرّقوا فى السهل، وذاعت أنباء النصر فى أنحاء العدوة فعبر إلى الجيش الفاتح سيل من المجاهدين والمغامرين من العرب والبربر . وزحف طارق بجيشه شمالاً صوب طليطلة عاصمة المملكة القوطية ؛ وسارت حملات متفرقة إلى قرطبة وغرناطة وألبيرة ومالقة ومرسية ، فافتتحت كلها تباعاً . وبعد أن استولى طارق على طليطلة تابع زحفه شمالاً واخترق قشتالة وليون حتى إسترقة ، ثم عبر جبال أستورياس (أشتوريش)[١] واستمر فى سيره حتى أشرف على

---

(١) Asturias .

شواطئ بسكونيه[1] . ثم عاد إلى طليطلة حيث تلقى أوامر موسى بوقف الفتح . وكان ذلك لعام فقط من عبوره إلى إسبانيا .

٣

وقد اختلف المؤرخون فى تعليل البواعث التى حملت موسى على أن يصدر أوامره إلى طارق بوقف الفتح . فقيل إن موسى لم يكن يتوقع كل هذا الفوز لقائده ومولاه . فلما وقف على مبلغ فوزه وتقدمه تحول إعجابه به إلى حسد وغيرة ، وخشى أن يُنسب ذلك الفتح العظيم إليه دونه ؛ فكتب إليه ألا يتقدم حتى يلحق به ويتوعده بالعقاب إذا توغل بغير إذنه[2] . ولكن البعض يعلل غضب موسى على طارق ولحاقه به بأن طارقاً خالف الأوامر الصادرة إليه بألا يتجاوز قرطبة أو حيث تقع هزيمة القوط[3] . وهذا تعليل حسن يتفق مع ما أثر عن موسى من الحيطة والحذر ، فقد ينكب المسلمون إذا توغلوا فى أراض ومسالك مجهولة . على أن ذلك لا يمنع من أن يكون للغيرة أثرها أيضاً فى نفس موسى وفى تصرفه . وعلى أى حال فقد عبر موسى البحر إلى إسبانيا فى عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر فى سفن صنعها خصيصاً لذلك، يحفزه شغف الفتح بالرغم من شيخوخته، ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان وذلك فى رمضان سنة ثلاث وتسعين (يونية سنة ٧١٢ م) . وبدأ موسى زحفه بالاستيلاء على مدينة شذونة . ثم سار إلى قرمونة وهى يومئذ من أمنع معاقل الأندلس فاستولى عليها بمعاونة يوليان وأصحابه ؛ وقصد بعدئذ إلى إشبيلية أعظم قواعد الأندلس فافتتحها بعد أن حاصرها شهراً . ثم سار إلى ماردة وحاصرها مدة وقُتل تحت أسوارها جماعة كبيرة من المسلمين ولكنها انتهت بالتسليم فى رمضان أو شوال سنة أربع وتسعين على أن تكون أموال الغائبين والكنائس غنيمة للمسلمين دية لمن

---

(١) Biscaya .

(٢) هذه هى رواية ابن عبد الحكم (ص ٢٠٧) وصاحب أخبار مجموعة (ص ١٠) وابن القوطية (ص ٩) وابن الأثير (٤ ص ٢١٥) وابن خلدون (٤ ص ١١٧) وابن حيان مؤرخ الأندلس (نفح الطيب ١ ص ١٢٦)

(٣) البيان المغرب (ج ٢ ص ١٥ و ١٨) .

قتل منهم . وقصد موسى بعدئذ إلى طليطلة فالتقى بطارق على مقربة منها وكان قد سار إلى استقباله، فأنبه موسى و بالغ فى إهانته، وزجه مصفداً إلى ظلام السجن بتهمه الخروج والعصيان ؛ وقيل بل همّ بقتله أيضاً . ولكنه مالبث أن عفا عنه وردّه إلى منصبه(١) . ووضع الإثنان خطة مشتركة لافتتاح ما بقى من اسبانيا . ثم زحفا نحو الشمال الشرقى واخترقا أراضى الثغر الأعلى (أراجون) وافتتحا سرقسطة وطركونة و برشلونه وغيرها من المدن والمعاقل . ثم افترق الفاتحان فسار طارق غربا ليغزو جلِّيقية وليتمّ القضاء على فلول القوط . وسار موسى شمالا فاخترق جبال البرنيه(٢) . وغزا ولاية لانجدوك أو سبتمانيا وكانت عندئذ تابعة لملوك القوط، واستولى على قرقشونة وأربونة(٣). ثم نفذ إلى مملكة الفرنج وغزا وادى الرون حتى مدينة ليون(٤) . فاضطرب أمراء الفرنج وأخذوا فى الأهبة لردّ الغزاة، و يقال إنّ المعارك الأولى بين العرب والفرنج وقعت فى تلك السهول على مقربة من أربونة .

وهنا فكر القائد الجرئ فى أن يخترق بجيشه جميع أوربا غازياً ، وأن يصل إلى الشام من طريق قسطنطينية ، وأن يفتتح فى طريقه أمم النصرانية والفرنجة كلها . وهو مايجمله ابن خلدون فيما يأتى: «وجمع أن يأتى المشرق على القسطنطينية و يتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس ويخوض ما بينهما من بلاد الأعاجم وأمم النصرانية مجاهداً فيهم مستلحماً لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة»(٥) . ولم يك ثمة ما يحول دون تنفيذ هذا المشروع الضخم . فقد كان الإسلام يومئذ فى ذروة الفتوة والبأس ؛ وكانت جيوشه تفتتح أرجاء العالم القديم ظافرة أينما حلّت ؛ وكانت أمم الغرب من جهة أخرى

(١) ابن عبد الحكم (ص ٢٠٨ و ٢١٠) وابن الأثير (٤ ص٢١٥) والمقرى (١ص١٢٧) وابن خلكان عن الحميدى (٢ ص١٨١). وذكر الطبرى أن طارقا ترضى موسى فرضى عنه وقبل عذره (القسم الثانى ص١٢٥٤ فى حوادث سنة ٩٣) .

(٢) فى الجغرافية العربية جبال البرت أو البرتات . وسماها بعضهم « البرانس » .

(٣) قرقشونة Carcassone ، وأربونة Arbonne

(٤) يسمى الرون فى الجغرافية العربية بنهر رذونة . وتسمى ليون لوطون أو لوذون .

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ .

يسودها انحلال شامل ؛ وكانت مملكة الفرنج وهى أضخمها وأقواها يمزقها الخلاف والتفرّق ؛ وقد بدأ العرب فعلا بغزوها ؛ ولم يتح للنصرانية بعد أن توحّد جهودها لردّ الإسلام ، ولم تقم فيها زعامة قوية تجمع كلمتها وتنظّم قواها فى جبهة دفاعية موحدة ؛ ولم تكن أوربا فى ذلك الحين سوى مزيج مضطرب من الأمم والقبائل المتنافرة تمزقها المطامع والأهواء المختلفة ؛ فكان الإسلام الظافر يستطيع غزوها وفتحها ؛ ولم يكن حلماً و إغراقاً ما تصوّره موسى بن نصير واعتزمه . ولكن سياسة التردد والإحجام التى اتبعها بلاط دمشق نحو الفتوح الغربية ، والتى كادت تحول دون فتح اسبانيا ، أودت بذلك المشروع البديع ؛ و بعث الوليد بن عبد الملك إلى موسى يحذره من التوغّل بالمسلمين فى دروب مجهولة ، و يأمره بالعود . فارتدّ موسى مرغماً آسفاً ، ولكنه تمهل فى العود حتى يتمّ إخضاع معاقل جلِّيقية التى اعتصمت بها فلول القوط ؛ فاخترق جليقية واستولى على معظم قلاعها ومعاقلها ومزق كل قوة تصدّت لمقاومته ، ولم يبق من النصارى سوى شراذم يسيرة التفت حول زعيم يدعى بلاجيوس أو بلايو ولجأت إلى قاصية جليقية. و بينما كان موسى يتأهب للحاق بها وسحقها ، إذ وصله كتاب آخر من دمشق يستدعيه وطارقاً و يأمرهما بتعجيل العود . ولعل أقوى البواعث التى حملت الوليد على هذا الاستدعاء ما بلغه من خلاف موسى وطارق ، وخوفه أن ينتهى هـذا الخلاف بتفرّق كلمة المسلمين ونكبتهم فى تلك الأقطار الجديدة المجهولة التى افتتحوها ؛ أو لعله خوف الوليد أن يفكر موسى بما عرف من طمعه ودهائه فى الاستقلال بذلك الملك الجديد النائى ؛ ور بما كان من هذه البواعث أيضاً ما بلغ الوليد عن وفرة الأموال التى جمعت من الأندلس ، وخوفه أن تمتدّ إليها يد التبديد . ومهما كانت البواعث التى دفعت الوليد إلى استدعاء فاتحى الأندلس فلا ريب أنه كان خطراً على مستقبل الإسلام فى اسبانيا . ذلك أن هذه الجموع الضئيلة من القوط التى نجت من المطاردة واعتصمت بصخور جليقية ، لم تلبث أن نمت وقويت وكانت منشأ المملكة النصرانية التى قامت فى الشمال ولبثت قروناً تكافح دولة الإسلام فى اسبانيا حتى انتهت بالقضاء عليها .

وفى ذلك الحين كان عبد العزيز بن موسى قد افتتح المنطقة الواقعة بين مالقة وبلنسية ، وأخمد الثورة فى إشبيلية وباجة ، وافتتح لبلة وغيرها من المعاقل والحصون ، وأبدى فى معاملة البلاد المفتوحة كثيراً من الرفق والاعتدال والتسامح .

واتخذ موسى أهبته للعود إلى دمشق نزولاً على أوامر الخليفة فنظم حكومة الأندلس قبل رحيله وجعل حاضرتها إشبيلية لاتصالها بالبحر وكانت حاضرتها أيام الرومان ، واختار لولايتها ولده عبد العزيز ، واستخلف على المغرب الأقصى ولده عبد الملك ، وعلى إفريقية ولده الأكبر عبد الله . وفى شهر ذى الحجة سنة خمس وتسعين (أغسطس سنة ٧١٥ م) قفل راجعاً إلى المشرق وطارق معه ، وفى ركبه من نفيس التحف والغنائم ما لا يقدر ولا يوصف ومن أشراف السبى عدد عظيم[١] .

٤

وتختلف الرواية العربية فى مصير موسى بن نصير وفى أمر لقائه بالخليفة . فقيل إنه وصل إلى دمشق قبل وفاة الوليد بن عبد الملك وقدم إليه الأخماس والغنائم فأكرمه وأحسن إجازته ، وقيل بل وصل عقب وفاة الوليد وارتقاء أخيه سليمان بن عبد الملك عرش الخلافة وإن سليمان غضب عليه ونكبه[٢] . على أنه يمكن الجمع بين القولين أعنى وفود موسى على الوليد ثم نكبته على يد سليمان . وهنالك ما يرجح لدينا أن موسى لحق بالوليد قبيل وفاته ؛ فإن ابن عبد الحكم وهو أقدم رواة فتوح الأندلس يقول لنا إن موسى بن نصير مر بمدينة الفسطاط فى أواخر شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين فى طريقه إلى دمشق ، وقد توفى الوليد فى منتصف جمادى الآخرة

---

(١) تفيض الرواية الإسلامية فى وصف ما أصابه المسلمون فى الأندلس من الغنائم الجليلة ، وتقول إن موسى بن نصير حمل إلى دمشق من التحف والذخائر من الذهب والدر والياقوت والزبرجد ما لا يقدر ؛ وأما السبايا فيقال إنه حمل منها ثلاثين ألفاً بينهم مئات من أشراف القوط ومن أجمل شبابهم ذكوراً وإناثاً (راجع ابن القوطية ص ١٠ . والمقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ١٣٠ و ١٣٥ و ١٣٦).

(٢) يقول بالرواية الأولى ابن عبد الحكم (فتوح مصر ص ٢١١) وصاحب كتاب الإمامة والسياسة (ج ٢ ص ٩٣ و ٩٤) وابن خلكان (٢ ص ١١٨) ويقول بالرواية الثانية ابن الأثير (٤ ص ٢١٤) وابن خلدون (٤ ص ١١٨) .

من هذا العام أعنى بعد وصول موسى إلى مصر بأكثر من شهرين ونصف[١] . ولما كانت مسافة السفر بين الفسطاط ودمشق لا تجاوز فى هذا العصر بضعة أسابيع فإنه كان ثمة من الوقت ما يكفى لمقدم موسى على الوليد قبل وفاته . على أن الرواية من جهة أخرى تكاد تجمع على أن سليمان سخط على فاتح الأندلس ونكبه . ذلك أن موسى وصل إلى الشام والوليد فى مرض موته فكتب إليه سليمان ولى العهد يومئذ أن يتمهل فى السير حتى يموت الوليد ، فيقدم عليه فى صدر خلافته بما يحمل من جليل التحف والغنائم . فأبى موسى وجدّ فى السير حتى قدم والوليد حىّ فسلم إليه الأخماس والغنائم ؛ ثم توفى الوليد بعد ذلك بقليل مستخلفاً سليمان على كرسى الخلافة ؛ فغضب سليمان على موسى ، وزاد فى سخطه عليه ما قدمه فى حقه طارق ومغيث فاتح قرطبة من مختلف التهم[٢] . وفى الحال أمر بعزله واتهمه وبنيه باختلاس أموال عظيمة وقضى عليه بردها ، وبالغ فى إهانته وتعذيبه ، ثم ألقاه إلى ظلام السجن . واستجار موسى بصديقه يزيد بن المهلب من نقمة سليمان ، وكان من أخصائه وذوى النفوذ لديه ، فألح يزيد على سليمان حتى عفا عنه وأعفاه من الغرامة الفادحة التى قضى بها عليه ، ويقال بل عفا عن حياته ولم يعفه من الغرامة ، وإن موسى استطاع أن يفتدى نفسه ببعض ما فرض عليه[٣] . وتبالغ بعض الروايات فتقول إن سليمان أصر على معاقبة موسى وتغريمه حتى كان يطوف أحياء العرب مع حراسه ليسأل بعض المال ليفتدى نفسه ، وإنه لبث على تلك الحال حتى توفى فى منتهى البؤس والذلة بوادى القرى فى شمال الحجاز حيث ينسب مولده وذلك فى سنة سبع وتسعين . بيد أنه لا يوجد ما يبرر الأخذ بمثل هذه الرواية المغرقة . والصحيح المعول عليه أن سليمان عفا عن موسى وأقاله من محنته ، وتوفى موسى بعد ذلك بقليل فى سنة سبع وتسعين .

---

(١) فتوح مصر ص ٢١١ .

(٢) راجع أخبار مجموعة ص٢٩ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٥ . ومغيث هو مولى الوليد بن عبد الملك ويعرف بمغيث الرومى وقد اشترك فى فتح الأندلس وافتتح قرطبة وغيرها .

(٣) ابن عبد الحكم فى فتوح مصر ص ٢١٣ ، والبلاذرى فى فتوح البلدان ص ٢٣٠

وقيل فى سنة تسع وتسعين وهو فى نحو الثمانين من عمره[١] .

هذا ما تردده الرواية الإسلامية عن مصير موسى بن نصير . ومهما كان من الأمر فإن فاتح الأندلس لم يلق الجزاء الحق بل غمط حقه وفضله أشنع غمط ؛ وأبدت الخلافة بهذا التصرف أنها لم تقدّر فى هذا الموطن للبطولة قدرها ؛ ولم تقدّر عظمة الفتح الباهر الذى غنمته على يد رجلها وقائدها .

وكان موسى بن نصير من أعظم رجال الحرب والإدارة المسلمين فى القرن الأول للهجرة ، وقد ظهرت براعته الإدارية فى جميع المناصب التى تقلدها كما ظهرت براعته الحربية فى جميع الحملات البرية والبحرية التى قادها . على أن هذه المواهب تبدو بنوع خاص فى حكمه لإفريقية حيث كانت الحكومة الإسلامية تواجه شعباً شديد المراس يضطرم بعوامل الانتقاض والفتنة . وإذا كان موسى قد أبدى فى معالجة الموقف وإخماد الفتنة كثيراً من الحزم والشدة فقد أبدى فى الوقت نفسه خبرة فائقة بنفسية الشعوب وبراعة فى سياستها وقيادتها . وكان موسى فوق مواهبه الإدارية والعسكرية غزير العلم والأدب ، متمكناً من الحديث والفقه ، عالما بالفلك مجيداً للنثر والنظم . غير أن هذه المواهب والخلال البديعة كانت تشوبها نزعة قوية إلى الطغيان والبطش وشهوة الحقد والحسد[٢] .

وإلى موسى بن نصير يرجع الفضل الأول فى عبور الإسلام إلى أوربا من الغرب وقيام دولته فيها بعد أن أخفقت محاولته فى العبور إليها من المشرق عن طريق قسطنطينية ؛ ومع أن سيل الفتح الإسلامى رد غير بعيد فى سهول بلاط الشهداء فإن الإسلام استطاع مع ذلك أن يستقر فى إسبانيا قروناً يبهر بضوء مدنيته الزاهرة جميع الأمم الأوربية فى العصور الوسطى .

---

(١) يراجع فى مصير موسى بن نصير فتوح مصر (ص ٢١٢) وأخبار مجموعة (ص ٢٩ و ٣٠) وابن القوطية (ص ١٠ — ١١) وابن الأثير (٤ ص ٢١٦) ونفح الطيب (١ص١٣٤ و ١٣٥) وابن خلكان (٢ ص ١٨١) والإمامة والسياسة (٢ ص ٧٦ و ٨٩ و ٩٣ و٩٦)

(٢) نفح الطيب (١ ص ١٣٣ و ١٣٤)

صقر قريش

(١١٣ — ١٧٢ هـ) ، (٧٣١ — ٧٨٧ م)

صقر قريش — هكذا سماه أبو جعفر المنصور وهكذا وصفه . وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام سليل بنى أمية بناة الإمبراطورية الإسلامية الكبرى ، وفرع تلك الدوحة العلياء التى حاول بنو العباس أن يجتثوها بعد تقويضها ، من أصولها ، وأن يزهقوا بالقتل والمطاردة كل فروعها . ولكن شاء القدر أن يفلت بعض نبتها من يد الجناة ، وأن تزكو لتستعيد أصلها الراسخ فى أرض أخرى . وكان ممن نجا من نبتها فتى من ولد هشام بن عبد الملك ، هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، نجا من القتل بأعجوبة ، وأفلت من يد الجناة فى ظروف مؤثرة ، وجاز مصر وقفار إفريقية والمغرب إلى الأندلس فبث فيها دعوته ودعوة أسرته . واستطاع بعد حوادث وخطوب جمة أن ينتزع إمارة الأندلس من يد المتغلب عليها ، وأن يقيم ملك بنى أمية فى ذلك القطر النائى ، بعض تراثهم الذاهب .

ولسنا نحاول فى هـذا الفصل أن نأتى على حياة عبد الرحمن بن معاوية ونشأته الأولى ، ولا أن نستعرض حوادث المأساة التى خاضها منذ استطاع الفرار من المشرق فى سنة ١٣٣ هـ حتى استطاع أن يعيد ملك أسرته بالأندلس بعد ذلك بخمسة أعوام (سنة ١٣٨ هـ) فذلك ما عنينا به بإفاضة فى كتابنا «دولة الإسلام فى الأندلس»[١] . ولكنا نريد أن نقدم هنا فقط صورة من خلال تلك الشخصية القوية التى تكاد تبدو فى روعتها من أبطال الأساطير القديمة : أن يطمح فتى شريد يعمل القتل الذريع فى أسرته وعصبته ، وحيد ليس له أنصار ولا صحب ، إلى افتتاح قطر عظيم زاخر بالقادة

(١) راجع كتابى المذكور ص ١٥٠ إلى ص ٢٠٢ .

والجند ، وأن يخضع ذلك القطر فى حروب لا يخمد أوارها ، وسيول من الدماء لا تنقطع ، وأن يقيم مُلْكاً على بركان مضطرم من الثورة والمؤامرة والجريمة — تلك هى قصة عبد الرحمن الأموى . وهى قصة عجيبة ليست من حوادث التاريخ العادية ، ولا يقدم إلينا التاريخ كثيراً من أمثالها . ولكن عبد الرحمن كان بطبيعة نشأته ، وطبيعة الظروف التى كونته ، هو الرجل الذى هيأه القدر لكى يخوض هذه الغمار الخطرة . ومن جهة أخرى فقد كانت حوادث الجزيرة (إسبانيا) وظروفها وتمزق شملها ، وتطلعها إلى زعامة قوية توحد كلمتها وقواها ، وتسير بها نحو السلام والأمن ، تفسح مجال الأمل والطموح والعمل لذهن جرىء مغامر كذهن عبد الرحمن ، لم يكن عليه أن يخاطر بأكثر من تلك الحياة التى كادت تزهق غير مرة ، وكان يحملها فى كفه أمام مطارديه خلال القفر الشاسع ؛ ولكن الغنم كان عظيما : كان ملكا بأسره ؛ وكان بعث أسرة هوت ، ومجد عريض دثر .

كان سقوط الدولة الأموية بالمشرق مأساة من أروع مآسى التاريخ الإسلامى . وكان قيامها بالأندلس بعد ذلك حادثاً من أعظم حوادث التاريخ الإسلامى . وكانت تلك الشخصية التى قامت على كاهلها دعائم الدولة الجديدة من أعظم شخصيات الحرب والسياسة . كان عبد الرحمن الأموى يتمتع بعبقرية ممتازة وخلال نادرة ؛ وكان قرين جده العظيم معاوية بن أبى سفيان ، ينشئ مثله دولة ولكن فى ظروف أسوأ من ظروفه ، ويهزم الخطوب والحوادث ، ويسحق خصومه فى كل ميدان ، ويؤثر مثله السياسة العملية على كل اعتبار ، ويذهب تواً إلى الغاية بأى الوسائل . وكانت المحنة المروعة التى نزلت بأسرته ، والظروف العصيبة التى يجوزها ، والخصومات والأحقاد المستعرة التى تكتنفه ، تحمل خلاله القوية إلى ذروة التطرف ، وتدفعه إلى التذرع بأشد الوسائل ؛ فنراه يقرن وافر العزم بفيض من الجرأة والمغامرة واحتقار الخطر ، ويقرن وافر الدهاء بنزوع إلى الخيانة والغدر والفتك ، ويقرن وافر الحزم والصرامة بنزوع إلى القمع الذريع ، ويذهب فى الانتقام إلى حدود مروعة من القسوة . ومع ذلك

فقد كان عبد الرحمن وفياً يحفظ العهد والصنيعة لمن أخلص له ، و إن لم يحجم لأقل ريب أو بادرة عن الفتك بأعز أصدقائه وأقرب الناس إليه . وتلك خلال واضحة بارزة فى كثير من حوادث حياته ونضاله ، فنراه فى مواطن كثيرة يلجأ إلى الغدر والاغتيال للتخلص من خصومه ؛ ونراه فى مواطن كثيرة يزهق دون تردد كل من وقع فى يده من خصومه أو من ولدهم وصحبهم الأبرياء . بل نراه يذهب فى صرامته وقسوته إلى البطش بكثير من أصدقائه الذين آزروه يوم مقدمه شريداً لاعصبة له[١]؛ ثم هو لا يحجم أخيراً عن الفتك بذو يه وخاصة أسرته حينما يأتمرون به فيقتل ابنى أخيه وابن عمه[٢] . وهكذا نراه يلجأ فى تحقيق أغراضه و يعمل على تأييد سلطانه وسحق الخارجين عليه بأروع الأساليب والوسائل .

كان عبد الرحمن نموذج الحاكم القوى ، والطاغية المطلق الذى يحيط سلطانه الخطر بسياج من البطش والسفك . كان مكيافيلّيا بكل معانى الكلمة[٣] . ولكن تلك الخلال المثيرة التى كان يحفزها و يذكيها الخطر الداهم ، كانت عنوان قوته ووسيلة ظفره . يقول العلامة دوزى : « لقد دفع عبد الرحمن ثمن ظفره غالياً . ذلك الطاغية الغادر الصارم المنتقم الذى لا تأخذه رأفة ، ولم يبق ثمة زعيم عربى أو بربرى يجرؤ على مواجهته صراحة ، ولكن الجميع كانوا يلعنونه خفية . ولم يك ثمة رجل خير يرغب فى خدمته » ثم يقول : « كان همّ عبد الرحمن الدائم أن يذل العرب والبربر إلى الطاعة ، وأن يرغمهم على التعود على النظام والسلام . وقد لجأ فى تحقيق هذه الغاية إلى جميع الوسائل التى لجأ إليها ملوك القرن الخامس عشر لسحق الاقطاع . بيد أنه كان مصيراً محزناً ذلك الذى دفع القدر إليه إسبانيا . وكانت مهمة محزنة تلك التى كان على خلفاء عبد الرحمن أن يضطلعوا بها . ذلك أن الطريق الذى رسمه لهم مؤسس

---

(١) كانت نكبة عبد الرحمن لمولاه وأوفى أنصاره « بدر » من أظهر هذه الحوادث .

(٢) أمر عبد الرحمن بقتل ابن أخيه عبد الله بن أبان بن هشام ، وابن أخيه المغيرة بن الوليد ابن هشام .

(٣) نسبة إلى مكيافيللى صاحب المذهب السياسى المشهور .

الأسرة كان طريق الطغيان يؤيده السيف . ولكن من الحق أن نقول إن ملكاً لا يستطيع أن يحكم العرب والبربر بغير هذه الوسيلة . وإذا كان العنف والطغيان فى ناحية ، ففى الناحية الأخرى يوجد الاضطراب والفوضى[١] » .

على أن عبد الرحمن كان إلى جانب هذه الصفات المثيره يتمتع بكثير من الخلال الباهرة وقد أجمل ابن حيّان مؤرخ الأندلس خلاله فى تلك العبارات القوية قال : « كان عبد الرحمن راجح الحلم ، راسخ العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، بريئاً من العجز ، سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه ، متصل الحركة ، لا يخلد إلى راحة ، ولايسكن إلى دعة ، ولا يكل الأمور إلى غيره ؛ ثم لاينفرد فى إبرامها برأيه ؛ شجاعا مقداما بعيد الغور شديد الحذر قليل الطمأنينة ، بليغاً مفوهاً شاعراً . محسناً سمحاً طلق اللسان » . وهذا التصوير الرائع الذى يقدمه إلينا ابن حيان عن خلال تلك الشخصية الممتازة ، إنما هو صورة بارزة من صور العظمة والبطولة توضحها فى جملتها وفى تفاصيلها حياة عبد الرحمن فى جميع أدوارها .

ويشبهه ابن حيان أيضاً بأبى جعفر المنصور فى قوة الشكيمة ومضاء العزم ، وفى القسوة والصرامة والاجتراء على الكبائر .

وإذا كانت هذه الصفات والخلال القوية المثيرة معاً لا تحمل على الحب فانها تحمل على الإعجاب بلا ريب . بل إن المتأمل ليشعر بعطف خاص نحو هذه الشخصية الفريدة . ويرجع ذلك بلا ريب إلى تلك الحياة المؤثرة التى خاض عبد الرحمن غمارها، وتلك المحن الأليمة التى نزلت بأسرته، وتلك الجهود الفادحة التى بذلها لاسترداد حقه وحق أسرته فى الحياة والرياسة وكانت هذه الحياة المؤثرة وما انتهت إليه من النتائج الباهرة تحمل ألد خصوم عبد الرحمن على احترامه والإعجاب به . حتى لقد سماه أبو جعفر المنصور «صقر قريش» فى حديث طريف تنقله الرواية . وهو أن المنصور قال يوماً لبعض أصحابه : « من صقر قريش من الملوك ؟» قالوا: « أمير المؤمنين الذى

(١) Hist. des Musulmans d'Espagne V. I. p 245 - 48

راض الملك ، وسكن الزلازل ، وحسم الأدواء » قال «ما صنعتم شيئاً » قالوا «فمعاوية» قال : « ولا هذا » قالوا : « فعبدالملك بن مروان » قال : « لا » قالوا : « فمن يا أمير المؤمنين؟ »قال : «صقر قريش عبدالرحمن بن معاوية الذى تخلص بكيده من سنن الأسنة وظباة السيوف ؛ يعبر القفر ويركب البحر ، حتى دخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه ، فمصر الأمصار وجند الأجناد ودوّن الدواوين ، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره وشدة شكيمته . إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذلل له صعبه . وعبد الملك ببيعه أبرم عقدها . وأمير المؤمنين بطلب عزته واجتماع شيعته . وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد برأيه مستصحب لعزمه. وطد الخلافة بالأندلس وافتتح الثغور وقتل المارقين وأزال الجبابرة الثائرين » [١] .

هذا وأما عن شخصه فقد وُصف عبد الرحمن بأنه كان مديد القامة نحيف القوام أعور أخشم [٢] وله ضفيرتان ، أصهب [٣] خفيف العارضين له خال فى وجهه .

***

وكان عبد الرحمن الأموى جواداً جم البساطة والتواضع يؤثر لبس البياض ويعتم به ؛ يصلى بالناس أيام الجمع والأعياد ، ويحضر الجنائز ويصلى عليها ، ويعود المرضى ، ويزور الناس ويخاطبهم ؛ ولم ينحرف عن هذه الديمقراطية إلا فى أواخر عهده حينما نصحه بعض خاصته بالترفع استبقاء لهيبة الملك والحذر من بوادر العامة وشر المتآمرين . وقد كان حتى فى نقش ختمه « عبـد الرحمن بقضاء الله راض » و « بالله يثق عبد الرحمن وبه يعتصم » ما ينم عن ذلك التواضع الجم ؛ ومع أنه قضى على الدعوة العباسية بالأندلس ، فإنه لم يحاول لأسباب عملية وسياسية أن يتخذ سمة الخلافة قط رغم كونه سليل أقيالها ، ولم يرتب لنفسه شيئاً من رسوم الملك الباذخة ، واكتفى بلقب الأمير أو الإمام ، ولم يتخذ لقب المظفر أو الناصر أو المنصور وما إليها .

(١) أخبار مجموعة ص ١١٦ و ١١٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٦١ و٦٢ .
(٢) هو الذى فقد حاسة الشم .
(٣) من الصهبة وهى احمرار الشعر .

ويعرف فى الرواية الإسلامية بعبد الرحمن الداخل لأنه أول من دخل الأندلس من أمراء بنى أمية وأقام حكمهم بها .

بقى أن نتحدث عن ناحية أخرى من خلال عبد الرحمن البديعة هى الناحية الأدبية . كان عبد الرحمن شاعراً جيد النظم ، ناثراً فصيح البيان قوى الترسل ، عالماً بالشريعة ؛ وكان يعتبر من أعظم بنى مروان مكانة فى البلاغة والأدب . وقد انتهت إلينا بعض رسائله وفيها تبدو قوة بيانه وفيض بلاغته ؛ ومن ذلك رسالة موجزة وجهها إلى سليمان بن يقظان حين خروجه عليه : « أما بعد فدعنى من معارض المعاذير والتعسف عن جادة الطريق ،لتمدن يداً إلى والطاعة الاعتصام بحبل الجماعة ، أو لألقين بنانها على رصف المعصية نكالا بما قدمت يداك وما الله بظلام للعبيد ». ومنها رسائله إلى بدر مولاه يزجره لتمرده وانحرافه ، وقد كتب إليه حين ألحف فى طلب العفو والمنة : «لتعلم أنك لم تزل بمقتك حتى ثقلت على العين طلعتك ، ثم زدت إلى أن ثقل على السمع كلامك ، ثم زدت إلى إن ثقل على النفس جوارك وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر . . . » . ومن أقواله لأصحابه يوم موقعة المسارة التى غنم فيها ملك الأندلس يشحذ هممهم للقتال : « هذا اليوم هو أس ما يبنى عليه : إما ذل الدهر وإما عز الدهر ، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون»(١) .

وإنتهى إلينا من نظم عبد الرحمن ما يدل على قوة شاعريته ورقة خياله . فمن ذلك قوله حين بلغه أن بعض أصدقائه يمن عليه وأنه لولاه لما صار الملك إليه .

سعدى وحزمى والمهند والقنا ومقادر بلغت وحال حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم ألا يغفلوا أيروم تدبير البرية غافل ؟
ويقول قوم سعده لا عقله خير السعادة ما حماها العاقل

ومن قوله فى الشوق إلى ربوع الشام ، وهو رقيق مؤثر :

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٨ — ٧٠ حيث يورد عدة من رسائل عبد الرحمن وأقواله .

أيهـــــا الركب الميمم أرضى أقر من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما علمت بأرض وفؤادى ومالكيـــه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنـــــا وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفراق علينـا فعسى باجتماعنا سوف يقضى

ورأى بروض الرصافة نخلة منفردة فأثار منظرها فى نفسه ذكرى وشجناً وأنشد :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى وطول التنائى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن من صوبها الذى يسح و يستمرئ السماكين بالوبل

أسد بن الفرات

فاتح صقلية

(توفى سنة ٢١٣ هـ — ٨٢٨ م)

كان البحر الأبيض المتوسط الذى يضطرم اليوم بمنافسات الدول البحرية الكبرى فى القرن التاسع الميلادى مسرحا لأطماع ومنافسات من نوع آخر ، وكانت الأساطيل الإسلامية قد بدأت منذ أوائل عصر الفتح تجوس خلال هذا البحر وتغزو جزره الغنيه . وكان المسلمون قد استولوا فعلاً على قبرس ورودس و إقريطش (كريت) فى شرقيه ،والجزائر الشرقية (البليار) فى غربيه ، فلم تبق أمامهم سوى الجزر الثلاث الكبرى أعنى صقلية وسردانية وكورسيكا. وكانت هذه الجزر الغنية الضخمة تجذب أنظار الغزاة فتقصدها الحملات البحرية من وقت إلى آخر من ثغور إفريقية والأندلس، وهى حملات كان ينقصها الطابع الرسمى فى أغلب الأحيان، وتتألف عادة من جماعة من المجاهدين أو النواتية المغامرين ، الذين يجوسون خلال البحر فى طلب الغنائم والكسب على النحو الذى اتبعه فيما بعد كثير من أبطال البحر الإنجليز والإسبان فى القرن السادس عشر .

وكانت صقلية تقع فى هذا العصر تحت سيادة الدولة البيزنطية (الدولة الرومانية الشرقية) الفعلية ، أما سردانية كورسيكا فكانتا تقعان تحت سيادتها الإسمية ؛ وكان الفرنج قد استولوا على كورسيكا وانضوت سردانية تحت لوائهم تطلب حمايتهم من الغزاة ؛ ومع أن السرايا البحرية الإسلامية غزت هذه الجزر غير مرة أيام الدولة الأموية فإنها لم تستطع فيما يظهر أن تقوم فيها بفتوحات ثابته نظراً لضخامتها و بعدها عن شواطئ إفريقية والأندلس ، ونظراً لصغر الحملات المسيرة وطبيعة هذه الغزوات ذاتها .

ولكن الأساطيل الإسلامية بلغت فى أوائل القرن الثالث الهجرى (القرن التاسع) فى إفريقية والأندلس مبلغاً من القوة والاستعداد لم تبلغه من قبل ؛ وحملت غزوات النورمانيين لشواطئ الأندلس حكومة قرطبة على الاهتمام بإنشاء أسطول قوى يستطيع حماية الثغور ورد العدوان بمثله . وكذلك عنيت حكومة الأغالبة فى إفريقية (تونس) بالأسطول عناية كبيرة حماية لشواطئها من عدوان البيزنطيين والبيزيين والفرنج . وكان الأغالبة فى الواقع يسيطرون من تونس على المياه الوسطى للبحر الأبيض وهى التى غدت فى وقت ما مسرح منافسة شديدة بين إيطاليا وانجلترا ؛ وكانت أساطيلهم القوية تجوس خلال هذه المياه فيما بين قلوريه (كلابريا) حتى سردانية وكورسيكا وتشحن فى شواطئها . وكانت صقلية نظراً لضخامتها وغناها وقربها من الشاطئ الإفريقى تبدو لهم بالأخص غنيمة قيمة هينة ، فكانت مطمح أنظارهم ومرتقب آمالهم ، يتحينون الفرص لافتتاحها وامتلاكها .

***

ولافتتاح المسلمين لصقلية قصة طريفة تبدو بما يمازجها من الظروف والوقائع الغريبة كأنها قطعة من الخيال الشائق . وكان افتتاحها على يد شخصية عجيبة تبدو لأول وهلة كأنها من شخصيات الأساطير الأولى . فأما قصة الفتح حسبما تقدمها إلينا الرواية البيزنطية فخلاصتها أن سيداً من أشراف صقلية يدعى يوفميوس (ويسميه العرب فيمى) هام بحب راهبة حسناء واختطفها من ديرها ،فقضى الإمبراطور وهو يومئذ ميخائيل الثانى بجدع أنفه عقاباً له على جرمه،ففر إلى بلدة سرقوسة (سيرا كوز) وثار فى عصبته وأنصاره على حاكم الجزيرة البيزنطى ، وانتزع سرقوسة و بسط حكمه عليها ، ولكنه لم يستطع أن يحتفظ بها طويلا إذ هاجمته جند الإمبراطور وهزمته واستردت المدينة منه . ففر إلى إفريقية (تونس) واستغاث بأميرها وهو يومئذ زيادة الله بن الأغلب ، ودعاه إلى فتح صقلية ووصف له غناها وسهولة الاستيلاء عليها . ولكن الرواية الإسلامية لا تذكر لنا شيئاً عن قصة الراهبة المخطوفة وتقول

لنا فقط إن الإمبراطور غضب على فيمى وهو مقدم أسطوله ، وأمر بالقبض عليه و إنه ثار فى شيعته واستولى على سرقوسة ، ثم انتزعها منه زعيم آخر يدعى بلاطة ، فسار فيمى فى سفنه إلى إفريقية ، واستنجد بأميرها زيادة الله، فاستجاب إلى دعوته ، وسير أسطوله إلى صقلية لافتتاحها بقيادة قاضى القيروان أسد بن الفرات، وذلك فى ربيع الأول سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) .

فمن هو هذا القاضى الجرىء الذى يقود الأساطيل إلى الفتح ؟ إن مانعلمه عن حياته الأولى لا يفسر لنا كيف تحول هذا الفقيه العالم إلى أمير من أمراء البحر . فقد نشأ فى مهاد العلم لا مهاد الجندية ، وتخصص فى دراسة الفقه ، ورحل فى طلب العلم إلى المشرق ، وأخذ عن الإمام مالك فى المدينة ، وصنف كتاب « الأسدية » فى الفقه المالكى ، ثم ولى قضاء القيروان فى عهد إبراهيم بن الأغلب مؤسس الأسرة ، واستمر إلى جانبه أيام الفتنة مخلصاً للأسرة ، معرضاً عن إغراء خصومها . وفى عهد ولده زيادة الله عين فوق منصبه ، شيخاً للفتيا أو قاضياً للقضاة ، وكان شديد الزهد والتقى والورع[1] . ومع أننا لا نعرف تاريخ مولده بالتحقيق فإنه كان بلا ريب وقت ندبه لقيادة حملة صقلية شيخاً قد يربى على الستين من عمره إذا ذكرنا أن أستاذه الإمام مالك توفى سنة ١٧٩هـ . على أن هنالك ما يدل على أنه ندب لقيادة البحر قبل ذلك وأنه قام فى هذه المياه بغزوات بحرية سابقة ؛ فقد ذكر لنا ابن خلدون أن أسد بن الفرات شيخ الفتيا فتح قوصرة أيام زيادة الله بن الأغلب[2] ؛ وفى التواريخ الأفرنجية أن المسلمين قاموا منذ سنة ٨٠٦ م بعدة غزوات فى كورسيكا وفى سنة ٨١٠ م ظفروا بالاستيلاء عليها مؤقتاً حتى أخرجتهم منها جنود كارل الأكبر (شارلمان) ولكنهم عادوا إلى غزوها بعد ذلك مراراً . ونستطيع أن نستخلص من

(١) معجم ياقوت فى كلمة «صقلية» . وابن الأثير (مصر) ج ١ ص١١٣ . وابن خلدون ج ٤ ص ١٩٦

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢١١ . وقوصرة حسبا يبدو من وصف ياقوت هى جزيرة بنتلاريا الصغيرة الواقعة بين تونس وصقلية (راجع معجم ياقوت ج ٧ ص ١٨٣)

تقارب الرواية والتاريخ أن فتح كورسيكا المؤقت ربما كان أيضاً على يد أسد ابن الفرات ، ولكن فى عهد عبدالله بن الأغلب لا فى عهد أخيه وخلفه زيادة الله .

***

وخرج القاضى وأمير البحر الشيخ ، على رأس سفنه مرة أخرى فى ربيع الأول سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) كما قدمنا متجهاً صوب صقلية . ولم تكن هذه الحملة من السرايا الصغيرة بل كانت فيما يظهر أعظم حملة بحرية قادها أسد بن الفرات ؛ فقد كانت حسبما تذكر الرواية الإسلامية تضم تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل غير النواتية[١] ، وكان معظم هؤلاء من الجند المجاهدين فى سبيل الله . ورست السفن الإسلامية فى ثغر مازر (أو مازارا) فى طرف الجزيرة الغربى وهو أقرب ثغورها إلى إفريقية ؛ ونفذ أسد بن الفرات على رأس جنده إلى شرقى الجزيرة لمقاتلة الروم الذين اجتمعوا حول زعيمهم بلاطة ، واجتمع إليه فيمى وأنصاره ليقاتلوا معه ، فأبى وطلب إليهم أن يعتزلوهم إذ « لا حاجة بهم إلى الانتصار بالكفار » ؛ ونشبت بين الفريقين معركة شديدة هزم فيها الروم ، وغنم المسلمون كل أسلابهم ودوابهم ، وفر بلاطة إلى قلورية وقتل هنالك بيد بعض خصومه . واستولى أسد بن الفرات على عدة حصون داخل الجزيرة ، ووصل فى سيره إلى قلعة الكرات المنيعة (كلتاچيرونى) وقد احتشدت فيها قوة عظيمة من الروم، فخادعوه بطلب المهادنة وأداء الجزية ، وشجعهم فيمى سراً ، وكان قد بدأ يخشى عاقبة توغل المسلمين فى الجزيرة ؛ فاستمع أسد إلى ضراعتهم ، وتركهم أياماً استعدوا فيها للمقاومة ، وامتنعوا عليه فضرب الحصار حول القلعة ، وبث السرايا فى نواحى الجزيرة ، وافتتح ما حول سرقوسة وحاصرها براً وحاصرتها سفن المسلمين من البحر ، ووصلته الأمداد من إفريقية ، فبعث إلى بَلِرم الجند والسفن لحصارها ، ولكن وصل فى ذلك الحين إلى مياه سرقوسة أسطول بيزنطى بعثه الإمبراطور لإنجاد الجزيرة ، فاشتدت المقاومة على المسلمين ، ونشبت بينهم و بين

---

(١) معجم ياقوت فى كلمة « صقلية » .

الروم فى البر والبحر معارك مستمرة ، وامتد خط القتال من سرقوسة فى شرق الجزيرة إلى بلرم فى شمالها الغربى . وهنا وقع الوباء بمعسكر المسلمين فى سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨م) فهلك فيه كثير منهم ، وحمل فيمن حمل أميرهم أسد بن الفرات . والظاهر أنه توفى فى قصريانة (كاستروچوڤانى) أو على مقربة منها وأنها كانت يومئذ فى قبضة المسلمين . ذلك أن الفقيه والقائد وأمير البحر الشيخ دفن بها حسبما تقول الرواية الإسلامية[1] ، ومن يدرى فلعل رفاته ما زال يثوى بها إلى اليوم فى قبر مجهول .

وتولى القيادة من بعده محمد بن أبى الجوارى . فلما رأى تفاقم الأمر على المسلمين حاول الانسحاب فى السفن فمنعته السفن البيزنطية من ذلك ؛ فأمر عندئذ بحرق السفن وامتنع المسلمون بداخل الجزيرة ، وتفرقوا فيها أسراباً يغزون بسائطها ويحاصرون قلاعها حتى جاءتهم الأمداد من إفريقية ، ووصل لمعاونتهم فى الوقت نفسه أسطول أندلسى من السرايا المجاهدة المغامرة فى سنة ٢١٤هـ (٨٢٩م) فاشتد ساعدهم ومضوا فى افتتاح مدن الجزيرة وثغورها تباعاً حتى أتموا افتتاح معظمها ؛ وكان تقدمهم بطيئاً لوعورة الجزيرة فاستقروا فيما افتتحوه منها . وفى سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) استولوا على سرقوسة آخر معاقلها فتم بذلك افتتاحهم لها وأسسوا بها إمارة كانت تابعة فى البداية لحكومة إفريقية ، ثم استقلت بعد ذلك عنها حينما سقطت دولة الأغالبة . وقامت فى صقلية دولة إسلامية لبثت زهاء قرنين ازدهرت فيها الجزيرة وغدت حديقة يانعة تزهو بعلومها وتجارتها وصناعتها ، وأضحت فى الوقت نفسه معقلاً إسلامياً تخرج منه البعوث والحملات البحرية فتجوس خلال المياه الإيطالية وتفتتح ثغورها ، وتصل حتى رومة « ملكة العالم » ؛ حتى إذا أدرك الوهن والانحلال تلك الدولة الإسلامية الصغيرة توالت حملات الفرنج على الجزيرة حتى استعادها الدوق روجر (رجار) النورمانى سنة ٤٦٤هـ (١٠٧٢م) ، وانتهت بذلك دولة الإسلام فيها كما ينتهى الحلم السعيد .

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٩٨

تلك هى قصة الفتح الإسلامى لصقلية ، وقصة فاتحها أسد بن الفرات ؛ وليس من النادر أن نرى فى الفتوحات الإسلامية الأولى فقيهاً أو محدثاً أو عالماً يتولى قيادة البعوث والحملات ، وقد كان من تقاليد الفتوحات والحروب الإسلامية دائماً أن يحتشد الفقهاء والعلماء المقربون من السلطان فى مؤخرة الجيش . ولكن هذا المنظر الرائع الذى يقدمه إلينا هذا الفقيه والقاضى الشيخ والقائد الجرىء وأمير البحر المغامر ، برياسة الأساطيل الغازية وقيادتها إلى الفتح والظفر ، والذى يملأ النفس روعة وإعجاباً ، هو حقاً من المناظر الفريدة فى التاريخ الإسلامى .

يحيى الغـزال

شاعر وفيلســوف وسياسى

(توفى نحو ٢٥٠ هـ ٨٦٤ م)

كان عصر الحكم بن هشام أمير الأندلس (١٨٠ — ٢٠٦ هـ) بالرغم مما تخلله من ثورات وقلاقل، بداية عهد استقرار ونهوض بالنسبة للدولة الأموية بالأندلس؛ وفيه استطاعت الدولة الأموية لأول مرة منذ ذهابها بالمشرق، أن تستعيد قسطاً من بهائها القديم، وأن تبدو فى حلل ملوكية جديدة، وأن تبث إلى دولة التفكير والأدب روحاً جديداً. وكان بلاط الحكَم فوق ما يضمه من أكابر القادة وأقطاب الحُكم، يجمع طائفة كبيرة من المفكرين والشعراء والأدباء، يلوذون بحمايته، ويتمتعون بعطفه؛ وكان الحكم وهو أديب وشاعر موهوب، يتخذ منهم بطانته ويؤثرهم بصداقته، ويجرى عليهم الأرزاق الحسنة.

وكان من أعلام عصر الحكم، يحيى الغزَال الجيّانى، وهو شخصية فذة جمعت بين الأدب والحكمة والسياسة؛ وهو أبو زكريا يحيى بن الحكم البكرى نسبة إلى بنى بكر بن وائل؛ وأصله من جيّان ولقب بالغزال لجماله وظرفه وأناقته. وكان فى أواخر عهد الحكم فى نحو الخمسين من عمره، فمولده بذلك يرجع إلى نحو منتصف القرن الثانى من الهجرة. وقد عاصر الغزال قبل الحكم، أباه هشام بن عبد الرحمن، وجده عبد الرحمن الداخل؛ كما عاصر من بعده ولده عبد الرحمن، وحفيده الأمير محمد، وبذا يكون قد عاصر خمسة من أمراء بنى أمية، وعاش زهاء تسعين عاماً.

ونظم الغزال الشعر حَدَثاً، وبلغ ذروة عنفوانه وشهرته فى عهد الحكم، وكان

شعره يميل إلى الدعابة والتهكم اللاذع ، ولكن تطبعه فى نفس الوقت نزعة فلسفية حرة . ذلك أن الغزال لم يكن شاعراً فقط ، ولكنه كان على قول ابن حيّان « حكيم الأندلس وشاعرها وعرافها » ، كان متضلعاً فى علوم عصره ، يأخذ بقسط من الفلسفة والفلك والتنجيم ؛ وكان حر التفكير يتناول فى شعره أموراً تثير الريب فى عقيدته . ونحن نعرف أن عصر الحكم كان مليئاً بصنوف الجدل والمناقشات الدينية ، وأن الحكم كان هدفاً لسخط الفقهاء وحملاتهم المرة ، لما جنح إليه من التضييق عليهم والقضاء على نفوذهم وإبعادهم عن التدخل فى شئون الدولة ؛ وكان الفقهاء قد تبوأوا منذ عهد أبيه هشام مكانة رفيعة فى الدولة ، وتغلغل نفوذهم فى معظم الشئون العامة ، وأصبحوا خطراً على نفوذ العرش وسلطانه . فلما عمد الحكم إلى تحطيم نفوذهم ، ثاروا سخطاً عليه ، وأخذوا يلوحون بسبه والتعريض به من فوق المنابر ، ويوغرون عليه صدور العامة بالدس والوقيعة ، ويسبغون على دعايتهم ثوب الوعظ والإرشاد ، والحض على التمسك بأهداب الدين ؛ وكان الحكم بإسرافه فى مجالى اللهو والبذخ يسبغ على دعايتهم قوة ؛ وقد عمد الحكم إلى مقاومتهم بنفس سلاحهم ، فكان يحشد حوله جماعة من العلماء والفقهاء المستنيرين ، وكان الجدل يضطرم بين الفريقين من فوق المنابر ، وفى الرسائل والقصائد . وكانت هذه الجماعة المستنيرة من العلماء والأدباء والشعراء الأحرار الذين يلتفون حوله ويشدون أزره ، تشاطره آثار هذه الخصومة ، فلم ينج أحد منهم من اتهام الفقهاء المتعصبين بالإلحاد والزيغ ؛ وكان الغزال وصديقه الفيلسوف الرياضى عباس بن فرناس فى مقدمة من لحقتهم هذه التهمة ؛ وقدم ابن فرناس بالفعل إلى القضاء متهماً بالزندقة ، ولكن القضاء لم يجد سبيلا إلى إدانته .

ولبث الغزال طيلة حياته على خصومته للفقهاء يكثر من التعريض بهم والطعن عليهم ، غير مكترث لاتهامهم ومساعيهم للايقاع به ، وهو القائل فيهم :

لست تلقى الفقيه إلا غنيا ليت شعرى من أين يستغنونا

تقطع البر والبحار طلاب الر زق والقوم هاهنـا قاعدونا
إن للقوم مضرباً غاب عنّـا لم يصب قصد وجهه الراكبونا

والواقع أن الغزال لم يكن متحفظاً فى شعره ، وكان يقدم بنفسه من آن لآخر إلى خصومه مادة الوقيعة والطعن . ومن ذلك قصيدة نظمها فى ذكر النفس والروح يقول فيها :

يا ليت شعرى أى شيء محصل ير ى شخص من قد مات وهو دفين
أهو هو أم خلق شبيه بما رأى فقل للقلوب النائمات عيون
وكيف يرى والعين قد مات نورها وواقعـه شبه الوقار سكون

وعرض الغزال فى أرجوزته التى نظمها فى أبواب العلوم إلى القَدَر وغيره من الأمور الشائكة بطريقة لم يرض عنها فقهاء عصره ، وكانت مثار الطعن فى عقيدته .

٢

على أن صفة الشاعر الفيلسوف والمفكر الحر ، لم تكن أخص ما تميزت به شخصية الغزال ؛ فقد عرف الغزال بصفة أجل وأخطر هى صفة الحكيم الناصح ، والسياسى المحنك ؛ واشتهر بأصالة الرأى ، وحسن التدبير واللباقة والدهاء . ومع أنه لم يكن من رجال الدولة الرسميين ، فقد كانت هذه الخلال تفسح له فى بلاط قرطبة مكانة خاصة وتجعله موضع الثقة والتقدير . ولما توفى الحكم بن هشام فى سنة ٢٠٦ هـ ، وخلفه ولده عبد الرحمن ، لبث الغزال على مكانته فى الدولة ، ونُظم فى سلك كتاب البلاط . وكان منصب الكتابة من المناصب التى تسند عادة إلى المقربين من خاصة الأمير وجلسائه من الأدباء والشعراء ، فيغدو لهم مورد رزق . وتوثقت بين الغزال و بين الأمير الجديد صداقة متينة العرى ، وكان عبد الرحمن يستشيره فى كثير من شئون الدولة ومهامها .

وفى سنة ٢٢٥ هـ (٨٤٠ م) وقع حادث سياسى كان له فى بلاط قرطبة أعظم صدى . ذلك أن الإمبراطور تيوفيلوس قيصر قسطنطينية ، أرسل إلى أمير الأندلس

سفارة وهدية فخمة ؛ ووفد السفير البيزنطى ، واسمه قرطيوس ، على بلاط قرطبة يحمل كتاب القيصر إلى عبد الرحمن ، وفيه يذكره بما كان بين الأوائل من بنى أمية وبين قياصرة قسطنطينية من أواصر المودة والصداقة ، ويشكو إليه مر الشكوى من فعال الخليفة المأمون وأخيه المعتصم وعيثهما فى أراضيه ، ومن استيلاء البحارة الأندلسيين بقيادة أبى حفص البلوطى على جزيرة إقريطش وهى من أملاكه ، ويطلب إليه استئناف هذه الصداقة القديمة بين القياصرة وبنى أمية ، ويبشره بقرب انهيار الدولة العباسية ، ويرغّبه فى ملك آبائه بالمشرق ، ويستنهض همته لاسترداده ، ويعده بنصرته فى هذا المشروع .

واستقبل السفير البيزنطى فى بلاط قرطبة بمنتهى الحفاوة والتكريم ، واعتزم عبد الرحمن بن الحكم الرد على هذه السفارة بما يليق من الاهتمام ؛ وهنا اتجهت الأنظار إلى يحيي الغزال صديق الأمير وكاتبه ومستشاره ؛ وكانت شخصيته الممتازة ، وكياسته ولباقته ، ترشحه لمثل هذه السفارة الخطيرة ؛ وكان الغزال قد جاوز الستين من عمره يومئذ ، ولكنه كان يبدو شاباً ويحتفظ بكثير من ظرفه وأناقته ؛ وقبل الغزال تلك المهمة على غضاضة منه ، ونُدب ليقدم كتاب الأمير وهديته إلى قيصر قسطنطينية ، وغادر قرطبة مع زميله يحيي بن حبيب برفقة السفير البيزنطى ، فوصل إلى قسطنطينية بعد رحلة بحرية شاقة ، وقد وصف لنا أهوال البحر والموج فى قصيدة طويلة شائقة يقول فيها :

قال لى يحيي وصرنا بين موج كالجبال
وتولتنا رياح من دبور وشمال
شقت القلعين وانبتت عرى تلك الحبال
وتمطى ملك المو ت إلينا عن حيال
فرأينا الموت رأى العين حالا بعد حال

واستقبل الإمبراطور تيوفيلوس سفير الأندلس استقبالاً حسناً ، وكان عبد الرحمن يرد

فى كتابه على جميع ما توجه به إليه الإمبراطور ، ويرحب بصداقته ، ويشاطره السخط والنقمة على بنى العباس ، ويعده فى شأن استرداد ملكه بالمشرق خيرا . وهنا ظهر الغزال ببديع مواهبه وخلاله فسحر الإمبراطور والبلاط البيزنطى بظرفه وذلاقته ورائق حديثه ودعابته ، وعمل على إحكام الصلة والمودة بين الإمبراطور ومليكه فى جو يفيض ثقة وعطفاً ؛ وقدمه الإمبراطور إلى زوجه الإمبراطورة تيودورا ، فسحرته برائع جمالها ، وبلغ من تأثره عندئذ أن كاد ينسى وجود الإمبراطور وكاد يتعثر فى محادثته . ولما سأله الإمبراطور عن سبب ذهوله لم يخف عليه حقيقة السبب ، وصرح له بأنه لم ير فى حياته « صورة أحسن ولا منظراً آنق » من هذه الملكة الحسناء التى « يبهر وجهها الشمس بضيائه ، ويكسفها ببهائه ، ويذكر العاقل بقدرة الله على إبداع الخلق » . فسر الملكان من إجابته ؛ وأنست الإمبراطورة بحديثه ودعابته وخصته بعطفها ، ووهبته طائفة من اللآلئ النادرة لكى يستعين بها على تجهيز بناته ؛ وقدمت إليه ابنها الأمير ميخائيل الذى تولى العرش فيما بعد ، وكان يومئذ فتى يافعاً ، فسحره الفتى بظرفه وبارع خلاله ، وفيه يقول الغزال من قصيدة طويلة :

وأغيد لين الأطراف رخص ... كحيل الطرف ذى عنق طويل
ترى ماء الشباب بوجنتيه ... يلوح كرونق السيف الصقيل
من أبناء الغطارف قيصرى (م) العمومة حين ينسب والخؤول
على قد ســواء لا قصير ... فتحقره ولا هو بالطويل
ولكن بين ذلك فى اعتدال ... كغصن البان فى قرب المسيل

وعاد الغزال إلى قرطبة بعد رحلة دامت عدة أشهر ، وقد بهرته مظاهر الحضارة البيزنطية وروعة البلاط البيزنطى ؛ وترك الغزال فى بلاط القيصر وبطانته أجمل الأثر بما أبداه من فطنته وكياسته ، ورقيق خلاله وشمائله .

٣

ولبث الغزال على مكانته ونفوذه فى بلاط قرطبة حتى توفى عبد الرحمن بن الحكم فى سنة ٢٣٨هـ (٨٥٢م) ؛ وعاش الغزال بعد وفاة صديقه وحاميه دهراً آخر ، وحضر شطراً من عهد ولده الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨هـ—٢٧٣هـ) وهو يتمتع بمثل مكانته التى تبوأها فى البلاط منذ عهد الحكم . ثم توفى فى أواسط عهد الأمير محمد فى نحو التسعين من عمره ؛ ونحن نجهل تاريخ وفاته بالضبط كما نجهل تاريخ مولده ؛ ولكن بعض الروايات تضع وفاته حوالى سنة ٢٥٠هـ (٨٦٤ م) ، ويقول لنا ابن حيان مؤرخ الأندلس إنه عمر أربعاً وتسعين سنة ، ولحق عصور خمسة من أمراء بنى أمية بالأندلس ، أولهم عبد الرحمن بن معاوية وآخرهم محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم .

وقد لبث الغزال زهاء نصف قرن يتبوأ مكانته الرفيعة فى الشعر والأدب ؛ بيد أنه يلوح لنا أن الشاعرية لم تكن أخص مواهبه ، وأنه لم يبلغ فى الشعر مرتبة الزعامة ؛ وإنما اشتهر الغزال بالأخص بالحكمة والكياسة والبراعة والسياسة . فهو فيلسوف فى شعره وفى تفكيره ، وهو سياسى من الطراز الأول ، وربما كانت هذه أبرز صفاته وأجلها[١] .

(١) انتفعت فى كتابة هذا الفصل بمراجعة أوراق مخطوطة فى تاريخ الأندلس نقلتها من صديق العلامة المستشرق الأستاذ ليفى بروفنسال ؛ وراجع فى ترجمة الغزال وأخباره : نفح الطيب ج ١ ص ١٦١ و ٤٤١ وما بعدها . ودوزى Recherches. App. 34 ؛ وليفى بروفنسال : Un Echange d'Ambassades entre Cordoue et Byzance.

عبد الرحمن الناصر

(٢٧٧ — ٣٥٠ هـ) ، (٨٩٠ — ٩٦١ م)

مضى زهاء قرن منذ استقر ملك بنى أمية بالأندلس، وتوطدت أسس الدولة الجديدة، وأخذت تزهو وتزدهر فى عهد عبد الرحمن بن الحكم ؛ ولكن عوامل الانتقاض والتفكك سرت فجأة إلى هذا الصرح القوى ، ولبثت الأندلس مدى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى (أواخر القرن التاسع الميلادى) تضطرم بسلسلة لا نهاية لها من الثورات والفتن ، حتى لاح مدى لحظة أن ملك بنى أمية أضحى على وشك الانهيار .

توفى الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن أمير الأندلس فى مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ (أكتوبر سنة ٩١٢ م) بعد حكم طويل عاصف ، مزقت فيه أوصال المملكة ونضبت مواردها ، فخلفه فى نفس اليوم على العرش حفيده عبد الرحمن ابن ابنه محمد غير متجاوز الثالثة والعشرين من عمره، وذلك بالرغم من وجود أعمامه وأعمام أبيه . وكان الأمير عبد الله قد اختار محمداً أكبر أولاده لولاية عهده، فوجد عليه أخوه المطرّف وقتله ؛ وولد عبد الرحمن قبيل مقتل أبيه بأسابيع قلائل فى ٢٢ رمضان سنة ٢٧٧ هـ (ديسمبر سنة ٨٩٠ م) ، وأمه جارية إسبانية نصرانية تدعى ماريا أو مزنة حسبما تسميها الرواية العربية ، فنشأ الطفل اليتيم فى كفالة جده مرموقاً بعين العطف والرعاية ؛ وما كاد يبلغ أشده حتى ظهرت نجابته ، وأبدى بالرغم من حداثته تفوقاً فى العلوم والمعارف إلى درجة تسمو على سنه ، ودرس القرآن والسنة وهو طفل لم يجاوز العاشرة ، وبرع فى النحو والشعر والتاريخ ، ومهر بالأخص فى فنون الحرب والفروسية ؛ وأقبل عليه جده الأمير يخصه بحبه وثقته ، ويرشحه لمختلف المهام ، ويندبه للجلوس

مكانه فى بعض الأيام والأعياد . وهكذا تعلقت آمال أهل الدولة بهذا الفتى النابه وأضحى ترشيحه لولاية العهد أمراً مقضياً ؛ بل يقال إن جده قد رشحه بالفعل لولاية عهده . وما كاد الأمير عبد الله يسلم أنفاسه الأخيرة حتى بويع حفيده عبد الرحمن بالملك ، وكان أول من بايعه أعمامه وأعمام أبيه ؛ وساد البشر يوم بيعته فى القصر والمدينة ، وتوسم الجميع فى الأمير الفتى آيات العظمة واليمن ، وعلقوا على ولايته أكبر الآمال ، وفى ذلك يقول شاعر العصر ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، يوم أن تولى عبد الرحمن الملك فى مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ :

بدا الهلال جـديدا والملك غضّ جديد
يانعمـــة الله زيدى إن كان فيك مزيد
إن كان للصوم فطر فأنت للدهر عيـد

وكانت الأندلس عندئذ أشد ما تكون حاجة إلى السكينة بعد أن هزتها الثورة إلى الأعماق ، وتجاذبتها الأعاصير من كل صوب ؛ وكان الأمير الفتى يرى أن خطة التردد والرفق التى اتبعها أجداده نحو الزعماء الخوارج كانت سياسة خطرة ولم تكن ناجعة ، وأنه لا بد لاستتباب الأمن واستقرار السكينة من سحق الثورة وزعمائها بأى الوسائل ؛ ومن ثم فإنه لم تمض على جلوسه أسابيع قلائل حتى بعث حملته الأولى إلى المناطق الثائرة بقيادة الحاجب بدر ، فاستخلصت قلعة رباح وأستجة من أيدى العصاة (جمادى الأولى) . وفى شعبان سنة ٣٠٠ هـ (مارس سنة ٩١٣ م) خرج عبد الرحمن للغزو وتولى القيادة بنفسه ، فأثار ظهور الأمير الفتى فى الصفوف حماسة وأكبروا شجاعته وإقدامه ؛ واتجه عبد الرحمن إلى كورة جيان فى جنوب غربى الأندلس حيث كانت الثورة على أشدها وحيث كان ابن حفصون أعظم الزعماء الخوارج يبسط سلطانه على طائفة من المدن والحصون القوية فيما بين رندة ومالقة ، وسير بعض قواته لإنقاذ مدينة ريّة التى كان يهددها الزعيم الثائر فاستولت عليها وأمّنتها ، وقصد إلى الحصون والقواعد الثائرة فاحتل منها منتلون وشمنتان ومنتيشة وغيرها ، وقدم إليه الزعماء

الخوارج طاعتهم فقبلها وعفا عنهم ؛ ثم سار إلى كورة البيرة فاحتل حصونها التى تدين بالطاعة لابن حفصون ، واتجه بعد ذلك إلى وادى آش فاحتل حصونها ، ثم توغل فى شعب جبل الثلج (سيارا نقادا) وافتتح ما هنالك من المعاقل والحصون ؛ وحاول ابن حفصون أن يزحف على غرناطة فخرج إليه أهل البيرة ومعهم مدد من جيش عبد الرحمن فردوه على عقبه ؛ وما زال عبد الرحمن فى تلك الأنحاء يخضع حصونها وينتسف أراضيها حتى قضى على كل عناصر الثورة والخروج فيها . وعاد إلى قرطبة يوم الأضحى بعد أن قضى فى غزوته ثلاثة أشهر .

على أن هذه الجولة الأولى لم تكن إلا بداية الصراع المرير الذى كان على عبد الرحمن أن يضطلع به . ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر أخرى حتى عادت عناصر الثورة تجتمع وتتحفز ، وعاد ابن حفصون إلى تنظيم خططه وقواته . وكانت إشبيليه فى مقدمة القواعد التى رفعت لواء الثورة ، وقام بها منذ أيام الأمير عبد الله بنو حجاج وهم مثل ابن حفصون من زعماء المولدين وأنشأوا بها إمارة مستقله ؛ وكان عبد الرحمن يتوق إلى تحطيم سلطان أولئك المولدين الذين أبدوا دائماً أنهم لا يدينون بالولاء للحكومة الإسلامية التى لم تتدخر وسعاً فى الرفق بهم ومعاملتهم دون تمييز أو إجحاف أو تحامل . فلم تمض أشهر قلائل حتى بعث عبد الرحمن إلى إشبيلية حملة قوية استولت عليها بعد حصار طويل ، وانهارت دعائم الثورة بها ، وهدمت أسوارها (جمادى الأولى سنة ٣٠١ هـ). وفى شوال من نفس العام خرج عبد الرحمن فى غزوته الثانية وقصد إلى كورة رية والجزيرة . وكان ابن حفصون قد عاد فبسط حكمه على تلك الأنحاء وعادت الثورة تضطرم فيها ؛ فجال عبد الرحمن بين حصونها واستولى على كثير من معاقلها ، واشتبك مع ابن حفصون فى معركة شديدة هزم فيها الثائر وحلفاؤه النصارى وارتد بفلوله نحو الغرب . وما زال عبد الرحمن يطارد الثوار فى تلك المنطقة حتى دخلت فى طاعته معظم المعاقل والحصون التى مر بها ؛ ومع أن عبد الرحمن كان يتوق إلى سحق الثورة بكل الوسائل فإنه لم يلجأ إلى قسوة لا مبرر لها ، بل آثر منذ البداية أن يتبع سياسة الرفق والتسامح نحو

الزعماء الذين قدموا خضوعهم وطاعتهم ، فسمح للكثير منهم بالانتقال إلى قرطبة مع الأهل والولد ، وأجرى عليهم الأرزاق والأعطية ، وأبدى بالأخص نحو النصارى الذين أذعنوا إلى الطاعة منتهى الكرم والتسامح (١) .

وفى أواخر سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م) حل بالأندلس قحط شديد ، فعزت الأقوات ، وارتفعت الأسعار ، وعمت المحنة سائر القواعد والثغور واستمرت خلال العام التالى ، وبلغت الشدة بالناس مبلغاً عظيما ، وانتشر الوباء مع القحط وكثر الموت وهلك كثير من الرؤساء والوجهاء . وكانت محنة قاسية شديدة الوطأة . ولم يدخر عبد الرحمن خلال تلك الآونة العصيبة وسعاً فى بذل المعونة والغوث لشعبه بتوزيع المؤن والصدقات الوفيرة ؛ وحذا حذوه كثير من الكبراء وأهل الدولة فكان لجهودهم أثر كبير فى التلطيف من آثار المحنة . وكان لهذا الظرف أثره فى تهدئة الثورة والفتّ فى عضد الثوار . ولكن عبد الرحمن لبث مع ذلك يقظاً يرقب حركاتهم بحذر وأهبة .

وما كادت تنقشع هذه الغمة حتى عاد عبد الرحمن إلى استئناف جهوده فى سحق الثورة، فسير قواته إلى كورة تدمير و إلى مدينة لبلة (٣٠٤ هـ) . وفى العام التالى أعنى فى سنة ٣٠٥ هـ وقع حادث كان له أكبر الأثر فى تفكك عرى الثورة وانحلالها : ذلك هو وفاة عمر بن حفصون زعيم الثورة ومثير ضرامها فى غربى الأندلس . وكان ابن حفصون فى الواقع أخطر ثائر عرفته الأندلس منذ الفتح . وكانت ثورته تمثل أخطر العناصر التى تدين بالولاء لحكومة قرطبة وفى مقدمتها طائفة المولدين الذين ينتمى إليهم ، وهم سلالة القوط والنصارى الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح، وغدوا جزءاً من الأمة الأندلسية . وكان أولئك المولدون بالرغم مما تسبغه عليهم حكومة قرطبة الإسلامية من الرعاية والتسامح يضمرون لها الخصومة والكيد ، وينتهزون كل فرصة للخروج عليها . وكانوا يلقون العون دائماً من زملائهم النصارى المعاهدين من رعايا الحكومة الإسلامية . وقد دبر ابن حفصون حركته ونظم ثورته فى المناطق الغربية

(١) Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne (1930) V. II, p. 103

الجنوبية فيما بين رندة ومالقة ، وقد كانت فضلا عن وعورتها ومناعتها الطبيعية ، تضم كثرة من المولدين والنصارى؛ وهكذا كانت وفاة هذا الثائر الخطر ضربة شديدة للثورة ، وتنفست حكومة قرطبة لوفاته الصعداء بعد أن شغلها زهاء ثلاثين عاماً .

وترك ابن حفصون أربعة أبناء تولوا مكانه رياسة القواعد الغربية ولا سيما ببشتر حيث قام ولده جعفر ؛ ولبث عبد الرحمن بضعة أعوام أخرى يغزوهم تباعاً أحياناً بنفسه وأحياناً على يد قادته ، حتى انتهى بسحقهم جميعاً والاستيلاء على قواعدهم وحصونهم وذلك سنة ٣١٥ هـ (٩٢٨م) . وترك ابن حفصون أيضاً ابنة هي أرجنتا التي اعتنقت النصرانية فقبض عليها وأعدمت لارتدادها عن الإسلام ، ونظمتها الروايات والأساطير النصرانية فى سلك القديسين والشهداء[١] .

ولم يغفل عبد الرحمن فى الوقت الذى كانت فيه ثورة ابن حفصون وأبنائه فى غربى الأندلس تشغل معظم عنايته عن مطاردة الثورة فى الأنحاء الأخرى ؛ فغزا الثوار فى طليطلة وبطليوس (سنة ٣١١ هـ) ، ثم سار بعد ذلك إلى تدمير وبلنسية وقضى على الثورة وعلى زعمائها فى سائر الأنحاء ، وسادت السكينة بعد ذلك أرجاء الأندلس ، ولم يبق عليه إلا أن ينازل عدو الأندلس التاريخى ونعنى إسبانيا النصرانية .

٢

كانت إسبانيا النصرانية فى خلال تلك الفترة التى اضطرمت فيها الأندلس بالفتن وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة فى النواحى ، تسير قُدُماً فى سبيل القوة والتوطد ، وتعمل جاهدة لانتهاز كل فرصة للكيد للأندلس وممالأة ثوارها ، والعيث فى أراضيها ؛ وكانت تنقسم عندئذ إلى إمارتين أو مملكتين متحالفتين هما مملكة ليون (أو مملكة جليقيه) ومملكة نافار (أو بلاد البشكنس) ؛ وكانت ليون وهى الواقعة فى الشمال الغربى بين المحيط ونهر دويرة أكبر المملكتين وأوفرهما قوة ومنعة ، وكانت بذلك تتولى

(١) راجع تفاصيل ثورة ابن حفصون وأبنائه من بعده في البيان المغرب ج ٢ ص١٩٣ و١٩٤ و ٢٠٤ و ٢٠٨ و ٢٠٩ . وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ . وراجع أيضا : Dozy: Ibid ; V. II. p. 109

قيادة اسبانيا النصرانية فى ميدان الكفاح الخالد بينها وبين اسبانيا المسلمة . وكانت قواعد الأندلس الشمالية التى تتاخم مملكة ليون مثل أستورقة وسمورة وشلمنقة وسيقوبية و براندة ، قد خلت منذ أواخر القرن الثامن من معظم سكانها المسلمين ، واستوحش العرب والبربر لقلتهم فى تلك الانحاء ، وكثرة اعتداء النصارى عليهم ، وتوالى القحط فى تلك الربوع فهاجروا إلى الجنوب ، وجاء ملك ليون ألفونسو الثالث (أواخر القرن التاسع) فقتل من بقى فى تلك المنطقة من المسلمين ثم ارتد إلى جباله ؛ وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة فلم تستطع رد الاعتداء . وانتهز ألفونسو تلك الفرصة فدفع حدود مملكته جنوباً حتى نهر دويرة (دورو) واختط هنالك عدة قلاع منيعة كان يتخذها النصارى قواعد للاغارة على الحدود الإسلامية واجتياح المسلمين العزل بالنار والسيف ، وقتل النساء والأطفال والشيوخ ونهب الأموال والمتاع ؛ وجرى ولده جارسيا (غرسيه) على هذه السياسة الدموية الغاشمة . وكانت إسبانيا النصرانية تنظر من خلال هضابها القفرة ومواردها الضئيلة ، وفقرها المدقع ، إلى وديان الأندلس النضرة ، وإلى نعمائها الوافرة وحضارتها الزاهرة بعين المقت والحسد ، وتعمل جاهدة لبث الدمار والويل إلى هاتيك الربوع السعيدة ، وكان على حكومة قرطبة أن تعمل على حماية الأندلس وحماية تراثها وحضارتها من هذا العدوان المخرب الذى أخذ يشتد يوماً عن يوم .

وكان عبد الرحمن حينما ولى الملك يؤثر الإغضاء حيناً عن محاربة النصارى حتى يفرغ من أمر الثورة . ولكن النصارى رأوا بالعكس أن يعملوا على انتهاز الفرص إبان الفتنة واضطرام الثورة فى الأندلس ؛ فما كاد عبد الرحمن يلى الملك حتى بادر أردونو الثانى (أرذن) ملك ليون بالإغارة على الأراضى الإسلامية ، وزحف على مقاطعة ماردة وعاث فيها (سنة ٣٠٢ هـ — ٩١٤ م) وعاد مثقلا بالغنائم والسبى . وكانت منطقة ماردة من المناطق الثائرة ، ولكن عبد الرحمن كان أبعد نظراً من أن يغضى عن عدوان يقع فى صميم الأراضى الإسلامية ، فلم يمض عامان حتى سير حملة بقيادة وزيره أحمد بن أبى عَبْدَه ، ليقابل عدوان النصارى بمثله ، فأثخن المسلمون

فى أراضى ليون ، وهزموا النصارى فى عدة وقائع . وانتقم أردونو لهزائمه بالإغارة على منطقة طلبيره وحرّق مدنها وانتساف زروعها ، فسير عبد الرحمن حملة أخرى بقياد ابن أبى عبده وزحف المسلمون على قلعة شنت اشتيبن وتسمى أيضاً (كستروموروس) وهى أمنع قلاع النصارى على الحدود وضربوا حولها الحصار ، وهرع أردونو لإنجادها فى جموع ضخمة . وكان الجيش الإسلامى بالرغم من تفوقه فى العدد مختل النظام يتألف سواده من البربر والمرتزقه الذين لا يعتمد على ولائهم وشجاعتهم ؛ فلما نشبت الموقعة بين المسلمين والنصارى دب الهرج إلى صفوف المسلمين وتسللت وحدات كثيرة منهم من المعركة ، ولكن قائدهم الشجاع صمم على أن يثبت إلى النهاية فأصيب المسلمون بهزيمة فادحة، وقتل ابن أبى عبده وعدة كبيرة من ضباطه، ومزق المسلمون شر ممزق، وكان ذلك فى ربيع الأول سنة ٣٠٥ هـ (سبتمبر سنة ٩١٧ م) .

وكان لذلك الخطب وقع عميق فى بلاط قرطبة ، وأتبع النصارى ظفرهم باعتداء جديد . ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر حتى عاد أردونو الثانى وحليفه سانشو ملك نافار (بلاد البشكنس) إلى غزو الأراضى الإسلامية وعاثا فى أحواز ناجرة وطليطلة . وكان عبد الرحمن يتوق إلى الانتقام لهزيمته الفادحة ومقتل قائده الشهم ، فخرج من قرطبة فى جيش ضخم فى المحرم سنة ٣٠٦ هـ (يولية سنة ٩١٨) ، وهرع إليه أهل الثغور من كل ناحية ظمئين إلى الجهاد والإنتقام ؛ وكذلك احتشد النصارى من سائر الأنحاء لرد الغزاة . ونفذ المسلمون كالسيل إلى قلب ليون وهاجموا النصارى بالرغم من اعتصامهم بشعب الجبال ؛ ونشبت بين الفريقين بالقرب من مكان يسمى « مطونية » معركة شديدة هزم فيها النصارى هزيمة ساحقة وأمعن المسلمون فيهم قتلاً وأسراً ولم تنج منهم سوى فلول يسيرة . وكان ذلك فى ربيع الأول سنة ٣٠٦ هـ (أغسطس سنة ٩١٨م)(١) .

على أن هـذه الهزيمة الساحقة لم تفت فى عضد النصارى ، فلم يمض سوى قليل حتى عادوا إلى الاحتشاد والإغاوة على الأراضى الإسلامية ، واستمر القتال سجالاً

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٩ و ١٨٠ .

بين الفريقين مدى أشهر ، وكثر العيث والسبي في مناطق الحدود . فعندئذ رأى عبد الرحمن أن يسير بنفسه إلى مقاتلة النصارى مرة أخرى ، فسار في جموع كبيرة من جيش الأندلس وأهل الثغور في المحرم سنة ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) وعبر نهر دويرة وزحف على مدينة أوسمة وأحرقها ثم سار إلى قلعة شنت إشتيين واستولى عليها واجتاح هذه المنطقة كلها ، واستولى على معظم القواعد والحصون ، وارتد النصارى مؤثرين القتال في المواقع الوعرة التي اختاروها . ولما عبر عبد الرحمن بقواته نهر أيبرو فاجأه سانشو ملك ناقار بقواته ولكنه لم يفلح في مفاجأته ورده المسلمون بقوة فارتد إلى شعب الجبال ، وانضم إلى حليفه أردونو ، وجمع الملكان قواتهما لقتال المسلمين . ولما نفذ عبد الرحمن بقواته إلى مفاوز البرنيه أخذ النصارى في إرهاقه وأصيب المسلمون ببعض الخسائر ، وشعر عبد الرحمن بخطر المأزق فبادر بالخروج إلى السهل المنبسط ؛ وهنا طمع النصارى في قتال المسلمين فانحدروا إلى السهل بعد أن كانوا في حمى الجبال ، والتقى الفريقان عند مكان يسمى « چونكيرا » فدفع النصارى ثمن جرأتهم هزيمة فادحة وأمعن المسلمون فيهم قتلا وأسراً ، ولم ينقذهم من الفناء الشامل سوى دخول الليل ؛ وانهارت كل مقاومة ، وأصاب المسلمين كثيراً من الأسلاب والغنائم ، وهدم عبد الرحمن حصون العدو وقلاعه ، وأصلح حصون المسلمين وفي مقدمتها حصن بقيرة المشرف على حدود ناڤار ؛ ثم قفل راجعاً إلى قرطبة فوصل إليها في سبتمبر سنة ٩٢٠ م بعد أن قطع في غزوته زهاء ثلاثة أشهر (١) .

وكان عبد الرحمن يرجو أن يكون هذا الدرس بعيد الأثر في ردع النصارى ووقف عدوانهم ولكنه أخطأ الظن . ذلك أنه لم يمض سوى عامين حتى أغار أردونو على ناجرة واستولى عليها ، وسار حليفه سانشو إلى بقيرة واقتحمها وقتل كل من كان فيها من المسلمين ، فضجت الأندلس لهذا الاجتراء ، وبادر عبد الرحمن فسير حملة إلى الثغر الأعلى (أراجون) بقيادة وزيره عبد الحميد بن بسيل (٣١١ هـ) فزحف على تطيلة وعاث

(١) البيان المغرب ج ٢ س ١٨٧ — ١٨٩ . وكذلك : Dozy. Ibid, V. II. p. 141-43

فى أراضى النصارى ، ثم لحق به عبد الرحمن فى المحرم سنة ٣١٢ هـ (أبريل ٩٢٤ م) فى جيش ضخم وهو يعتزم التنكيل بالنصارى ؛ ودخل أراضى ناقار فى شهر ربيع الآخر (يولية) ، فساد الذعر بين النصارى . وترك العدو معظم قلاعه وحصونه دون دفاع ، واستولى عبد الرحمن على عدد من القواعد والحصون الهامة ، وقتل كل من وجده فيها من النصارى . ثم نفذ إلى قلب ناقار وزحف على عاصمتها بنبلونة ؛ وحاول ملكها سانشو غير مرة أن يعترض طريقه فى شعب الجبال فكان يرد كل مرة بخسائر فادحة . ودخل عبد الرحمن بنبلونة وقد فر سكانها رعباً فدمرها وأحرق قصورها وكنائسها ، وجمع سانشو قواته مرة أخرى وحاول دفاعاً عن ملكه فهزم هزيمة فادحة ، ومزقت قواته كل ممزق ؛ وانهارت كل مقاومة ، وبذلك تم إخضاع ناقار وسحق قواتها (ربيع الثانى ٣١٢ هـ — أغسطس ٩٢٤ م)[1] .

وفى العام التالى (٩٢٥ م) توفى أردونو ملك ليون فثارت عقب وفاته حول العرش حرب أهلية بين أولاده استمرت بضعة أعوام ، وانتهت بفوز ولده راميرو وجلوسه على العرش فى سنة ٩٣٢ م. وانتهز الناصر فرصة انشغال ليون بحربها الأهلية فمضى فى جهوده لسحق الثورة والقلاقل الداخلية وتوطيد السكينة ، ومقاومة دعوة الفاطميين فى المغرب الأقصى .

وكان راميرو الثانى أو ردمير ، كما تسميه الرواية الإسلامية ، ملكاً مقداماً شديد البأس ؛ فما كاد يلى العرش حتى نشط إلى استئناف الصراع القديم ضد المسلمين ، وكان يرى أن العمل على إذكاء عوامل الفتنة فى المملكة الإسلامية ، هو خير السبل لتبديد قواها ؛ وكانت طليطلة قد عادت إلى الثورة وسار عبد الرحمن إلى حصارها فحاول راميرو إنجاد المدينة الثائرة تلبية لدعوة أهلها ؛ ولكن القوات الإسلامية ردته قبل أن يصل إليها ، وأرغمت طليطلة على التسليم والخضوع بعد أن أضنتها مصائب الحصار ، ودخلها عبد الرحمن ظافراً فى صيف سنة ٣٢٠ هـ (٩٣٢ م) . وفى العام التالى عاد ملك ليون

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٩٥ ، وكذلك : Dozy. Ibid, V. II. p. 144 - 145.

إلى محاربة المسلمين واحتل مدينة أوسمة ، فسار الناصر إلى قتاله ونفذ إلى أراضى قشتالة واقتحم مدينة برغش عاصمتها وخربها ، وقتل على مقربة منها عدداً كبيراً من أحبار الأديار المجاورة (سنة ٩٣٤ م)(١) .

ولما توفى سانشو ملك ناڤار قامت بالأمر بعده أرملته طوطه وصية على ولده جارسيا ؛ وكانت امرأة وافرة العزم والجرأة فلم يمض سوى قليل حتى تحرك البشكنس وأغاروا على بعض الحصون الإسلامية (٩٣٧ م) ؛ وكان بنو هاشم سادة سَرَقسطة وزعيمهم محمد بن هاشم التجيبي يضطرمون بأطماع خفية ويضمرون الخروج على حكومة قرطبة ، وخصوصاً لما رأوه من نشاط عبد الرحمن فى إخضاع الولاة المحليين وسحق سلطان الأسر القديمة . فلما اضطرمت الحرب بين ملك ليون والناصر رأوا الفرصة سانحة لتحقيق مشاريعهم ، وعقد محمد التجيبي صاحب سرقسطة معاهدة سرية مع راميرو ، ثم جاهر بالخروج على عبد الرحمن والاعتراف بسيادة ليون ، وعقد محمد وراميرو بعد ذلك محالفة مع طوطة ملكة ناڤار وبذلك تحالف الشمال كله على عبد الرحمن.

فسار عبد الرحمن إلى مقاتلة أعدائه فى جيش ضخم فى ربيع سنة ٩٣٧ م ، وبدأ بالزحف على قلعة أيوب فاقتحمها وقُتل صاحبها مطرّف التجيبي ومن معه من حلفائه النصارى ، ثم عهد بحصار سرقسطة إلى أحمد بن إسحاق قائد الفرسان وعينه حاكماً للثغر ، ولكنه تهاون فى الحصار وتوانى لمرض فى نفسه ولأطماع كانت تجيش بها نفسه . ونمى إلى عبد الرحمن أنه يأتمر به مع أخيه أمية بن إسحاق فاعتقلهما واكتفى بنفيهما من الأندلس ؛ فالتجأ أمية إلى راميرو وتحالف معه . وحاول أحمد أن يتصل بعمال الفاطميين فى عدوة المغرب ، فسعى عبد الرحمن إلى القبض عليه وأمر بإعدامه ؛ واستمر حصار سرقسطة أشهراً حتى سقطت وأسر صاحبها محمد بن هشام . وبذلك انهارت ثورة بنى هاشم فى الشمال ، والتمس محمد العفو من الناصر فعفا عنه ورده إلى منصبه جرياً على أسلوبه مع الزعماء ذوى البأس والعصبية .

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ ، وكذلك : Dozy. Ibid V. II p. 148

ولم ينس عبد الرحمن أن يعاقب البشكنس على عدوانهم؛ ففي الوقت الذى كانت جنوده تحاصر فيه سرقسطة سار فى بقية الجيش إلى بنبلونه عاصمة ناڤار وخربها ومزق جموع البشكنس وسحق كل مقاومه؛ وهرعت إليه طوطة ملكة ناڤار تقدم إليه خضوعها وطاعتها، فقبل الناصر خضوعها وأقر ولدها جارسيا ملكاً على ناڤار فى طاعته وتحت حمايته .

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يمزق شمل هذا التحالف الخطر وأن يخضع الشمال الشرقى من شبه الجزيرة كله لسلطانه وصولته، ولم يبق عليه إلا أن يحطم خصمه القوى العنيد راميرو الثانى ملك ليون وهو محور النضال الحقيقى . فلم يمض سوى عامين حتى تأهب للقيام بأعظم غزواته ضد مملكة ليون فحشد جيشاً ضخماً يبلغ زهاء مائة ألف وعهد بقيادته إلى نجدة الصقلبى . وكان الأجانب والصقالبة قد تبوؤوا يومئذ ذروة القوة والنفوذ فى بلاط قرطبة وسيطروا على معظم المناصب الكبيرة فى القصر والجيش؛ وكان لهذه السياسة التى أسرف الناصر فى اتباعها أسوأ الأثر فى نفوس الزعماء العرب، وفى انحلال قوى الجيش المعنوية . وفى صيف سنة ٩٣٩ م (٣٢٧ ﻫ) سار الناصر إلى ليون على رأس جيشه الضخم متجهاً نحو سيمانقة دون أن يفطن إلى ما يفت فى عضد هذه القوة العظيمة من العوامل الخفية . وتأهب راميرو الثانى لقتال المسلمين بكل ما وسع، وزوده حليفه الخائن أميه بن إسحاق بنصائح ومعلومات ثمينة ، وانضمت إليه طوطة ملكة ناڤار ناكثة لعهدها؛ و بذلك اتحدت قوى اسبانيا النصرانية لمقاتلة المسلمين مرة أخرى .

وهنا تختلف الرواية العربية والفرنجية اختلافاً بيناً فى شأن الموقعة التى نشبت بين المسلمين والنصارى . و بينما تقدم إلينا الرواية الفرنجية كثيراً من التفاصيل الواضحة إذا بالرواية العربية يغلب عليها الإيجاز والتحفظ . وفى موطن واحد فقط تقدم إلينا الرواية الإسلامية تفصيلاً للموقعة تقترب فيه من أقوال الرواية الفرنجية ، وذلك بالرغم مما يشوبه من لون القصص والأسطورة ؛ فتقول لنا إن عبد الرحمن اقتحم

بجيشه حدود ليون وزحف على مدينة سمّورة (زمورا) عاصمتها وكانت فى غاية المناعة يحيط بها سبعة أسوار شاهقة البنيان قد أحكمتها الملوك السابقة ، وبين الأسوار خنادق متسعة تفيض بالماء ، فافتتح المسلمون منها سورين ، واحتمى النصارى بداخل المدينة، ثم لحق المسلمين الإعياء من امتناع المكان وحصانته ، فكر عليهم النصارى بشدة وحماسة ، فساد الاختلال بين المسلمين وهزموا هزيمة شديدة وقتل منهم زهاء أربعين ألفاً وقيل خمسين ألفاً . وكان ذلك فى شوال سنة ٣٢٧ هـ (يوليه ٩٣٩ م) وسميت الموقعة بموقعة الخندق لنشوبها على خنادق سمورة[١] .

وتقول الرواية الفرنجية أن عبد الرحمن سار بجيشه فى اتجاه سيمانقة الواقعة على مقربة من نهر دويرة شرقى مدينة سمورة فلقيه راميرو وحليفته طوطة فى قواتهما ، ونشبت بين الفريقين موقعة فى ٥ أغسطس سنة ٩٣٩ م ، فأبدى رؤساء العشائر العربية فى القتال فتوراً وتراجعوا أمام النصارى ، ولكن حدث ما لم يتوقعه المسلمون . ذلك أن النصارى طاردوهم وألحوا فى قتالهم فارتد المسلمون أمامهم نحو الجنوب الغربى حتى محلة صغيرة فى جنوبى مدينة شلمنقة تسمى ألآنديجا (الخندق) ثم وقفوا وكروا على النصارى بفتور وتخاذل ، وهجم النصارى عليهم بجرأة وشدة ، فهزم المسلمون هزيمة شديدة وأمعن النصارى فيهم قتلا وأسراً فساد الخلل فى الجيش الإسلامى ومزقت منه فرق برمتها وقتل قائده نجدة الصقلبى ، وأسر محمد بن هشام حاكم سرقسطة ، ومزق جيشه ، وكان يحارب إلى جانب عبد الرحمن فى هذه الغزوة ، وحمل مصفداً إلى ليون . وأثخن عبد الرحمن نفسه جراحاً ولم ينج من الموت والأسر إلا بأعجوبة ، فولى شطر قرطبة فى نفر من الفرسان[٢] ، ولم يحاول راميرو أن يستغل نصره بمطاردة المسلمين ؛ ويقال إن الذى منعه من مطاردتهم هو أميه بن إسحاق إذ حذره من الكمين

(١) هذه رواية المسعودى فى مروج الذهب ، نقلها المقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ١٦٥ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

(٢) Dozy. Ibid; V. II. p. 155 & 56 وكذلك Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien V. II. p. 150 وما بعدها حيث يورد الروايات النصرانية

ورغبه فيما خلفوه من الأسلاب والغنائم الضخمة ، ولولا ذلك لفنى الجيش الإسلامى بأسره[1] . وكان لانتصار راميرو وقع عظيم فى أوربا وفى العالم الإسلامى ؛ بيد أن الموقعة على روعتها لم تكن بعيدة الأثر فى قوة الأندلس ومنعتها . ولم يدخر عبد الرحمن منذ عودته إلى قرطبة جهداً فى تنظيم الجيش و إصلاحه وتطهيره من العوامل الخطيرة التى أدت إلى هذه الكارثة ؛ ولكن موقعة الخندق كانت خاتمة أعماله الحربية فلم يغز من بعدها بنفسه . واستأمن أمية بن إسحاق بعد ذلك عبد الرحمن فلم ير بأساً من تأمينه والعفو عنه ؛ وكانت سياسة عبد الرحمن ترمى دائماً إلى اصطناع خصومه الأقوياء بالعفو والإغضاء . وسعى عبد الرحمن إلى افتداء محمد بن هشام فأفرج عنه راميرو بعد أن لبث فى سجون ليون زهاء ثلاثة أعوام ؛ وشغل النصارى مدى حين بعد موقعة الخندق بطائفة جديدة من الحروب الأهليه ؛ واستطاع عبد الرحمن خلال ذلك أن يعنى بإصلاح شئون المملكة وتقويتها .

على أن غزوات المسلمين لإسبانيا النصرانية لم تنقطع خلال الأعوام التالية ، فقد قام المسلمون بعد ذلك بعدة غزوات متعاقبة فى أراضى ليون . ولما توفى راميرو الثانى فى سنة ٩٥٠ م ثارت الحرب الأهلية بين ولديه أردونو وسانشو وانتهى الأمر بجلوس أردونو ، وغزا المسلمون أراضى ليون خلال ذلك وعاثوا فيها ، ثم عقد الصلح بين الفريقين واستقرت بينهما علائق السلم حينا .

٣

لم ينس عبد الرحمن خلال توفره على محاربة الثوار والنصارى داخل شبه الجزيرة أن يعنى بمقاومة الدعوة الفاطمية التى اجتاحت شمالى إفريقية وامتدت بسرعة إلى عدوة المغرب وإلى سبتة وأخذت تهدد شواطىء الأندلس . وكانت الدعوة الفاطمية تنطوى بالنسبة للأندلس على خطر مزدوج دينى وسياسى معا ؛ وكانت فى قوتها وعنفوانها تهدد طرفى إفريقية أعنى مصر والمغرب ؛ فمنذ عبيد الله المهدى أول الخلفاء

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٠ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥

الفاطميين، تتردد جيوش الخلافة الفتية من قواعدها فى تونس نحو مصر والمغرب غازية ، وكان اجتياحها السريع للمغرب يثير بحق جزع حكومة قرطبة ؛ ولا غرو فقد كانت عدوة المغرب تعتبر دائماً قاعدة لغزو الأندلس وخط دفاعها الأول، وكان ثوار الأندلس يتجهون بأبصارهم إلى العدوة ويفاوضون الفاطميين ، ويأتمرون معهم على حكومة الأندلس، فكان على عبد الرحمن أن يغالب هذا الخطر الجديد قبل استفحاله . ففى سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) سير عبد الرحمن إلى ثغر سبتة أسطولاً قوياً استولى عليها من يد ولاتها البربر بنى عصام حلفاء الفاطميين، وبادر زعماء البربر من الأدارسة وزناتة إلى طاعته ومهادنته وامتدت دعوته إلى فاس ، وبعث إليه موسى بن أبى العافية أمير مكناسة يطلب محالفته والدخول فى طاعته ، فأجابه عبد الرحمن إلى سؤله وأمده بالأموال والهدايا وقوى أمره فى المغرب . وفى سنة ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) استطاع موسى أن يهزم جيشاً أرسله عبيد الله الفاطمى لغزو المغرب والقضاء على دعوة الناصر بقيادة قائده ابن يصل عامل تاهرت ، ثم توفى عبيد الله فى العام التالى . وفى سنة ٣٢٣ هـ سير ولده الخليفة القائم إلى المغرب حملة أخرى بقيادة ميسور الصقلبى ، فضيق على موسى وطارده حتى الصحراء واستولى الأدارسة حلفاء الفاطميين على مملكته . وجازت جيوش عبد الرحمن بعد ذلك مراراً إلى المغرب لمحاربة الفاطميين وحلفائهم من الأدارسة وغيرهم من أمراء البربر ؛ واضطر الأدارسة فى النهاية إلى طلب الصلح من عبد الرحمن والاعتراف بطاعته (٣٣٢ هـ) ، ودعى لعبد الرحمن على منابر المغرب ، واستقرت دعوته هنالك مدى حين ، ولكن سلطانه فيما وراء البحر لم يكن ثابت الدعائم وكان رهيناً بقيام دولة الأمراء المحالفين له .

ولما تولى المعز رابع الخلفاء الفاطميين وبدت الدولة الفاطمية فى أوج قوتها وأخذت أساطيلها تزعج الدولة البيزنطية بغزو شواطئ قلورية (جنوبى إيطاليا) كان خطر غزو الفاطميين للأندلس يلوح قوياً فى الأفق ؛ والظاهر أن هذه الفكرة لم تكن بعيدة عن ذهن المعز ، بل يبدو فوق ذلك أن حكومة قرطبة وقفت على بعض وثائق تؤيد

هذه النية. وفى سنة ٣٤٤هـ (٩٥٥م) سارت بعض السفن الفاطمية وهاجمت ثغر المرية وأحرقت ما فيه من السفن وعاثت فى المرية؛ فرد عبد الرحمن بأن أرسل قوة بحرية بقيادة أمير البحر غالب إلى شواطئ إفريقية (تونس) فعاثت فيها، وأمر عبد الرحمن فى الوقت نفسه بلعن الشيعة والفاطميين على منابر الأندلس، ثم عاد بعد ذلك بثلاثة أعوام فسير أسطوله ثانية إلى إفريقية بقيادة أحمد بن يعلى تهديداً للقوات الفاطمية التى زحفت بقيادة جوهر الصقلى حذاء الشاطئ إلى عدوة المغرب، وعبرت حملة أندلسية أخرى من طريق سبتة إلى المغرب ولبثت هنالك حتى ارتد الفاطميون أدراجهم[(١)].

٤

هذا وربما كان قيام الخلافة الفاطمية فى الضفة الأخرى من البحر وانسيابها إلى المغرب الأقصى على مقربة من شواطئ الأندلس، فى مقدمة البواعث التى حدت بعبد الرحمن إلى العمل على إحياء تراث الخلافة الأموية الروحى، بعد أن توطدت دعائم دولتها السياسية بالأندلس. وكان مؤسسها عبد الرحمن الداخل قد أمر بمنع الدعاء لبنى العباس ولكنه لم يتخذ سمة الخلافة واكتفى بلقب الإمارة وسار بنوه على أثره؛ وبالرغم من أن الدولة الأموية قد استطاعت غير مرة أن تستعيد مجدها السالف فى عهد الحكم بن هشام وولده عبد الرحمن الأوسط، فإن أمراء بنى أمية لم يفكروا فى الإقدام على منافسة بنى العباس فى ألقاب الخلافة. وقيل فى تعليل ذلك إنهم كانوا يرون الخلافة تراثاً لآل البيت وإنهم أبعد عن نيلها لقصورهم عن ملك الحجاز أصل العرب والملة والبعد عن دار الخلافة التى هى مركز العصبية، وإنهم بعبارة أخرى كانوا يرون أن الخلافة تكون لمن يملك الحرمين[(٢)]. بيد أننا نعتقد أن هذا الإحجام يرجع بالأخص إلى بواعث الحكمة والسياسة والتحوط من إثارة الفتنة والخلافات

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ و ١٤١، وابن الأثير ج ٨ ص ١١٩، ونفح الطيب ج ١ ص ١٦٩، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢١٩ و ٢٢٠ و ٢٢٥ و ٢٣٧ و ٢٣٨. وراجع Dozy. Ibid; Vol. II. P. 164 & 165

(٢) ابن خلدون ج ١ (المقدمة) ص ١٩٠، والمسعودى فى مروج الذهب (هامش نفح الطيب ج ١ ص ١٩٩) وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٩٩.

الدينية والمذهبية ؛ فلما ظهرت الدعوة الفاطمية فى إفريقية وتمت بسرعة فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، ولما تواترت الأنباء من جهة أخرى عما انتهت إليه الدولة العباسية فى المشرق من الاضطراب والفوضى وما حدث من استبداد موالى الترك بالأمر وحجرهم على الخلفاء ، رأى عبد الرحمن أن يتّسم بسمة الخلافة وأن يسترد بذلك تراث أسرته الروحى، وأنه بما وفق إليه من النهوض بالدولة الإسلامية وتوطيد أركانها أحق بألقاب الخلافة من دولة منحلة وأخرى طارئة . ونفذ الأمر بذلك فى مستهل ذى الحجة سنة ٣١٦هـ . وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب نص الوثيقة التى صدرت بذلك وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فإنّا أحق من استوفى حقه وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله ما ألبسه للذى فضلنا به وأظهر أثرتنا فيه ورفع سلطاننا إليه ويسر على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه ، وللذى أشاد فى الآفاق من ذكرنا وعلو أمرنا وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم إلينا واستبشارهم بدولتنا ، والحمد لله ولى الأنعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه ، وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك — إذ كل مدعو بهـذا الإسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ومتسم بما لا يستحقه ، وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه واسم ثابت أسقطناه فأمُر الخطيب بموضعك أن يقول به وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله . والله المستعان . وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة سنة ٣١٦ »[١].

وهكذا اتخذ عبد الرحمن سمة الخلافة على يقين بأفضليته وأولوية حقه وحق أسرته وتسمى بأمير المؤمنين الناصر لدين الله وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ (يناير سنة ٩٢٩م) فكان أول أمير من بنى أمية بالأندلس ينعت بأمير المؤمنين ؛ وبدأت الدعوة من ذلك الحين لبنى أمية بألقاب الخلافة فى الأندلس والمغرب الأقصى، ونقشت ألقاب الخلافة على السكة ؛ ويضع بعض المؤرخين اتخاذ لقب الناصر لسمة

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٢ .

الخلافة فى سنة ٣٢٧ ﻫ ، أى بعد وقوعه بنحو عشرة أعوام وهو تحريف واضح ينقضه وثيقة الدعوة الرسمية[١] .

٥

ننتقل الآن إلى ناحية أخرى من نواحى عصر الناصر .

كان عصر عبد الرحمن الناصر بالرغم مما شغله من فتن وحروب مستمرة ، عصر عظمة ورخاء ومجد ، بل كان فى الواقع أعظم عصور الإسلام بالأندلس ، وفيه بلغت الدولة الأموية بالأندلس ذروة القوة والبهاء ، وكان حد الفصل بين مراحل تقدمها وازدهارها ، ومراحل انحلالها وسقوطها .

ولم تحل مهام الحرب والسياسة دون قيام الناصر بأعمال الإنشاء العظيمة ، وكان فى مقدمتها إنشاء مدينة الزهراء أعظم قواعد الأندلس الملوكية . وكانت قرطبة عاصمة الأندلس قد بلغت يومئذ أوج العظمة والازدهار ، وأضحت تفوق بغداد منافستها فى الشرق بهاء وفخامة . وكان الناصر قد ابتنى إلى جانب القصر الزاهر وهو مقام الملك ، قصراً جديداً سماه دار الروضة وجلب إليه الماء من فوق الجبل ، واستدعى نوابغ المهندسين والبنائين من كل فج ، وأنشأ فى ظاهر قرطبة متنزهات عظيمة ساق إليها الماء من أعلى الجبل فوق قناطر بديعة ؛ ومع ذلك فقد كانت قرطبة بمعاهدها ودورها وطرقها الزاخرة وسكانها الخمسمائة ألف ، تضيق بما يتطلبه مُلْك عظيم كملك الناصر من استكمال الفخامة الملوكية والقصور والميادين والرياض الشاسعة ، بل كانت تضيق بهذه المرافق الملوكية منذ عهد عبد الرحمن الداخل حيث أنشأ الرصافة فى ظاهرها لتكون له منزلا ومتنزهاً ملوكياً . وقد كان بناء القواعد الملوكية دائماً سنة العروش القوية الممتازة فلما بلغ الناصر لدين الله ما أراد من توطيد ملكه وسحق أعدائه فى الداخل والخارج ، عنى بأن يعرض آيات من ملكه الباذخ ، وثاب له رأى فى أن يقيم بجوار قرطبة

---

(١) هذه رواية ابن الأثير (ج ٨ ص ١٧٨) وكذلك ابن خلدون (ج ٤ ص ١٣٧) . والظاهر أن أصحاب هذه الرواية لم يطلعوا على وثيقة الدعوة التى أثبتنا نصها .

ضاحية ملوكية عظيمة فأنشأ مدينة الزهراء ؛ ولإنشاء الزهراء قصة ربما كانت أسطورة على مثل الأساطير التي ترتبط بقيام المدن والمنشآت العظيمة . ولم تقل لنا الرواية إن الناصر رأى حلماً كالذي رآه قسطنطين فأوحى إليه بإنشاء قسطنطينية ، ولكنها تقول لنا إن الذي أوحى إلى الناصر ببناء هذه الضاحية الملوكية هي جاريته وحظيته الزهراء ، وإنه ورث من إحدى جواريه مالاً كثيراً وأمر أن يخصص لافتداء الأسارى المسلمين ولكنه لم يجد من الأسارى من يفتدى ، فأوحت إليه « الزهراء » أن ينشئ بهذا المال مدينة تسمى باسمها وتخصص لسكناها[١] . بيد أنا نفضل أن نرجع مشروع الناصر إلى بواعث الملك والسياسة ، وإلى عرض فخامة الملك والترفع بمظاهره وخصائصه عن المظاهر العامة لعاصمة مكتظة زاخرة .

والظاهر أيضاً أن شغفا خاصاً بالعمارة والبناء كان يحفز الناصر ويذكي رغبته فى إقامة هذه الضاحية الملوكية ، وقد كانت المنشآت والهياكل العظيمة على كر العصور مظهر الملك الباذخ والسلطان المؤثل ، وقد نسبت إلى الناصر فى ذلك أبيات قالها فى هذا المعنى :

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها … من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم … ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه … أضحى يدل على عظيم الشان

وهكذا اختطت الزهراء فى ساحة تقع شمال غربى قرطبة على قيد أربعة أميال أو خمسة منها فى سفح جبل يسمى جبل العروس[٢] . وكان البدء فى بنائها فى فاتحة المحرم سنة خمس وعشرين وثلثمائة (نوفمبر سنة ٩٣٦ م) وعهد الناصر إلى ولده وولى عهده الحكم بالإشراف على بناء العاصمة الجديدة[٣] ، وحشد لها أمهر المهندسين والصناع

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .
(٢) نزهة المشتاق للادريسى (طبع رومة) ص ١٩٣ ، والمسالك والممالك لابن حوقل (ص ٧٨) ويسمى ابن حوقل هذا الجبل بجبل بطلش .
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٣٦٦ .

والفنانين من سائر الأنحاء ولا سيما من بغداد وقسطنطينية[١]، وجلب إليها أصناف الرخام الأبيض والأخضر والوردى من المرية ورية ومن قرطاجنة إفريقية وتونس ومن الشام وقسطنطينية[٢]. وكان يشتغل فى بنائها كل يوم من العمال والفعلة عشرة آلاف رجل ومن الدواب ألف وخمسمائة، ويعد لها من الصخر المنحوت نحو ستة آلاف صخرة فى اليوم؛ وقدرت النفقة على بنائها بثلثمائة ألف دينار كل عام طوال عهد الناصر أعنى مدى خمسة وعشرين عاما. هـذا عدا ما أنفق عليها فى عهد الحكم[٣]. وابتنى الناصر فى حاضرته الجديدة قصراً منيف الذرى لم يدخر وسعاً فى تنميقه وزخرفته حتى غدا تحفة رائعة من الفخامة والجلال، تحف به رياض وجنان ساحرة؛ وأنشأ فيه مجلساً ملوكياً جليلاً سمى بقصر الخلافة صنعت جدرانه من الرخام المزين بالذهب، وفى كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب والجوهر، وزينت جوانبه بالتماثيل والصور البديعة، وفى وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق، وكانت الشمس إذا أشرقت على ذلك المجلس سطعت جوانبه بأضواء ساحرة[٤]. وزود الناصر مقامه فى قصر الزهراء وهو الجناح الشرقى المعروف بالمؤنس بأنفس التحف والذخائر، ونصب فيه الحوض الشهير الذى أهدى إليه من قيصر قسطنطينية وأقام عليه اثنى عشر تمثالاً من الذهب الأحمر المرصع بالجوهر وهى تمثل بعض الطيور والحيوانات وتقذف الماء من فيها إلى الحوض[٥]. وقد دون هذه الروايات والأوصاف العجيبة التى تشبه أوصاف قصور ألف ليلة المسحورة عن قصر الزهراء أكثر من مؤرخ معاصر وشاهد عيان، وأجمعت الروايات على أنه لم يبن فى أمم الإسلام مثله فى الروعة والأناقة والبهاء[٦].

وأنشأ الناصر فى الزهراء أيضاً مسجداً عظيماً تم بناؤه فى ثمانية وأربعين يوماً

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ ونفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ . (٤) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ و ٢٤٧ .

(٥) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦ . (٦) « « ج ١ ص ٢٦٤ و٢٦٥ .

وكان يعمل فيه كل يوم ألف من العمال والصناع والفنانين ، وزود بعمد وقباب فخمة ومنبر رائع الصنع والزخرف ، فجاء آية فى الفخامة والجمال[١] ؛ وأنشئت بها مجالات فسيحة للوحوش متباعدة الساح ، ومسارح للطير مظللة بالشباك ، ودار عظيمة لصنع السلاح وأخرى لصنع الزخارف والحلى[٢] . والخلاصة أن الناصر أراد أن يجعل من الزهراء قاعدة ملوكية حقة ، تجمع بين فخامة الملك الباذخ وصولة السلطان المؤثل وعناصر الإدارة القوية المدنية والعسكرية .

واستمر العمل فى منشآت الزهراء طوال عهد الناصر أعنى حتى وفاته فى سنة خمسين وثلثمائة ، واستمر معظم عهد ابنه الحكم المستنصر ، واستغرق بذلك من عهد الخليفتين زهاء أربعين سنة[٣] . ولكنها غدت منزل الملك والخلافة مذ تم بناء القصر والمسجد فى سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، وبذا كانت أول منزل للخلافة الإسلامية بالأندلس .

وقد انتهت إلينا عن هذه الضاحية الملوكية الشهيرة أوصاف وأرقام مدهشة تنبئ عما كانت عليه من الضخامة والفخامة ، فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس أن الزهراء كانت تشغل مسطحاً قدره تسعمائة وتسعون ألف ذراع ، وأن مبانيها اشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين صغيرة وكبيرة منها ما جلب من مدينة رومة ومنها ما أهداه قيصر قسطنطينية ، وأن مصاريع أبوابها كانت تبلغ زهاء خمسة عشر ألفاً وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه . وذكر مؤرخ آخر أن عدد الفتيان بالزهراء كان ثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين فتى ، وعدد النساء والحشم بالقصر ستة آلاف وثلثمائة يصرف لهم فى اليوم ثلاثة عشر ألف رطل من اللحم سوى الدجاج والحجل وغيرها[٤] . وقد لا نجد فى المنشآت الملوكية الحديثة ما يذكرنا بهذه الأرقام المدهشة سوى القصر البابوى أو قصر الفاتيكان الشهير برومة وما انتهى إليه خلال العصور المتعاقبة من الضخامة والفخامة والجلال ، فإن هذا المقام الكنسى الملوكى الفخم يحتوى

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٦٢٤ . (٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ .
(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ . (٤) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

على أربعة آلاف غرفة وعلى مئات الأبهاء والساحات والأورقة ، ويضم عدة أجنحة ومجالس رائعة ، أسبغ عليها أبدع ماعرف الفن الرفيع ، من آيات الزخرف والنقش والتصوير .

ولكن الزهراء لم تعمر طويلاً كقاعدة ملوكية ، فقد لبثت قاعدة الملك والخلافة زهاء أربعين عاماً فقط مذ نزل بها الناصر سنة ٣٢٩ هـ حتى نهاية عهد ابنه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ ؛ ولم يكن ذلك لأن الزهراء قد عفت كقاعدة ملوكية ، ولكن لأن تحولا خطيراً قد وقع فى سلطان بنى أمية عقب وفاة الحكم ، إذ استطاع محمد بن أبى عامر (الحاجب المنصور) أن يتغلب على الدولة وأن يحجر على الخليفة الطفل هشام المؤيد ولد الحكم ، ثم رأى أن ينقل قاعدة الحكم إلى ضاحية ملوكية جديدة أنشأها بجوار قرطبة على نهر الوادى الكبير وسماها « الزاهرة » ، وبذلك اختتمت حياة الزهراء الملوكية .

٦

تولى عبد الرحمن الناصر عرش مملكة تفاقمت من حولها الخطوب ، واستنفدت مواردها الثورة ، فتداركها بعزمه وقوة نفسه ، واستطاع أن يسحق خصومها فى الداخل والخارج فى سلسلة طاحنة من الحروب والغزوات المستمرة ، وأن يوطد دعائمها وأن يخضع الجزيرة لصولتها ، وأن يكفل لها الأمن والسكينة والرخاء .

ولم يفت الناصر منذ البداية أن الجيش عماد الدولة وسياج الملك ، فعكف على إصلاح الجيش الذى أضناه الكفاح ضد الثورة وحشد له الجند من سائر أنحاء اسبانيا والمغرب ، واستكثر من الأسلحة والذخائر ، وصقلت الحروب والغزوات المستمرة كفاية الجيش ودربته ، وأمدته بطائفة من أمهر القادة وأشدهم بأساً ، ورفعت القوة المعنوية بين الصفوف ؛ وكان إقدام الأمير على تولى القيادة بنفسه مجدداً لعهد الحماسة الحربية والانتصارات الباهرة . وعنى عبد الرحمن فى الوقت نفسه بأمر الأسطول وإصلاحه فأنشأ له وحدات جديدة قوية ، وأصبح للأندلس من ذلك العهد أسطول قوى كامل الأهبة

يسيطر على مياه إسبانيا الجنوبية والشرقية، وينازع الفاطميين سيادة الشق الغربي من البحر الأبيض المتوسط .

وكان عهد الناصر بالرغم من استمرار الحروب والغزوات كما قدمنا عهد رخاء ويسر، توطدت فيه مالية الدولة وامتلأت خزائنها بالأموال الوفيرة، وزاد الخراج زيادة عظيمة باستتباب السكينة والأمن، وازدهار الزراعة والتجارة والصناعة، وكثرة الأخماس والغنائم . وإن فيما احتوته الزهراء من القصور والمنشآت الباذخة وما بذل لإقامتها من النفقات مدى أعوام طويلة، لما يستوقف النظر ويحمل على تأمل ذلك المدى المدهش الذى بلغته الدولة الأموية بالأندلس فى عهد الناصر من القوة والضخامة والغنى ؛ وقد انتهت إلينا فى ذلك أرقام مدهشة منها أن جباية الأندلس بلغت فى عهد الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار، هذا عدا أخماس الغنائم التى لا تحصى . وقيل إن الناصر خلف عند وفاته فى بيوت الأموال ما تبلغ قيمته خمسة آلاف ألف ألف (خمسة آلاف مليون) دينار ؛ وكان يقسم الجباية من أجل النفقة إلى ثلاثة أثلاث : ثلث لنفقة الجيش وثلث للبناء والمنشآت العامة وثلث يدخر للطوارئ[1] . ولم يتردد المؤرخ الحديث فى قبول هذه الأرقام حتى أن العلامة دوزى ينقلها ويقدر أن الناصر ترك عند وفاته فى بيت المال عشرين مليوناً من الذهب[2] . ويقول لنا ابن حوقل الرحالة البغدادى الذى زار قرطبة فى هذا العهد إن الناصر كان أغنى ملوك عصره وانه وبنو حمدان ملوك حلب والجزيرة أغنى ملوك العالم فى ذلك العصر[3] . وهذه أرقام وروايات تشهد بضخامة الدولة الأموية وغناها الطائل فى عصر الناصر، وتفسر لنا كيف استطاع الناصر إلى جانب حروبه وغزواته أن يضطلع بكثير من المنشآت العظيمة .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٧٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧ .

(٢) Dozy ; Ibid ; Vol. II. p. 173

(٣) ابن حوقل المسالك والممالك ص ٧٧ .

وبلغت الأندلس فى عهد الناصر ذروة الرخاء والنعماء والأمن والعزة ، وزهت الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم والآداب والفنون ، وشمل الأمن سائر أطراف المملكة ورخصت كلفة العيش ، ونمت قرطبة نمواً عظيما حتى بلغ سكانها أكثر من خمسمائة ألف ، وبلغت مساجدها ثلاثة آلاف ومنازلها أكثر من مائة ألف وحماماتها العامة ثلاثمائة وضواحيها ثمانية وعشرين ، وازدانت بعدد كبير من القصور والمتنزهات الفخمة ، ودوت شهرتها فى الآفاق ووصلت إلى قاصية الشمال حتى أن الراهبة السكسونية هروسوفيتا التى اشتهرت بنظمها فى أواخر القرن العاشر أشادت فى قصائدها اللاتينية بمحاسن قرطبة ووصفتها بأنها « زينة الدنيا » [(١)].

٧

كانت سياسة الدولة الأموية بالأندلس تقوم منذ البداية على اصطناع الموالى والصقالبة واتخاذهم أداة وبطانة ، وكان مؤسسها عبد الرحمن الداخل قد عمد بتأثير الظروف العصيبة التى أحاطت بقيام ملكه ، والخطوب والثورات الجمة التى أثارها خصومه ومنافسوه من زعماء القبائل العربية ، إلى الاسترابة بالعرب واصطناع البربر والموالى الذين آزروه وقت المحنة ومكنوه من توطيد زعامته وإمارته . وقد حافظ خلفاء الداخل على هذه السياسة فى جوهرها . ومنذ عهد الحكم المنتصر (١٨٠—٢٠٦ ﻫ) نرى نفوذ الموالى والصقالبة يشتد فى البلاط وفى الدولة ، وكان الحكم يعشق مظاهر الفخامة والملك الباذخ ، فغص البلاط الأموى فى عهده بالخدم والحشم من المماليك والصقالبة . بيد أن نفوذهم لبث مدى حين بعيداً عن شئون الدولة العليا مقصوراً على شئون القصر والخاص .

واقتفى عبد الرحمن الناصر أثر سياسة جده الداخل فى الاسترابة بالقبائل العربية ذات البأس والعصبية ، وفى إقصاء زعمائها عن مناصب النفوذ والثقة ، واستأثر بكل سلطة حقيقية فى الدولة ، وجمع مقاليد الحكم كلها فلم يبق سلطة فعلية لحاجب أو وزير .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٥ ، وكذلك Dozy Ibid; V. II. p. 179

وكان الناصر حريصاً على سلطانه المطلق لا يني عن سحق كل من حدثته نفسه بالوقوف فى سبيله ولو كان أقرب الناس إليه . ولما نمى إليه أن ولده عبد الله يأتمر به مع بعض فتيان القصر ورجال الدولة لأنه آثر أخاه الحكم بولاية العهد وتصريف الشئون، لم يحجم عن أن يقضى بإعدامه وإعدام جميع من اتجهت إليهم شبهة الاشتراك معه[1] . وكذلك قضى الناصر بإعدام بعض عومته وأخيه القاضى ابن محمد حين قامت الأدلة على ائتمارهم[2] . وعهد الناصر بالمناصب الكبيرة إلى رجال وضيعى المنبت من الصقالبة والموالى المعتقين أو الأرقاء وهم رجال لا إرادة لهم يوجههم كيفما شاء ، وكان يثق بالصقالبة بنوع خاص ويوليهم من السلطان والنفوذ ما لا يوليه سواهم[3] .

وقد كانت كلمة « الصقالبة » تطلق فى الأندلس على الأسرى والخصيان من الأجناس الصقلبية (السلافية) الحقيقية ، ثم غدت تطلق بمضى الزمن على جميع الأجانب الذين يخدمون فى البطانة وفى القصر . وكان أولئك الصقالبة مزيجاً من الجليقيين (النصارى الأسبان) والألمان والفرنسيين واللومبارديين والإيطاليين[4] ، وكان معظمهم يؤتى بهم أطفالاً بواسطة خوارج البحر (القرصان) وتجار الرقيق ، وكانوا يختارون من الجنسين ويربون منذ الحداثة تربية عربية حسنة ويلقنون مبادئ الإسلام ، وقد نبغ بعضهم فى النثر والنظم وصنفوا الكتب والقصائد . ومنذ عهد الناصر يشتد نفوذ الصقالبة فى شئون الإدارة والحكم فضلا عن القصر والخاص ويعهد إليهم بالمناصب الكبرى فى القصر والإدارة والجيش ؛ وما لبث أن سما شأنهم وتوطد سلطانهم وأحرزوا الضياع والأموال الوفيرة ، وفاق عددهم فى عهد الناصر أى عهد آخر حتى قدر بعض المورخين عددهم يومئذ فى القصر والبطانة بثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين ، وبلغوا فى رواية أخرى سبعة آلاف وثمانين ، وفى رواية ثالثة ثلاثة

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ .

(٣) Dozy, Ibid ; V. II. p. 153

(٤) ابن حوقل فى المسالك والممالك ص ٧٥ .

آلاف وسبعمائة وخمسين ، وعلى أى حال فقد كان منهم الحرس الخلافى ورجال الخاص والحشم ، وكان الناصر يمد لهم فى السلطان والنفوذ ويرغم أشراف العرب وزعماء القبائل على الخضوع لهم ليذل بذلك أنوفهم ويسحق هيبتهم [1] . بل كان منهم فى عهد الناصر قائد الجيش الأعلى نجدة ومعظم أكابر القادة والضباط ، وكان منهم أفلح صاحب الخيل ودرّى صاحب الشرطة ، ومنهم ياسر وتمام صاحبا النظر على الخاص [2] ؛ وكان لهذه السياسة غير بعيد أسوأ الأثر فى انحلال الجيش وفتور قواه المعنوية لما جاشت به صدور الضباط والجند العرب من الحفيظة والسخط على هذه السياسة المهينة ؛ وكانت هزيمة الناصر فى موقعة الخندق الشهيرة (ألانديجا) (٣٢٧ هـ) ترجع من وجوه كثيرة إلى هذا الانحلال المعنوى الذى سرى إلى الجيش من جراء الأحقاد القومية والطائفية [3] .

٨

كانت الأندلس بما اجتمع لها فى عهد الناصر من أسباب القوة والسلطان قد تبوأت مركز الصدارة بين الدول الإسلامية ، وكانت الدولة العباسية قد دخلت يومئذ فى دور انحلالها ولم تكن الدولة الفاطمية الفتية منافستها فى المشرق قد بلغت يومئذ ذروة قوتها ونفوذها ، فكانت الأندلس تستأثر يومئذ بزعامة الإسلام . وكانت قرطبة مركز الجاذبية الدبلوماسية فى العالم الإسلامى تتجه إليها أبصار الدول النصرانية فى طلب المودة وعقد العلائق الدبلوماسية .

وكان عصر الناصر من أحفل العصور بصلات الإسلام والنصرانية ، فكانت ثمة معاهدات وسفارات وعلائق سياسية بين قرطبة ومعظم الأمم النصرانية ؛ وتوالت وفود ملوك النصرانية يومئذ على بلاط قرطبة ينشدون الحلف والصداقة والمهادنة من زعيم الإسلام فى الغرب . ففى صفر سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٨ م) وفدت على الناصر رسل

(١) Dozy; Ibid; Vol. II. p. 153 . وراجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٣ ونفح الطيب ج ١ ص ١٧١ .

(٣) Dozy; Ibid; V. II. p. 153

قسطنطين السابع امبراطور قسطنطينية المعروف ببورفيروجنتوس بهدية ثمينة، واحتفل الناصر بقدومهم فى يوم مشهود زين فيه القصر الخلافى بأبدع زينة، وركبت العساكر فى أكمل نظام، وجلس الناصر على عرشه الفخم يحف به أعضاء الأسرة المالكة والوزراء والحجاب، وأقبل الرسل فهالهم ما رأوا من بهجة الملك وفخامة السلطان، وقدموا إلى الناصر كتاب الإمبراطور مكتوباً باليونانية وعلى الكتاب طابع ذهبى على أحد وجهيه صورة المسيح وعلى الآخر صورة الإمبراطور مصنوعة من الزجاج الملون البديع وفى ترجمة عنوانه ما يأتى :

« من قسطنطين ورومانين[1] المؤمنين بالمسيح الملكين العظيمين ملكى الروم إلى العظيم الاستحقاق الفخر، الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس أطال الله بقاه » وخطب أعلام الإسلام يومئذ فنوهوا بما بلغه الإسلام على يد الناصر من الإعزاز والقوة واجتماع الكلمة .

ولما انصرف رسل الإمبراطور بعث الناصر معهم سفيره هشام بن هذيل بهدية حافلة ليؤكد المودة و يوثق عرى التحالف بين المملكتين ، فرجع بعد سنتين وقد أدى سفارته خير أداء .

وتفيض الرواية الإسلامية فى تفاصيل هذه السفارة إفاضة واضحة[2] ولكنها لا تلقى كبير ضوء على موضوعها وغايتها ، وأكبر الظن أنها لم تكن إلا تجديداً لعلائق الدولة البيزنطية مع دولة الإسلام بالأندلس وتوطيداً للصداقة القديمة التى رأى بلاط قسطنطينية أن يعقدها مع بلاط قرطبة منذ عهد عبد الرحمن بن الحكم لتكون شبه تحالف مثالى ضد الدولة العباسية خصيمتهما المشتركة ، وربما كانت ترمى فى الوقت نفسه إلى تنظيم الخطط المشتركة لمقاومة الدولة الفاطمية الفتية التى بدأت تزعج البيزنطيين فى أواسط البحر الأبيض المتوسط وتزعج حكومة قرطبة بتوغلها فى المغرب الأقصى .

---

(١) هو رومانوس الثانى ابن قسطنطين السابع .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٠-١٤٣ ، والبيان المغرب ج٢ ص ٢٣٩، ونفح الطيب ج١ ص ١٧١

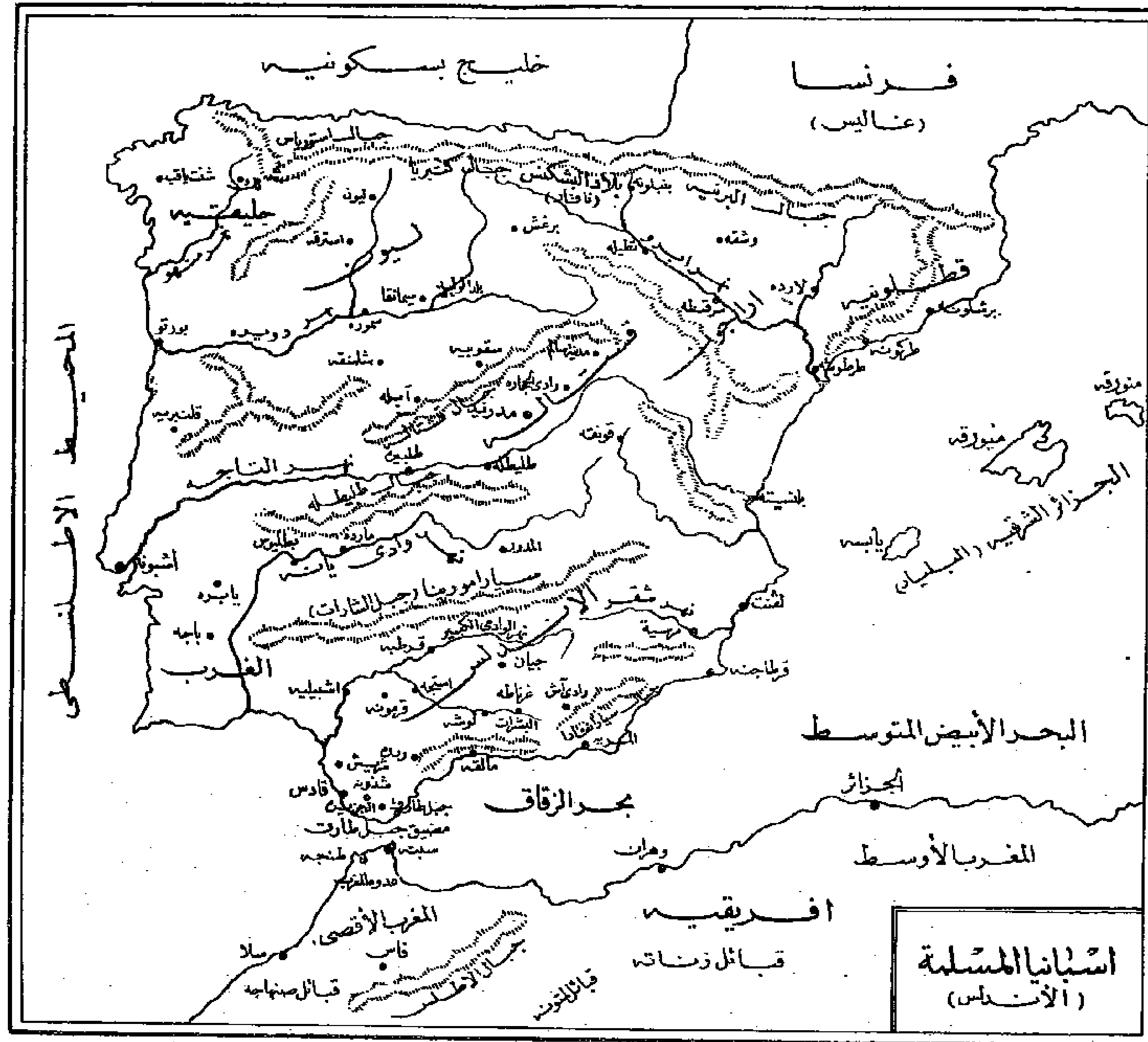
ثم توالت سفارات ملوك النصرانية بعدئذ على الناصر ، فوفدت عليه رسل ملك الصقالبة وهو يومئذ الملك بيتر أو بطرس[(١)] ، فاحتفل بقدومهم كذلك و بعث معهم ربيعاً (ريفا) الأسقف سفيراً إلى ملكهم . ثم وفدت رسل ملك فرنسا وهو يومئذ لويس الرابع فى طلب الصداقة والمودة فأجابهم إلى ما طلبوا .

على أن أهم سفارة تلقاها الناصر يومئذ هى سفارة أوتو الأكبر أمبراطور ألمانيا ؛ وقد كان أوتو يومئذ زعيم النصرانية كما كان عبد الرحمن الناصر زعيم الإسلام . وتشير الرواية الإسلامية إلى تلك السفارة فى غموض و إيجاز وتصف أوتو بملك الصقالبة أو ملك « اللمان » وتسميه « هوتوا » أو « هوتتو »[(٢)] ، ولكنها تتفق مع الرواية الفرنجية فى تاريخ هذه السفارة وهو سنة ٣٤٢ هـ الموافقة سنة ٩٥٦ م ففى ذلك العام وفد على قرطبة سفير وهو حبر يدعى يوحنا الجورزينى نسبة إلى الدير الذى ينتمى إليه فى جورزنى على مقربة من متز ، وكان يوحنا من أكابر العلماء وأقطاب البحث والمناظرة . والظاهر أنه قد وقعت قبل ذلك مراسلات كلامية بين الناصر وأوتو عن الإسلام والنصرانية ، وأن يوحنا كان مكلفاً بالدفاع عن قضية النصرانية لدى زعيم الإسلام ؛ بيد أنه يبدو من أقوال الرواية الكنسية أن مهمة سفارته الأصلية كانت بشأن توغل المستعمرات الإسلامية المغامرة فى جنوبى فرنسا وليجوريا وسويسرة وعيثها فى تلك الأنحاء ، والاستعانة بنفوذ خليفة الأندلس الذى تنتمى إليه هذه المستعمرات من الناحية الأدبية لوقف عدوانها وتوغلها . ووصل يوحنا إلى قرطبة ومعه طائفة من الهدايا النفيسة ، فاستقبل بحفاوة ولكن الناصر لم يبادر باستقباله حين وقف على موضوع رسالته ؛ ولما ألح يوحنا فى المقابلة أجاب الناصر بأنه سبق أن أرسل إلى أوتو رسولا حبرا فاعتقله مدى ثلاثة أعوام ، وأنه سيعتقله أى يوحنا أضعاف هذه المدة لأنه أرفع مقاماً من ملك النصرانية ؛ وأخيراً تقرر أن يرسل الناصر

---

(١) هو بطرس بن سيمون الكبير ملك بلغاريا وقد كانت يومئذ تعرف بمملكة الصقالبة .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤ .


اسبانيا المسلمة
(الأندلس)
خليج بسكونيه
فرنسا
(غاليس)
البحر الأبيض المتوسط
بحر الزقاق
المغرب الأوسط
افريقيه
قبائل زناته
المغرب الأقصى
فاس
قبائل صنهاجة
الجزائر
وهران
سبتة
طنجة
قادس
اشبيلية
قرطبة
غرناطة
مالقه
مرسية
قرطاجنة
لقنت
بلنسية
طليطلة
سرقسطة
برشلونة
طركونة
طرطوشة
لارده
وشقه
برغش
ليون
استرقة
جليقية
سمورة
شلمنقة
سقوبية
آبلة
قونقة
قلمرية
اشبونة
يابرة
باجه
الغرب
منورقة
ميورقة
يابسة
الجزائر الشرقية (البليار)
نهر التاجه
جبال طليطلة
وادي يانه
سييرا مورينا (جبل الشارات)
الوادي الكبير
نهر شقر
جبال البرنيه
جبال كنتبريا
جبال استورياس
البشكنس
بنبلونه
المحيط الأطلسي
مضيق جبل طارق
جبل طارق
المدور
جيان
لورقه
وادي آش
المرية
البشرات
قرمونة
شذونة
شريش
الجزيرة
استجه
قبائل المتونه
سلا

إلى ملك ألمانيا رسولاً آخر يستوثق من عواطفه ونياته نحوه و يبقى يوحنا معتقلا حتى يعود السفير، واختير لهذه السفارة قس من رعايا الخليفة ، هو ر بيع الأسقف ، فاخترق فرنسا إلى ألمانيا ومثل لدى أوتو في تورنجن حيث كان ينفق معظم أوقاته ؛ وكان أوتو يعاني يومئذ بعض المتاعب الداخلية ، فأبدى تساهلا في قبول وجهات نظر الخليفة وأكرم مثوى سفيره، وعاد ر بيع الأسقف إلى قرطبة بعد سنتين من سفره (٣٤٤ هـ — ٩٥٨ م) فارتاح الناصر لنتائج سفارته ، وأذن برؤية يوحنا سفير الامبراطور ، واستقبله بقصر قرطبة في حفل فخم ، وأفضى السفير إلى الخليفة بموضوع سفارته . ولسنا نعرف ما ذا كانت نتائج هذه السفارة لأن الرواية العر بية لا تحدثنا عن موضوعها، ولا تحدثنا الرواية الكنسية عن نتائجها ؛ولكن المرجح أن وجهة النظر التي أبدتها حكومة قرطبة لسفير الامبراطور هو أنها ليست لها علاقة بالمستعمرات العر بية في غاليس (جنوب فرنسا) وأنها لا تتحمل تبعة أعمالها ولا تستطيع أن تبذل نصحها لأولئك المغامر ين الخارجين عن طاعتها[١] .

بيد أن الرواية الكنسية تقدم إلينا بهذه المناسبة حديثاً طر يفاً من آراء الناصر في نظم الحكم ، فقد وقف الناصر من مستشار يه أو من يوحنا نفسه على طرق نظام الحكم الإقطاعي السائد في ألمانيا ، وما يتمتع به بعض الأمراء المحليين في ظل هذا النظام من الاستقلال الداخلي ، وأبدى ليوحنا اعتراضه على هذا النظام قائلاً : «إن ملككم أميرحكيم ماهر ولكن في سياسته شيئاً لا أسيغه ، وهو أنه بدلا من أن يقبض بيديه على جميع السلطة ينزل عن بعضها لأتباعه و يترك لهم بعض ولاياته معتقداً أنه يكسب عطفهم بذلك، وهذا خطأ فادح فإن مداراة العظماء لا يمكن إلا أن تزيد في كبريائهم وتذكي رغبتهم في الثورة»[٢] وفي ذلك ما يوضح لنا فكرة الناصر في الحكم المطلق

---

(١) راجع في موضوع هذه السفارة وتفاصيلها في: Reinaud: Invasions des Sarrazins; p. 137-193 وكذلك ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣

(٢) Dozy; Ibid; V. II. p. 153

وسياسته فى سحق أولى الشأن والعصبية من زعماء القبائل العربية ، واعتماده على بطانة ذليلة من الفتيان الصقالبة والمولدين .

تلك تفاصيل المراسلات والسفارة الشهيرة التى تبادلها أوتو الأكبر وعبد الرحمن الناصر زعيما النصرانية والإسلام فى عصرهما ، بيد أنها لم تكن خاتمة الصلات الدبلوماسية بين الناصر وملوك النصرانية ، فقد تلقى الناصر بعد ذلك فى سنة ٣٤٤ هـ سفارة من أردونو الرابع ملك ليون يرجو عقد السلام والمودة ، فأجابه إلى طلبه وأرسل فى السنة التالية سفيره محمد بن الحسين إلى ليون فعقد مع أردونو معاهدة صادق عليها ولكن حال دون تنفيذها منافسة سانشو لأخيه أردونو ؛ وفى سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) وفدت طوطة ملكة نافار بنفسها إلى قرطبة ومعها ولدها جارسيا وسانشو إمير ليون وطائفة من الأحبار والعظماء النصارى ، فاستقبلهم الناصر فى قصره بالزهراء استقبالا حافلا ، وعقد السلم مع طوطه وأقر ولدها ملكا على نافار ، ووعد سانشو بالعون على استرداد عرشه ؛ ثم وفدت على الناصر رسل البابا يوحنا الثانى عشر فى طلب السلم والمودة بين الإسلام والنصرانية فأجابهم إلى ما طلبوا [1] ، وكانت سفارة ذات مغزى واضح فى الاعتراف بزعامة الناصر للعالم الإسلامى .

٩

فى أوائل سنة ٣٤٩ هـ مرض الناصر من برد شديد أصابه واحتجب حيناً، وأكب الأطباء على معالجته حتى تحسنت حالته نوعاً وعاد إلى الجلوس فى القصر ولكنه أصيب بنكسة وعاد إلى احتجابه ؛ ولبث أشهراً تشتد به العلة حيناً وتخف حيناً حتى وافاه القدر المحتوم فى شهر رمضان سنة ٣٥٠ هـ (أكتوبر سنة ٩٦١ م) وكانت وفاته بقصر الزهراء فى الحادية والسبعين من عمره ، واستطال حكمه زهاء خمسين عاماً وهى أطول مدة حكمها خليفة من خلفاء الإسلام إذا استثنينا عهد المستنصر بالله الفاطمى بمصر.

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ .

وكان عبد الرحمن الناصر أعظم أمراء الإسلام فى عصره ، بل ربما كان أعظم أمراء عصره قاطبة ، ولم تصل الدولة الإسلامية فى الغرب إلى ما وصلت إليه فى عصر الناصر من القوة والسؤدد والهيبة والنفوذ ؛ وكان يتمتع بخلال باهرة قلما تجتمع فى شخصية واحدة عسكرية وإدارية ، ويجمل ابن الأبار خواصه وخواص عصره فى تلك العبارة «وظهر لأول ولايته من يمن طائره وسعادة جدّه واتساع ملكه وقوة سلطانه وإقبال دولته وخمود نار الفتنة على اضطرامها بكل جهة وانقياد العصاة لطاعته ، مما تعجز عن تصوره الأوهام »[1] . وكان عالماً أديباً يهوى الشعر ويقرب الأدباء والشعراء ؛ ويفيض شاعره الفقيه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد فى مناقبه ويستعرض غزواته فى أرجوزة طويلة[2] ؛ ويصفه ابن الأثير بأنه كان أبيض أشهل حسن الوجه عظيم الجسم قصير الساقين[3] . وترك الناصر من البنين أحد عشر ولداً منهم ولى عهده وخلفه الحكم المستنصر بالله .

ويشيد النقد الحديث بمناقب عبدالرحمن الناصر وعصره أعظم إشادة وربما كان أبلغ ما قيل فى ذلك تلك العبارات القوية التى يختتم بها العلامة دوزى حديثه عن عصر عبدالرحمن الناصر : «لقد كانت هذه نتائج باهرة ، ولكنا نجد إذا مادرسنا ذلك العهد الزاهر أن الصانع يثير الاعجاب والدهشة بأكثر مما يثيرهما المصنوع ؛ تثيرهما تلك العبقرية الشاملة التى لم يفلت شىء منها والتى كانت تدعو إلى الإعجاب فى تصرفها نحو الصغائر كما تدعو إليه فى أسمى الأمور . إن ذلك الرجل الحكيم النابه الذى استأثر بمقاليد الحكم وأسس وحدة الأمة ووحدة السلطة معاً ، وشاد بواسطة معاهداته نوعاً من التوازن السياسى ، والذى اتسع تسامحه الفياض لأن يدعو إلى نصحه رجالا من غير المسلمين ، لأجدر بأن يعتبر قريناً لملوك العصر الحديث لا خليفة من خلفاء العصور الوسطى »[4] .

(١) الحلة السيراء ص ٩٩ — ١٠٠ (٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠٨ وما بعدها
(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٧٧ (٤) Dozy; Ibid. V. II p. 175

صبح أم المؤيد

(توفيت نحو ٣٩٠ هـ — ١٠٠٠ م)

حظية خليفة ، أم خليفة ، سيدة مطلقة الرأى، تولى وتعزل الوزراء والقادة ، وتدير شئون السلام والحرب ، حسناء يغنم جمالها ملكا ، و بأس خليفة ، و يسيطر على قصر وحكومة ، صاحبة السلطان المطلق فى دولة من أعظم دول الإسلام ، نصرانية ناڤارية مع ذلك : تلك هى صبح أو صبيحة أو « أورور » قرينة الحكم المستنصر بالله الأموى خليفة الأندلس وأم ولده هشام المؤيد بالله .

يقدم إلينا التاريخ الإسلامى أمثلة كثيرة لنساء أجنبيات من الرقيق أو الأسرى سطعن فى قصور الخلفاء والسلاطين ، وتمتعن بالسلطان والنفوذ ، ولكنه لا يقدم إلينا كثيراً من المواطن التى تستأثر فيها أجنبية نصرانية بالسلطان والحكم المطلق فى دولة إسلامية قوية ، وتسهر على مصاير هذه الدولة بذكاء وعزم ، وتقودها لخير الإسلام والخلافة . والواقع أننا لا نستطيع أن نجد لذلك مثلا أسطع من مثل صبح أو « أورور » تلك الفرنجية الحسناء التى لبثت زهاء عشرين عاما تسيطر بسحرها ونفوذها على خلافة قرطبة ،وتقوم بتدبير شئونها فى السلام والحرب مع أعظم رجالات الأندلس . ولم تك صبح سوى احدى كواكب هـذا الثبت الحافل من النساء الفرنجيات اللائى يقدمهن إلينا تاريخ الأندلس منذ الفتح واللائى يتركن أثرهن فى سير الحوادث أحيانا . ونستطيع أن نذكر منهن « ايلونا » القوطية أرملة رُذَريك (لذريق) ملك القوط عند الفتح وهى التى يسميها العرب « بأم عاصم » فقد تزوجها عبد العزيز بن موسى بن نصير أول حاكم للأندلس بعد الفتح ، وكان نفوذها ووحيها السيء من الأسباب التى أدت إلى مقتله على يد الخوارج عليه (سنة ٩٥ هـ) . ومنهن لامبيجيا الفرنجية الحسناء

ابنة أودو أمير اكوتين ، تروجها عثمان بن أبى نسعة الذى تسميه الرواية الفرنجية « منوزا » أو « مونز » وكان حاكما للولايات الشمالية (البرنيه) ثم تحالف مع أبيها الدوق أودو وأخذ يدبر الخروج على حكومة الأندلس والاستقلال بولايته ، ولكن عبد الرحمن الغافقى أمير الأندلس يومئذ وقف على مشروعه وأرسل لقتاله جيشاً قويا لبث يطارده فى الجبال حتى أخذ وقتل ، وأسرت زوجه الأميرة الحسناء لامبيجيا وأرسلت إلى بلاط دمشق (سنة ١١٣ هـ) . ومنهن ماريا الاسبانية النصرانية زوج الأمير محمد بن محمد ووالدة عبد الرحمن الناصر أعظم خلفاء الأسلام فى الإندلس ويسميها العرب « مزنة» ؛ ومنهن أخيراً « ثريا » النصرانية زوج السلطان أبى الحسن النصرى ملك غرناطة ، وهى فتاة إسبانية وابنة قائد شهير أخذت أسيره فى بعض المعارك التى وقعت بين المسلمين والنصارى وألحقت وصيفة بقصر الحمراء ، فأحبها السلطان أبو الحسن وتزوجها وكان لنفوذها ودسائسها أثر كبير فى اضرام نار الحرب الأهلية فى غرناطة وفى سير الحوادث التى أدت إلى ذهاب دولة الأسلام فى الإندلس .

ظهرت صبح فى بلاط قرطبة فى أوائل عهد الحكم المستنصر بالله (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) (٩٦١ — ٩٧٦ م) . ولسنا نعرف كثير عن نشأتها وحياتها الأولى ، وكل ماتقدمه إلينا الرواية الإسلامية فى ذلك هو أن « صبحاً » كانت جارية بشكنسية[(١)] أى ناقارية[(٢)] . ولا تذكر الرواية إن كانت قد استرقت بالأسر فى بعض المواقع بين المسلمين والنصارى أم كانت رقيقاً بالملك والتداول ، ولكنها تصفها بالجارية والحظية ؛ صبح أو صبيحة ترجمة لكلمة « أورورا » Aurora الفرنجية ومعناها الفجر ، أو الصبح الباكر ، وهو الاسم النصرانى الذى كانت تحمله صبح فيما يظهر[(٣)] . وكانت

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨ و ٢٦٩ ، ودوزى Hist. des Musulmans d'Espagne (الطبعة الجديدة) ج ٢ ص ١٩٠ .

(٢) يسمى العرب إقليم ناقار ببلاد البشكنس محرفة عن اسمها القديم « Bascony » . وأحياناً يسمونها « بسكونيه » .

(٣) راجع كوندى ، (الترجمة الانكليزية) ج ١ ص ٤٩٣ ؛ ودوزى ، ج ٢ ص ١٩٠

صبح فتاة رائعة الحسن والخلال ، فشغف بها الحكم وأغدق عليها حبه وعطفه وسماها بجعفر[١] . ولم تلبث أن استأثرت لديه بكل نفوذ ورأى . وكان الحكم حينما تولى الملك بعد وفاة أبيه عبد الرحمن الناصر قد بلغ السابعة والأربعين من عمره ولم يكن رزق ولداً بعد ، وكان يتوق إلى ولد يرث الملك من بعده فحققت أمنيته على يد صبح، ورزق منها بولد سماه عبد الرحمن سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٢ م) وفرح بمولده أيما فرح وسمت لديه مكانة صبح . ثم ولدت له بعد ذلك بثلاثة أعوام ولداً آخر سماه هشاما (سنة ٣٥٤هـ) .ولكن الحكم رزئ بعدئذ بقليل بوفاة ولده عبدالرحمن فاشتد حزنه عليه وعقد كل آماله على ولده هشام ، ولبثت صبح تستأثر فى البلاط والحكومة بكل نفوذ وسلطان . بيد أنها كانت وافرة الذكاء والحزم بارعة فى تدبير الشئون مخلصة لسيدها ، تعاونه فى تدبير مهام الحكم بذكاء و بصيرة ، وتسهر معه على سلامة الدولة والعرش . ولم تك صبح يومئذ جارية أو حظية فقط بل كانت ملكة حقيقية . ولا تشير الرواية الإسلامية إلى أنها غدت زوجة حرة للحكم المستنصر بعد أن كانت جارية وحظية ، ولكن هنا لك ما يدل على أن صبحاً كانت تتمتع فى البلاط والحكومة بمركز الملكة الشرعية ؛ فالرواية الإسلامية تنعتها بالسيدة صبح أم المؤيد[٢] وتصفها التواريخ الافرنجية « بالسلطانة صبح »[٣] بيد أن هنا لك ما يقطع مع ذلك بأنها بقيت من الوجهة الشرعية جارية و « أم ولد » فقط . وتصفها الرواية الإسلامية بعد موت الحكم بأنها « أم ولد »[٤]. وهو فى الشريعة وصف الجارية التى حملت من سيدها وأصبحت أماً لولده .

وعلى أى حال فقد كانت صبح تحتل مكان الملكة الشرعية ، وتتمتع فى البلاط والحكومة بنفوذ لاحد له ، وكان الحكم يثق بإخلاصها وحزمها ، و يستمع لرأيها فى

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١و٢٥٣ .
(٢) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧؛والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ .
(٣) راجع كوندى ج ١ ص٤٨٠ و٤٩٣ ودوزى ج ٢ ص ١٩٠و١٩٨ .
(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٩ ، والمعجب للمراكشى ص ١٤ .

معظم الشئون ، وكانت كلمتها هى العليا فى تعيين الوزراء ورجال البطانة . وكان كبير الوزراء الحاجب جعفر بن عثمان المُصَحَّفى يجتهد فى خدمتها و إرضائها و يستأثر لديها ولدى الحكم بنفوذ كبير ؛ واستمرت الحال حيناً على ذلك حتى دخلت فى الميدان شخصية جديدة قدر لها أن تضطلع فيما بعد بأعظم قسط فى توجيه مصاير الأندلس ، تلك هى شخصية فتى مغمور يدعى محمد بن عبد الله بن أبى عامر المعافرى ، أصله من الجزيرة الخضراء من قرية طُرُّش ، ووفد على قرطبة حدثاً ودرس فى معاهدها درساً مستفيضاً و برع فى الآداب والشريعة ، وكان طموحاً مضطرم النفس والعزم رفيع المواهب والخلال ، وكان فى نحو السابعة والعشرين من عمره حينما أراد الحكم أن يعين مشرفاً لإدارة أملاك ولده عبد الرحمن ، ورشحه الحاجب المصحفى فيمن رشح لتولى هذا المنصب ، وأعجبت صبح بذكائه وحسن روائه وظرف شمائله فاختارته دون غيره ، وعين بمرتب قدره خمسة عشر ديناراً فى الشهر وذلك فى أوائل سنة ٣٥٦ هـ (٣٦٧ م)[١] ، ولما توفى عبد الرحمن عين مشرفاً لأملاك أخيه هشام . وتقدم بسرعة فى وظائف الدولة فأضيف إليه النظر على الخزانة العامة ، ثم عين للنظر على خطة المواريث فقاضياً لكورة إشبيلية ، ثم عينه الحكم مديراً للشرطة ، وفى أواخر أيامه عينه ناظراً على الحشم (ناظراً للخاص) .

ويرجع الفضل فى تقدم محمد بن أبى عامر بتلك السرعة إلى مواهبه وكفايته الباهرة ، ولكنه يرجع بالأخص إلى عطف صبح عليه وحمايتها له . وقد انتهى هذا العطف غير بعيد إلى النتيجة الطبيعية . كانت صبح امرأة حسناء لاتزال فى زهرة شبابها ، ولا يزال قلبها يضطرم حباً وجوى ، وكان سيدها الحكم قد أشرف على الستين وهدمه الإعياء والمرض؛ أما ابن أبى عامر فقد كان فتى فى نضرة الشباب ، وسيم

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ . ويقدم المقرى عن ابن حيان رواية أخرى عن اتصال ابن أبى عامر بصبح خلاصتها أنه كان يجلس فى دكان عند باب القصر ليكتب للخدم والمترافعين للسلطان إلى أن طلبت صبح من يكتب عنها فعرفها به من كان يأنس الجلوس إليه من فتيان القصر فاستحسنت كتابته وعينته أميناً لبعض شئونها (نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧) .

الحيا ، حسن القد والتكوين ، ساحر الخلال ، وكان يفتنّ من جهة أخرى فى خدمة صبح و إرضائها ولا ينفك يغمرها بنفيس الهدايا والتحف ، حتى لقد أهداها ذات مرة قصراً صغيراً من الفضة بديع الصنع والزخرف ، لم ير مثله من قبل بين تحف القصر وذخائره ، وشهده أهل قرطبة حين حمله من دار ابن أبى عامر إلى القصر ، فكان منظراً يخلب الألباب ولبثوا يتحدثون بشأنه حيناً ، فكانت هذه العناية تقع من قلب صبح أحسن موقع ، وتزيدها عطفا على ابن أبى عامر وشغفاً به ؛ وكان الحكم يشهد هذا السحر الذى ينفثه ابن أبى عامر إلى حظيته و إلى نساء قصره جميعاً ويعجب له ، ويروى أنه قال يوماً لبعض ثقاته : « ما الذى استلطف به هذا الفتى حرمنا حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن حتى صرن لا يصفن إلا هداياه ، ولا يرضين إلا ما أتاه ، إنه لساحر عليم أو خادم لبيب وإنى خائف على ما بيده »[1]. ولم تلبث علائق صبح وابن أبى عامر أن ذاعت وغدت حديث أهل قرطبة ، ولم يك ثمة ريب فى أنها استحالت غير بعيد إلى علائق غرامية ، وربما ارتاب الحكم فى طبيعة هذه العلائق وثاب له رأى فى نكبة ابن أبى عامر ؛ وسعى لديه بعض خصومه واتهموه بأنه يبدد الأموال العامة التى عين للنظر عليها فى شراء التحف والإنفاق على أصدقائه ، فأمره الحكم أن يقدم حساب الخزانة العامة ليتحقق من سلامتها وكان فى الخزانة عجز لجأ ابن أبى عامر فى تداركه وسده إلى صديقه الوزير ابن جدير ، فأغاثه وتقدم إلى الحكم سليم العهدة برىء الذمة ، فزالت شكوكه وتوطدت ثقته فيه ؛ واستمر ابن أبى عامر متمتعاً بنفوذه ينتدب لعظيم المهام والشئون وهو خلال ذلك كله يحرص على عطف صبح و يستزيد منه ، ويصانع الحاجب جعفر ويجتهد فى إرضائه وكسب ثقته ، ويخلق حوله حزباً من الصحب والأنصار بسحر خلاله ووافر بذله ومروءته ، وبارع وسائله وأساليبه .

وكانت أعظم أمنية للحكم فى آخر أيامه أن يضمن البيعة من بعد وفاته لولده

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٦٨ .

أبى الوليد هشام ، وهو يومئذ غلام فى نحو العاشرة من عمره ، وكانت أمه صبح تشاطره هذه الأمنية ، وكان أشد ما يخشاه الحكم أن ينتزع الملك من بعده أخوه المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ، فرأى تفادياً من ذلك أن يعلن بيعة ولده أثناء حياته ويضع رجال الدولة والأمة أمام الأمر الواقع ، ونفذ هذا المشروع فى جمادى الآخرة سنة ٣٦٥ هـ (فبراير سنة ٩٧٦ م) وعقدت البيعة لهشام فى حفل جامع بالقصر ، وأعلن الحكم أنه يقلد ولده الخلافة من بعده ، وأخذت له البيعة من الحاضرين ، ودعى له فى الخطبة على المنابر ونقش اسمه فى السكة ، وأنفذت الكتب إلى النواحى لأخذها من الأكابر والأعيان ؛ وتولى تنظيم البيعة والشهادة محمد بن أبى عامر وهو يومئذ مدير الشرطة وناظر المواريث ، وميسور الكاتب مولى صبح ، واطمأن الحكم بذلك على مصير ملكه ومستقبل ولده نوعاً ، ولكنه لم يعش بعد ذلك سوى بضعة أشهر وكان المرض يشتد عليه منذ حين ثم أصابه الشلل ؛ وتوفى فى الثالث من صفر سنة ٣٦٦ هـ (أول أكتوبر سنة ٩٧٦ م)

***

ولما توفى الحكم المستنصر بالله كانت مقاليد السلطة مجتمعة فى أيدى ثلاثة : هم صبح أم هشام ، والحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، ومحمد بن أبى عامر ، وكان قد أضيف إليه النظر على الحشم (نظر الخاص) . ولم يكن يعترض على بيعة هشام سوى صقالبة القصر ، وكانوا زهاء ألف ولهم نفوذ عظيم ، وكان رأيهم أن تأخذ البيعة للمغيره بن الناصر أخى الحكم ، ولكن الحاجب جعفر وقف على مشروعهم فى الحال واستدعى القواد والجند الذين يثق بإخلاصهم تحوطاً للطوارئ ، واتفقت الكلمة على تولية هشام وقتل المغيرة ، ولم تمض ثلاثة أيام على وفاة الحكم حتى بويع ولده هشام ولقب بالمؤيد بالله ؛ وتولى الحاجب جعفر وابن أبى عامر تنظيم البيعة ، وتولى ابن أبى عامر فى نفس الوقت تدبير مقتل المغيرة بن الناصر ، فنفذ إليه الجند ليلة البيعة وقتلوه . ومنحت السيدة صبح الوصاية على ولدها ، وكان فى نحو الثانية عشرة من عمره ، وتم بذلك

مشروع الحكم المستنصر ومشروع الثلاثة ذوى السلطان من بعده ؛ وكان طبيعياً أن تحرص صبح على تولية ولدها لتحكم باسمه ، وكان طبيعياً أن يؤازر ابن أبى عامر صاحبته والمحسنة إليه ليستمر بواسطتها محتفظاً بنفوذه ، وليستطيع أن يحقق على يدها ومن طريق تغلبها على ولدها ما يضطرم به من الأطماع الخفية . أما الحاجب جعفر فكان له مثل ذلك الباعث فى تولية هشام إذ كان يخشى أن يتولى الملك رجل قوى كالمغيرة فيفقد نفوذه وسلطانه ؛ وهكذا جمعت البواعث والغايات المشتركة بين الثلاثة ، ولكن هذا التحالف الذى أملته الضرورة المؤقتة لم يكن طبيعياً ولا سيما بين الحاجب جعفر ومنافسه القوى محمد بن أبى عامر ، وكانت العلائق بين صبح وابن أبى عامر فى عهد الحكم تزداد كل يوم تمكناً ووثوقاً ، وكان ابن أبى عامر يرى عندئذ فى صبح ملاذ حمايته ورعايته لدى الحكم، وكان وجود الحكم يحد يومئذ كثيراً من أطماعه ومشاريعه ؛ ولكنه مذ توفى الحكم واضحت السلطة الشرعية كلها مجتمعة فى يد صبح بوصايتها على ابنها هشام ،أخذ يتأهب للعمل فى طريق آخر ، ويرى فى خليلته صبح إداة صالحة هينة يستطيع أن يخضعها لإرادته ويسخرها لمعاونته ، وكانت صبح من جانبها تغدق كل عطفها وثقتها على هذا الرجل الذى سحرها بخلاله وقوة نفسه وباهر كفاياته ، وتضع كل آمالها فيه لحماية العرش الذى يشغله ولدها الفتى ، فلم تمض بضعة أيام على تولية هشام حتى رفع ابن أبى عامر من خطة الشرطة إلى رتبة الوزارة فى نفس الوقت الذى أقر فيه هشام حاجب أبيه جعفرا المصحفى حاجباً له[1]، و بذا أشرك ابن أبى عامر فى تولى السلطة المباشرة مع المصحفى، ولم يعترض أحد من رجال القصر أو الحكومة على ذلك الاختيار سوى الحاجب جعفر ، فقد كان يرى فى هذا التعيين انتقاصاً لسلطته ونكراناً لجميله، بعد أن حمل أعباء السلطة كلها دهراً، وكان يرى فى ابن أبى عامر بالأخص منافساً يخشى بأسه و يرتاب فى أطماعه ونياته ، ومن ذلك اليوم يضطرم بين الرجلين صراع عنيف صامت لم يك ثمة شك فى نتيجته .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٠ .

وهكذا تولى محمد بن أبى عامر مقاليد الحكم مع الحاجب جعفر بمعونة صبح وتدبيرها ، وبدأ الصراع بين الرجلين على الاستئثار بالسلطة . وكان ابن أبى عامر هو الأقوى بلا ريب ، سواء بمواهبه وقوة نفسه أم بمؤازرة صبح له . ولم تكن هذه المؤازرة ترجع فقط إلى ذلك الحب القديم الذى تضطرم به جوانح صبح نحو ذلك الرجل القوى ، ولكنها كانت ترجع أيضاً إلى ثقة صبح فى مقدرته وبراعته ، وفى أنه هو الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يحمى مُلْك ولدها الفتى ، وأن يوطد السلام والأمن فى المملكة . فكان ابن أبى عامر فى الواقع هو السيد المطلق ، وكانت صبح تفوض إليه كل سلطة وكل أمر ، فكان يدير الشئون كلها بمهارة تثير إعجاب خصومه وأصدقائه على السواء .

وكان الأمير الفتى ، هشام المؤيد بالله ، ميالا بطبعه وسنه إلى اللهو والدعة ، ولم يكن له شىء من تلك الخلال الرفيعة التى تهيئ الأمراء للاضطلاع بمهام الملك ، فكان يلزم القصر والحدائق ، ويقضى كل أوقاته فى اللهو واللعب بين الخصيان وآلات الطرب . وكان ابن أبى عامر يشجع هذه الميول السيئة فى نفس الأمير ويراها ملائمة لمقاصده ؛ ومذ ولى هشام ، حجر عليه ابن أبى عامر ، ولم يسمح لأحد غيره برؤيته أو مخاطبته ، وكان يحمل صبحاً بدهائه وقوة عزمه على أن تخلق الأعذار لحجب ولدها ، حتى غدا هشام شبه معتقل أو سجين فى قصره ، لا يعرف شيئاً من العالم الخارجى إلا ما يسمح له من ضروب اللهو واللعب . وفى ذلك يقول لنا مؤرخ أندلسى : « حجر المنصور بن أبى عامر على هشام المؤيد بحيث لم يره أحد مذ ولى الحجابة . وربما أركبه بعض سنين وجعل عليه برنساً فلا يعرف ، وإذا سافر وكل من يفعل به ذلك »[1] . ويروى كوندى أن سيداً فارسياً يدعى سابور كان من أمناء القصر أيام الحكم ، جاء من ماردة إلى قرطبة يوم البيعة لهشام ليؤدى يمين الطاعة ، وحاول رؤية الأمير فلم يستطع[2] . وفى الفرص النادرة التى كان يسمح فيها للأمير

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٦ . (٢) كوندى ج ١ ص ٤٩٥ .

بالخروج كان ابن أبى عامر يتخذ أشد التحوطات ، فيحيط موكب الأمير حين يخترق شوارع قرطبة بصفوف كثيفة من الجند تمنع الشعب من رؤيته أو الاقتراب منه . وكان الحجر على هشام عماد ذلك الانقلاب العظيم الذى اعتزم ابن أبى عامر أن يحدثه فى نظم الدولة لتمكين سلطانه وطغيانه وجمع سلطات الخلافة كلها فى يده .

ولا يتسع المقام للإفاضة فى شرح الوسائل والإجراءات المتعاقبة التى تذرع بها ابن أبى عامر لتحقيق مشروعه ؛ ولكنا نقول فقط إنه سار إلى غايته بسرعة مدهشة ، ولجأ فى تحقيقها إلى أشد الوسائل ؛ واستطاع بعزمه وصرامته و براعته أن يسحق كل عقبة ، وأن يروع كل منافس ومناوئ . وفى ذلك يقول لنا ابن خلدون : « ثم تجرد (أى ابن أبى عامر) لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه ، فمال عليهم ، وحطهم عن مراتبهم ، وقتل بعضهم ببعض ، كل ذلك عن أمر هشام وخطه وتوقيعه حتى استأصل شأفتهم ومزق جموعهم »[1] . وكان أشد ما يخشى منافسة الحاجب جعفر ، ودسائس الخصيان الصقالبة بالقصر ؛ فبدأ بالتخلص من الصقالبة وحمل جعفر على نكبتهم وتشريدهم ، فقتل منهم عدد كبير واعتقل الباقون أو شردوا ؛ ولبث بعد ذلك حيناً يتربص بجعفر ، و يحرض صبحاً عليه ، و بنوه كلما سنحت الفرص بقصوره وسوء تدبيره ، ثم اعتقله أخيراً وأودعه السجن حتى مات ؛ وجدّ بعد ذلك فى مطاردة كل من يخشى بأسه من بنى أمية أو غيرهم من زعماء القبائل ، وسحق كل من يصلح للولاية والرآسة . وفى ذلك يقول ناقم منه :

أبنى أمية أين أقمــار الدجى ... منكم وأين نجومها والكوكب

غابت أسود منكم عن غابها ... فلذاك حاز الملك هـذا الثعلب

وعمد ابن أبى عامر إلى الجيش فنظمه من جديد ليؤكد عونه و إخلاصه ، وأبعد عنه كل العناصر المريبة ، وملأه بصفوف جديدة من البربر والمرتزقة ؛ وفى سنة ثمان وستين وثلاثمائة أنشأ مدينة جديدة فى ضاحية قرطبة على ضفة الوادى الكبير

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧.

وسماها بالزاهرة ، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة والدواوين ؛ وأنشأ له حرساً خاصاً من البربر والصقالبة ؛ واتخذ سمة المُلْك ، وتسمى بالحاجب المنصور ، ونفذت الكتب والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، ونقش اسمه فى السكة ؛ وتم بذلك استئثاره بجميع السلطات والرسوم ، ولم يبق من الخلافة الأموية سوى الاسم (١).

* * *

ماذا كان موقف صبح إزاء ذلك الانقلاب ؟ لقد كانت أكبر عون لابن أبى عامر على إحداثه ؛ وكان حبها المضطرم لذلك الرجل الذى ملك عليها كل مشاعرها وعقلها يدفعها دائماً إلى مؤازرته والإذعان لرأيه ووحيه ؛ وكان إعجابها الشديد بمقدرته وتوفيقه يضاعف ثقتها به ، ويعميها دائماً عن إدراك الغاية الخطرة التى يسعى إلى تحقيقها ؛ هذا إذا لم نفرض أن تلك الفرنجية المضطرمة الجوانح كانت تذهب فى حبها إلى حد الائتمار بولدها وتضحية حقوقه ومصالحه . والظاهر أن علائقها بابن أبى عامر ، أو المنصور كما نسميه فيما بعد ، انتهت بالخروج عن كل تحفظ ، وغدت فضيحة قصر ذائعة ، شهر بها مجتمع قرطبة وتناولها بلاذع التعليق والهجو ؛ وظهرت فى ذلك الحين قصائد وأناشيد شعبية كثيرة ، فى التشهير بحجر المنصور على هشام ، وعلائقه بصبح . فمن ذلك ما قيل على لسان هشام فى الشكوى من الحجر عليه :

أليس من العجائب أن مثلى ... يرى ما قل ممتنعاً عليه ؟
وتملك باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شىء فى يديه (٢) ؟

ومن ذلك ما قيل فى هشام وأمه صبح ؛ وقاضيه ابن السليم :

اقترب الوعد وحان الهلاك ... وكل ما تحذره قد أتاك
خليفة يلعب فى مكتب ... وأمه حبلى وقاض . . (٣)

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ ، وابن الأبار (الحلة السيراء) ص ١٤٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٩١ وما بعدها .
(٢) هذان البيتان ينسبان أيضاً إلى المقتدر العباسى .
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٠ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٨١ .

وهذه المقطوعات اللاذعة وأمثالها تعبر عن روح العصر وتدل على ما كان يثيره موقف صبح وسمعتها من الحملات المرة . وتتفق الرواية الإسلامية فى الإشارة إلى هذه العلائق الغرامية بين صبح والمنصور ، و إن كانت تؤثر التحفظ والاحتشام ؛ ولم نجد ما يعارضها سوى كلمة لـكاتب مغربى يدافع فيها عن المنصور و يدفع عن صبح تهمة شغفها به ، و يرمى أولئك الشعراء بالتحامل والـكذب[1] .

ولم يخمد جذوة هوى صبح زواج صاحبها المنصور ، بل كان موقفها من هذا الزواج دليلاً جديداً على إخلاصها ووفائها ، وكانت زوج المنصور أسماء ابنة غالب مولى الحـكم وصاحب « مدينة سالم » ، وهى فتاة بارعة الجمال والخلال ؛ زفت إلى المنصور سنة ٣٦٧ هـ ، فى حفلات كانت مضرب الأمثال فى البذخ والبهاء ؛ ونظم الاحتفال فى قصر الخليفة ذاته بإشراف الخليفة ، و بعبارة أخرى بإشراف أمه صبح ؛ وأغدقت صبح على العروس رائع الهدايا والتحف ؛ وكان زواجاً سـعيداً موفقاً لبث مدى الحياة[2] ، و إن كان غالب قد خرج بعد ذلك بأعوام قلائل على صهره المنصور ، ووقعت بينهما حرب هزم فيها غالب وقتل .

* * *

لبث المنصور زهاء عشرين عاماً يقبض بيديه القويتين على مصاير الأندلس ، و يسير من ظفر إلى ظفر ، و يثخن فى ممالك اسبانيا النصرانية ؛ ولم تبلغ إسبانيا المسلمة ما بلغته فى عهد المنصور من القوة والسؤدد ، ولم تبلغ إسبانيا النصرانية ما بلغته فى عهده من التمزق والضعف ؛ وقد غزا المنصور زهاء خمسين غزوة ، وجاز إلى أمنع وأنأى معاقل اسبانيا النصرانية ، ومع ذلك لم يشغله تعاقب الغزو عن مهام السلام ؛ فـكانت الأندلس فى عهده تتمتع بفيض من الرخاء والأمن ؛ ووطد أيضاً سلطة حكومة قرطبة فى المغرب الأقصى ، وكان قد فُتح فى عهد الحـكم المستنصر ؛

---

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٢ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٥ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ ، ودوزى ج ٢ ص ٢١٤ و ٢١٥ .

ولـكن المنصور كان يفرض على الأندلس حكماً من الطغيان المطبق ، وكانت وسائله العنيفة الصارمة ، الدموية فى أحيان كثيرة ، تذكى من حوله أوار البغض والتربص ؛ وكان اجتراؤه بالأخص على مقام الخلافة واستلاب سلطاتها ، والحجر على صاحبها الشرعى ، تقدمه دائماً إلى الشعب فى ثوب الطاغية المغتصب ، فـكان الشعب يعجب به ولا يحبه . على أن المنصور كان يسير دائماً فى طريقه معتمداً على قوته ووسائله ، لا يحفل برأى الزعماء أو الشعب ؛ فلما استتب له كل أمر ، واجتمعت فى يده كل السلطات ثاب له رأى فى الاستئثار بمـا بقى من رسوم الملك ومظاهره ، فبدأ بالتخلى عن لقب الحاجب ، وخلعه على ولده عبد الملك ، وهو فتى فى الثامنة عشرة ؛ وتسمى بالمنصور فقط ؛ ثم أصدر أمره بأن يُخص دون سائر أهل الدولة بلقب « السيادة » فى المخاطبات ، وتسمى عندئذ « بالملك الـكريم »[1] . وكانت هذه دلائل واضحة على حقيقة الغاية التى يعمل لها المنصور ويرجو أن ينتهى إليها ، وهى أن ينسخ الخلافة الأموية حكما كما نسخ سلطانها فعلاً ، وأن ينشئ دولة عامرية تتمتع بمراسيم الملك والخلافة .

ولم تك ثمة معارضة يخشى بأسها المنصور ؛ وكان هشام المؤيد قد أشرف على الثلاثين من عمره ، ولـكنه لبث خاملاً ضعيف العزم والإرادة ، لا تسنده أية قوة ؛ وقد سحق المنصور كل زعامة وكل قوة خصيمة ، وجمع حوله الجيش . ولـكن كانت ثمة قوة لم يحسب المنصور حسابها : تلك هى صبح أو « أورور » صاحبته القديمة ، وعونه السابق فى الوصول إلى ذرى الحـكم ، وفى الحجر على الخليفة واستغلال ضعفه . فقد ثارت صبح لما تبينته من نيات المنصور وغايته ، وكانت صبح يومئذ فى نحو الخمسين من عمرها ، وقد تصرم ذلك الحب الذى شغفها بالمنصور دهراً ، وأضحت تبغض ذلك الرجل الذى سلب ولدها كل سلطة ؛ وأخذت تبث فى نفس ولدها هشام مثل هذه العاطفة ، وتدفعه بكل ما وسعت إلى مناوأة المنصور ومنازعته واسترداد سلطانه ،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٥ و ٣١٦ .

وتولى مقاليد الحكم بنفسه ؛ وشهرت بواسطة أعوانها من الناقمين على المنصور دعاية شديدة ، واتهمته بأنه يسجن الخليفة الشرعى، ويحكم رغم إرادته ويغتصب سلطته . ولم تقف عند هذا الحد ، بل فكرت فى القيام بمحاولة عملية لمقاومة المنصور وإسقاطه ، ففاوضت زيرى بن عطية حاكم المغرب الأقصى من قبل المنصور، وأرسلت إليه الأموال سراً ليحشد الجند وليتأهب للعبور إلى الأندلس ؛ وكان زيرى بن عطية أقوى زعماء المغرب ، وكان مخلصاً لبنى أمية يقوم بدعوتهم ويؤيدها ؛ فلبى دعوة صبح ، وأخذ يشهّر بالمنصور وسياسته وحجره على الخليفة . ولكن المنصور فطن إلى المؤامرة قبل نضجها فبادر برؤية هشام المؤيد سراً ، وتفاهم معه ، وانتهى بأن أخذ منه تفويضاً كتابياً جديداً بالحكم ؛ ونقل الأموال من القصر إلى الزاهرة حتى لا تمتد إليها يد خصومه . ثم تحول إلى زيرى بن عطية فعزله من منصبه وقطع رواتبه ؛ فرد زيرى بأن محا اسمه من الخطبة وطرد عماله بالمغرب ، وتأهب للحرب . وبعث المنصور إلى المغرب الأقصى جيشاً ضخماً بقيادة مولاه واضح فهزمه زيرى وارتد إلى طنجة ؛ واستمرت الحرب حيناً بين الفريقين ، وسار المنصور بنفسه إلى الجزيرة الخضراء وبعث إلى المغرب جيشاً كثيفاً بقيادة ولده عبد الملك ، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة هزم فى نهايتها زيرى ومزق جيشه وفر إلى الصحراء الداخلية (٣٨٨ هـ — ٩٩٧م) . (١)

***

وهكذا فشلت صبح فى محاولتها ، ولم يسفر ذلك الصراع المتأخر إلا عن توطيد سلطان المنصور وسحق البقية الباقية من خصومه ومعارضيه . ولم تك صبح فى الواقع أهلاً لمقاومة ذلك الرجل القوى ، خصوصاً بعد أن مُكن له فى كل شىء ، ولم يبق الخليفة الأموى سوى شبح فقط . ونستطيع أن نقول إن الدولة الأموية بالأندلس قد انتهت فعلاً بانتهاء عهد الحكم المستنصر ، ولم يكن استمرارها صورة على يد هشام

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ ، ودوزى ج ٢ ص ٢٥٢ وما بعدها .

المؤيد ، أيام المنصور ، ثم تجددها بعد ذلك على يد الزعماء الثائرين من بنى أمية ، إلا مرحلة السقوط النهائى . ولما أيقنت صبح أن المقاومة عبث ، وأنه لا منقذ لولدها من ذلك النير الحديدى ، لجأت إلى السكينة والعزلة ؛ فلا نسمع عنها بعد ذلك فى تاريخ الأندلس ؛ ولا نعرف تاريخ وفاتها بالتحقيق ؛ ولا نعرف إن كانت وفاتها قبل وفاة المنصور (سنة ٣٩٣ هـ — ١٠٠٢م) أو بعدها ، وكل ما تقوله الرواية الإسلامية فى ذلك إن وفاتها كانت أيام ولدها هشام[١] . والظاهر أنها توفيت قبيل وفاة المنصور حوالى سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) ، لأننا لا نعثر باسمها بعد ذلك فى حوادث الأندلس . وقد أورد صاحب يتيمة الدهر للشاعر الأندلسى أبى عمر بن محمد بن دراج القسطلى قصيدة يرثى فيها صبحاً « أم هشام المؤيد بالله » نقتطف منها ما يأتى :

هل الملك يملك ريب المنو ... ن أم العز يصرف صرف القضاء
ألم تر كيف استباحت يدا ... ه حريم الملوك وعلق النساء
هو الرزء أودى بعزم الملو ... ك مصاباً وأودى بحسن العزاء

* * *

وحاشا لرزئك أن يقتضيـــه عويل الرجال ولدم النساء
لبيض أياديك فى الصالحا ... ت تمسك وجه الضحى بالضياء
فتلك مآثرها فى التقى ... وبذل اللهى ما بها من خفاء
جزاك بأعمـــالك الزاكيا ... ت خير المجازين خير الجزاء
ولقيت من ضنك ذاك الضريح ... نسيم النعيم وطيب الثـــواء

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٠ .

المعتمد بن عباد

(٤٣١ – ٤٨٨ هـ)، (١٠٣٩ – ١٠٩٥ م)

لما انهارت دعائم الخلافة الأموية بالأندلس فى أوائل القرن الخامس الهجرى، وقامت على أنقاضها دول الطوائف، كانت دولة بنى عبّاد فى إشبيلية أقوى الدول الجديدة وأعظمها شأناً؛ وكان أمراء الطوائف فى شقاق مستمر، يقاتلون بعضهم بعضاً، وينتزع القوى منهم أملاك الضعيف، ويحالفون النصارى بعضهم على بعض؛ وكان الأمراء النصارى يرحبون بهذه الفرص للتفريق بين الأمراء المسلمين، وإضعاف شوكتهم، ثم إخضاعهم وانتزاع أراضيهم تباعاً. ولم يشذ بنو عباد عن هذه السياسة الخطرة، فمذ قام عميدهم ومؤسس دولتهم القاضى أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد فى إشبيلية، اتجهت أطماعهم إلى محاربة جيرانهم المسلمين وانتزاع مافى أيديهم، واشتبك أبو القاسم، ومن بعده ولده أبو عمر عباد الملقب بالمعتضد بالله، فى سلسلة من الحروب الطاحنة مع أمراء غرناطة ومالقة وقرطبة انتهت باستيلاء بنى عباد على قرطبة وقرمونة وإستجة وماحولها من الأراضى، واتسعت بذلك مملكة إشبيلية وغدت أعظم قوة فى جنوبى الأندلس.

وخلف المعتضد بالله ولده أبو القاسم محمد فى سنة ٤٦١ هـ؛ وتلقب بالمعتمد على الله والظافر بحول الله، وكان فتى فى الثلاثين من عمره إذ كان مولده فى سنة ٤٣١ هـ؛ وكان المعتمد من أعظم ملوك الطوائف إن لم يكن أعظمهم جميعاً، وقد اشتهر بخلاله الباهرة من النباهة والشجاعة والفروسة والجود والبذخ، كما اشتهر برفيع أدبه ورائع نظمه، وكما اشتهر بمحنته وخاتمته المؤسية؛ وفى عهده سطعت مملكة إشبيلية وكادت تعيد ببهائها وفخامة بلاطها مجد قرطبة الذاهب. ولكن هذا البهاء الخلب كان يغشاه

كدر الشقاق المستمر بين الإمارات الإسلامية ؛ وكان المعتمد بالرغم من ذكائه وفطنته يرى نفسه مضطراً إلى سلوك نفس المنحدر الخطر الذى انساق إليه أبوه وجده من قبل فى سبيل السيادة والملك ؛ ولم ير بأساً فى سبيل تحقيق أطماعه أن يمالئ ملك قشتاله على إخوانه المسلمين ، وأن يتعهد له بدفع الجزية ؛ وكان ملك قشتاله يومئذ أميراً وافر العزم والدهاء هو الفونسو السادس ، وكان يعمل بكل ما وسع للضرب والتفريق بين الأمراء المسلمين ، ويؤلب بعضهم على بعض ولا يضن على حلفائه منهم بعونه وتأييده ؛ وكان المعتمد بن عباد ، يرى فى جيرانه بنى ذى النون أمراء طليطلة أشد خصومه خطراً عليه ، ويسعى جهده إلى إسقاطهم وسحق دولتهم؛ وقد نشبت بينه وبين يحيى بن ذى النون الملقب بالمأمون عدة وقائع دموية ، فقد المعتمد خلالها قرطبة وقتل بها ولده سراج الدولة ؛ ثم عاد فاستردها ، وهو يضطرم وجداً وحنقاً ويزمع الانتقام من بنى ذى النون بأى الوسائل . ولما توفى المأمون ، وخلفه ولده الضعيف يحيى الملقب بالقادر ، انتهز المعتمد هذه الفرصة فغزا أراضى طليطلة واستولى على كثير من أنحائها . على أنه لم يقنع بهذا النصر الجزئى ؛ وكان جل همه أن تسحق مملكة بنى ذى النون حتى يخلو له الجو فى جنوبى الأندلس وفى شرقيها ؛ ولم يكن يحول دون غايته سوى تحالف بنى ذى النون مع ملك قشتاله . وكان الفونسو السادس بالرغم من صداقته الظاهرة لبنى ذى النون ، الذين عاونوه وأكرموا وفادته أيام محنته ، حينما هزمه أخوه سانشو ، واستولى على مملكته قبل ذلك بأعوام ، يضمر لهم فى الواقع أخبث النيات ، ويتطلع إلى انتزاع مملكتهم المتداعية ، ولم يكن يخشى فى ذلك سوى مناوأة ابن عباد وخصومته ؛ وعلى ذلك فقد سعى المعتمد إلى التفاهم مع ملك قشتاله ، وأوفد إليه وزيره الشهير ابن عمار ، وقد كان يومئذ أبرع ساسة الأندلس ، لمفاوضته ، وعقدت بين الملكين محالفة سرية ، تعهد فيها الفونسو بمعاونة المعتمد على محاربة خصومه من الأمراء المسلمين أو النصارى ، وتعهد المعتمد من جانبه بأن يترك الفونسو حراً فى محاربة طليطلة والاستيلاء عليها ، وأن يؤدى له جزية الخضوع ؛

وتضيف الرواية النصرانية إلى ذلك أن المعتمد قبل أن يقدم إحدى بناته زوجة لملك قشتاله ، وأنها حظيت لديه فيا بعد ، وتنصرت باسم البزابيث ، وأنجب منها ولداً هو سانشو الذى قتل حدثاً فى موقعة « إقليش » . وهى رواية تحمل فى نظرنا سمة الإغراق والبطلان[١] .

وتم لملك قشتاله ما أراد ، ولم يمض سوى قليل حتى استولى على طليطلة بعد حصار قصير (٤٧٨ هـ — ١٠٨٥ م) وانتهت بذلك مملكة بنى ذى النون ، وسقط أمنع معاقل الأندلس فى يد اسبانيا النصرانية ؛ وشهدت الأندلس جامدة مروعة تلك الكارثة التى تنذرها بشر المصير ؛ وسرعان ما أدرك المعتمد بن عباد سوء تصرفه وفداحة الخطأ الذى ارتكبه . ذلك أن حليفه الفونسو ما كاد يفتتح طليطلة ، حتى انقلب عليه يطالبه بالجزية و يطالبه بتسليم بعض الأراضى والحصون التى كانت تحت حكمه بحجة أنها تابعة لطليطلة ؛ وثار الخلاف بين الحليفين ، وتوعد الفونسو المعتمد بشر العواقب . وشعر المعتمد بالخطر الذى يهدده من حليفه القديم ، وشعر أمراء الأندلس جميعاً بأن ملك قشتاله سوف يجتاح قواعدهم وأراضيهم كلها إذا لم يبادروا إلى الاتحاد والتضافر على قمع الخطر المشترك ؛ واجتمعت كلمتهم على توحيد القوى والخطط ؛ بيد أنهم رأوا أن قواهم المضعضعة لم تعد تكفى وحدها لدرء الخطر ، وانتهوا بعد البحث والتشاور إلى وجوب الالتجاء إلى إخوانهم المسلمين فى الضفة الأخرى من البحر ، ودعوتهم إلى إنجادهم وغوثهم . وهكذا استغاث ملوك الطوائف بعاهل إفريقية أمير المرابطين يوسف بن تاشفين اللمتونى[٢] ، وكان المرابطون يومئذ فى أوج سلطانهم وقوتهم ؛ واستجاب أمير المسلمين يوسف إلى نداء امراء الأندلس ، وعبر إليهم فى جيش ضخم ؛ وسارت قوى الإسلام المتحدة إلى قتال الفونسو السادس ؛

---

(١) هذا ما تزعمه بعض الروايات الكنسية واللاتينية الاسبانية ، وقد أشار إليها المؤرخ الألمانى أشباخ فى كتابه : « تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين » ؛ (راجع الترجمة العربية بقلم محمد عبد الله عنان ج ١ ص ٦١ والهامش) .

(٢) نعنى بترجمة يوسف بن تاشفين فى الفصل القادم .

والتقى الفريقان فى « الزّلاقة » ، فهزم النصارى هزيمة فادحة ، وكانت من أيام الإسلام المشهودة (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م) ، وفيها استمدت الأندلس حياة جديدة .

٢

وعاد يوسف إلى إفريقية بعد أن شهد أحوال الأندلس وأحوال أمرائها ، وأدرك هذا الأمير النابه الذى كان يؤثر العيش الخشن على ملاذ الملك ونعمائه ، أن الحياة الناعمة التى انغمس فيها أهل الأندلس هى التى قوضت منعتهم ، وفتت فى رجولتهم وعزائمهم ، وأن الشقاق الذى استحكم بينهم ، والذى لم ينقطع من بعد عوده ، سوف يقضى عليهم جميعاً بلا ريب إذا تركت الأمور فى مجراها ، وسوف يمهد لاستيلاء النصارى على جميع أنحاء الجزيرة فى أقرب وقت ؛ ومن ثم فقد اعتزم أمره نحو الأندلس ونحو أمرائها العابثين المتنابذين ، المترامين على أعتاب العدو فى سبيل قتال بعضهم بعضاً .

وفى سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) عبر يوسف إلى الأندلس للمرة الثالثة برسم الجهاد ، وكان قد عبر إليها للمرة الثانية قبل ذلك بعام ولكنه لم يقم يومئذ بغزوات ذات شأن ؛ وازداد سخطاً على أمراء الأندلس لما بدا من تقصيرهم فى نصرته . ولما عبر للمرة الثالثة كانت تحدوه نحوهم نيات خطرة ؛ وسار تواً إلى غرناطة فاستولى عليها ، و بعث بأميرها عبد الله بن بلكين سجيناً إلى أغمات ؛ ثم ألقى أوامره بافتتاح قواعد الأندلس الأخرى ولا سيما إشبيلية إلى قائده سير بن أبى بكر ، وارتد إلى العدوة يجهز الجيوش والإمداد . وزحفت الجيوش المرابطية على معظم قواعد الأندلس وافتتحتها تباعاً ، وقتل جميع أمرائها أو أسروا ، وكان بين القتلى الأمير الشاعر ابن الأفطس عمر المتوكل صاحب بطليوس وولديه ؛ وسار سير بن أبى بكر بنفسه إلى إشبيلية ؛ وأدرك المعتمد بن عباد أنه سوف يخوض مع المرابطين معركة الحياة والموت ، فتأهب للدفاع عن ملكه وحاضرته بكل ما وسع ؛ واستغاث بحليفه الفونسو السادس فأمده بجيش كبير ، ولكن المرابطين هزموه على مقربة من قرطبة ؛

واشتبك المعتمد بقواته مع المرابطين فى عدة مواقع ؛ ثم ارتد إلى إشبيلية وامتنع بها لما شهد من تفوق المرابطين عليه فى الكثرة والأهبة ؛ وشدد المرابطون الحصار على إشبيلية ؛ وسقطت فى تلك الأثناء قرطبة فى يد المرابطين ، وقتل فيها المأمون ولد المعتمد مدافعاً عنها ؛ ثم سقطت رندة ، وأسر فيها ولده يزيد الراضى بالله ، وقتل بالرغم من العهود التى قطعت بتأمينه . وشعر المعتمد بالأمل يغيض فى نفسه شيئاً فشيئاً ، ولكنه استمر على مقاومته حتى اقتحم المرابطون إشبيلية عنوة ، وانقضوا عليها كالسيل الجارف ، يمعنون فيها سفكاً وتخريباً . واستقبلهم المعتمد فى خاصته على باب قصره يدافع عن نفسه وملكه حتى اللحظة الأخيرة ؛ ولكن هذه البسالة النادرة لم تغن شيئاً ، فاستولى المرابطون على المدينة ، وأسروا المعتمد وآله ، واحتووا على قصره وماله ومتاعه ، وكان ذلك فى الحادى والعشرين من رجب سنة ٤٨٤ هـ (سبتمبر سنة ١٠٩١ م) .

وهكذا سقطت مملكة بنى عباد كلمح البصر ، وخبا نجمها الذى سطع حيناً فى سماء الأندلس ، ولكنها سقطت أبية كريمة ، فى مناظر من الفروسة الرائعة تحاق بالألى شادوها ؛ ولم تسقط قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة على يد عميدها الباسل . ومن الخطأ التاريخى ما تزعمه بعض الروايات من أن المعتمد سلم عاصمته إلى المرابطين بالأمان مختاراً[1] . والحقيقة التى تجمع عليها معظم الروايات الإسلامية ، والأندلسية بنوع خاص ، هو أن المرابطين اقتحموا إشبيلية وأخذوها عنوة فى مناظر رائعة من السفك والتخريب ، وأن المعتمد بن عباد لم يدخر وسيلة فى الدفاع عن نفسه وعاصمته ، وأنه ظل يدافع حتى اللحظة الأخيرة ، حتى اقتحم الأعداء قصره ،

---

(١) ينفرد صاحب روض القرطاس بالقول بأن إشبيلية سلمت للمرابطين بالأمان (ص ١٠١) ولكن ابن الأثير (ج ١٠ ص ٦٥) وابن خلكان (ج ٢ ص ٤٠،٤١) وابن خلدون (ج ٦ ص ١٨٦) ، والفتح بن خاقان فى قلائد العقيان (ص ٢١ ، ٢٢) والمراكشى فى المعجب (ص ٧٧) والمقرى فى نفح الطيب (ج ٢ ص ٤٥٣) يتفقون جميعاً على أنها أخذت عنوة . ويأخذ دوزى بهذه الرواية (ج ٣ ص ١٤٩،١٥٠) .

وأسروه . وقد انتهت إلينا فى ذلك رواية شاهد عيان هو أبو بكر محمد بن عيسى الدانى المعروف بابن اللبانة شاعر المعتمد وصديقه ، فهو يصف لنا فى كتابه « نظم السلوك فى مواعظ الملوك فى أخبار الدولة العبادية » مناظر سقوط إشبيلية التى شهدها بنفسه فى قوله :

« إلى أن كان يوم الأحد الحادى والعشرون من رجب ، فعظم الخطب فى الأمر الواقع واتسع الخرق على الراقع ، ودخل البلد من جهة واديه ، وأصيب حاضره بعادية باديه ، بعد أن ظهر من دفاع المعتمد وبأسه وترامِيه ، على الموت بنفسه ما لا مزيد عليه ، ولا انتهى خلق إليه ، فشنت الغارة فى البلد ، ولم يبق فيها على سبد لأحد ولا لبد ؛ وخرج الناس عن منازلهم يسترون عوراتهم بأناملهم ، وكشفت وجوه المخدرات العذارى ، ورأيت الناس سكارى وما هم بسكارى ... »(١).

ويصف لنا الفتح بن خاقان مؤرخ الطوائف ومعاصرهم تقريباً منظر الصراع الأخير بين المعتمد ومهاجميه فى تلك العبارات القوية المؤثرة : « ولما انتشر الداخلون فى البلد وأوهنوا القوى والجلد ، خرج (أى المعتمد) ، والموت يتسعر فى الحاظه ، ويتصور من ألفاظه ، وحسامه يعد بمضائه ، ويتوقد عند انتضائه ، فلقيهم فى رحبة القصر ، وقد ضاق به فضاؤها ، وتضعضعت من رحبتهم أعضاؤها ، فحمل فيهم حملة صيرتهم فِرقاً ، وملأتهم فَرَقاً ، وما زال يوالى عليهم الكر المعاد ، حتى أوردهم النهر ، وما بهم من جواد ، وأودعهم حشاه كأنهم له فؤاد ، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاء حاله وذهاب ملكه وارتحاله ، وعاد إلى قصره ، واستمسك به يومه وليلته ، مانعاً لحوذته ، دافعاً للذل عن عزته .. »(٢).

وهذا ما يؤيده شعر المعتمد نفسه فى وصف ذلك اليوم المشهود إذ يقول :

إن يسلب القوم العدا ملكى وتسلمنى الجموع

(١) نقله نفح الطيب (ج ٢ ص ٤٥٣).

(٢) قلائد العقيان ص ٢٢ فى ترجمة المعتمد بن عباد ؛ وقد كتب الفتح كتابه بعد سقوط إشبيلية بنحو ثلاثين عاما.

فالقلب بين ضلوعه لم تُسلم القلب الضلوع
قد رمت يوم نزالهم ألا تحصننى الدروع
وبرزت ليس سوى القميص عن الحشا شىء دفوع
وبذلت نفسى كى تسيل إذا يسيل بها النجيع
أجلى تأخر لم يكن بهواى ذلى والخضوع
ما سرت قط إلى القتال وكان من أملى الرجوع
شيم الألى أنا منهم والأصل تتبعه الفروع

ثم يقول لنا الفتح ، إن المعتمد لما التجأ إلى قصره بعد سقوط حاضرته وتفرق جيشه ، وفقد كل أمل فى النجاة ، فكر فى أن يقضى على نفسه بيده ، ولكن منعه من ذلك إيمانه وتقاه ، فاستسلم إلى هوان الأمر ، وقبض عليه المرابطون وعلى جميع ولده ونسائه وآله .

٣

وكان يوسف بن تاشفين قد قرر مصير بنى عباد كما قرر مصير مَن قبلهم من الأمراء المغلوبين ؛ وقد رأينا كيف بطش المرابطون بأمراء الأندلس فقتلوا بعضهم ، وأسروا البعض الآخر وألقوا بهم إلى غيابة السجن ، وكان بين القتلى المأمون ويزيد الراضى بالله ، ولدا المعتمد بن عباد ؛ قتل الأول مدافعاً عن قرطبة ، وأسر الثانى ثم قتل عند سقوط رُندة . أما المعتمد نفسه فكان نصيبه الأسر والنفى ؛ وربما كانت لدى الظافر فى الإبقاء على حياته بواعث أخرى غير الرأفة به ، فما كان المعتمد بن عباد من أولئك الذين يتهيبون الموت أو يخشونه ، بل لقد كان يطلبه ويسعى إليه كما رأينا ؛ وربما أراد سيد المرابطين بذلك أن يتجرع المعتمد كأس الذلة إلى نهايتها ، وأن يمرغ فى التراب ذلك الذى كان قطب الفتنة فى الأندلس ، وأن يذيقه من العذاب المعنوى أروع ألوانه . وعلى أى حال ، فقد انتزع المعتمد وآله من « قصر » إشبيلية المنيف ، وحملوا جميعاً إلى السفن التى أعدت لنقلهم إلى المنفى ؛ وسارت السفن من إشبيلية فى

نهر الوادى الكبير فى طريقها إلى المغرب ، فى مناظر تذيب القلب حزناً وأسى ؛ وضجت جموع الشعب الغفيرة التى احتشدت على ضفتى النهر لوداع المعتمد بالبكاء والنواح ، حينما شهدت سيدها وراعيها بالأمس يرسف وجميع آله فى الأغلال ، و يغادر موطن عزه إلى مصيره المجهول . وفى ذلك يقول شاعر المعتمد أبو بكر بن اللبَّانة ، وقد كان من شهود ذلك اليوم ، من قصيدة طويلة :

نسيت إلا غداة النهر كونهم　　فى المنشآت كأموات بألحاد
والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا　　من لؤلؤ طافيات فوق أزباد
حط القناع فلم تستر مخدرة　　ومزقت أوجه تمزيق أبراد
حان الوداع فضجت كل صارخة　　وصارخ من مفدّاة ومن فادى
سارت سفائنهم والنّوح يتبعها　　كأنها إبل يحدو بها الحادى
كم سال فى الماء من دمع وكم حملت　　تلك القطائع من قطعات أكباد[1]

وأنزل المعتمد وأسرته أولا بطنجة ، واعتقلوا فيها أياماً ؛ وهنالك زاره الحصرى الضرير الشاعر ، وألحف فى طلب الصلة ، ورفع إليه أبياتاً مدحه فيها ولم يراع فى ذلك حرج الموقف ؛ وأبت على المعتمد أريحيته الملوكية أن يرده ، فبعث إليه بستة وثلاثين مثقالاً ، وقطعة شعر يعتذر فيها عن ضآلة الهبة ؛ فكانت آخر صلاته الملوكية . ثم أخذوا بعد ذلك إلى مكناسة ، وقضوا هنالك أشهراً قبل أن يحملوا إلى مقرهم النهائى[2] .

وأخيراً صدر الأمر بتسييرهم إلى أغْمَات ، وهى مدينة صغيرة تقع على مقربة من مراكش عاصمة المرابطين ؛ وكانت قد اختيرت لتكون منفى للأمراء الأندلسيين ، و إليها سيق عبد الله بن بلكين أمير غرناطة وآله من قبل ؛ وحل المعتمد بن عباد وآله فى أغمات فى أواخر سنة ٤٨٤ أو أوائل سنة ٤٨٥ هـ ، وزجوا إلى قلعتها المنيعة ؛

(١) راجع هذه القصيدة فى قلائد العقيان ص ٢٢ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٢و٤٥٣ ، والمراكشى فى المعجب ص ٧٩و٨٠ .
(٢) المراكشى فى المعجب ص ٨٠ و ٨١

وهنالك قضى المعتمد عدة أعوام يرسف فى أغلال الأسر ، و يتجرع غصص المهانة والذلة ، و يلقى عذاب الشهيد المعنَّى ؛ ولم يكن مقام المعتمد بأغمات معتقلا عادياً ، بل كان سجنا شنيعاً بكل معانى الكلمة ، ضُيِّق فيه على المعتمد وآله أشد تضييق ، ولم يكن يطلق إليهم ما يكفيهم من النفقة ، فكان المعتمد وزوجه اعتماد الرميكية التى كانت تسطع فى الأندلس بجمالها وخلالها البارعة، وأبناؤه الأمراء ، و بناته الأقمار(١) يرتدون الثياب والأطمار الخشنة ؛ وكان بنات المعتمد يشتغلن بالغزل ليعلن والدهن وأسرتهن . وهنالك مايدل على أن المعتمد كان مصفَّداً بالحديد فى قدميه على الأقل فى أواخر أيام أسره ، ولم تكن هذه المعاملة الشنيعة لأعظم ملوك الطوائف عفواً ، بل كانت مقصودة بلا ريب ، وكانت قسوة لا مبرر لها من الظافر ، ولم تكن تتفق فى شىء مع ما أثر عن يوسف بن تاشفين من الفروسية والخلال الحسنة ؛ وسنرى فيما بعد كيف يفسر موقفه وكيف يلتمس له الأعذار .

واشتدت وطأة الأسر على اعتماد زوج المعتمد ، ولم تقو طو يلا على مغالبة المحنة ، فذوت نضارتها بسرعة ، ثم توفيت ، ودفنت بأغمات على مقر بة من معتقل زوجها وأولادها ؛ فحزن المعتمد لوفاتها أيما حزن ، واشتد به الضنى والأسى .

وأذكت المحنة شاعر ية المعتمد ؛ وكان القريض عندئذ عزاءه وغذاءه الروحى ؛ فصدرت عنه فى معتقله طائفة كبيرة من القصائد المؤسية وكلها تلهُّف على سابق مجده و بكاء على ماضيه ، ورثاء لمحنته ، فمن ذلك قوله :

أنباء أسرك قد طبقن آفاقا   بل قد عممن جهات الأرض إقلاقا
سارت من الغرب لاتطوى لها قدم   حتى أتت شرقها تنعاك إشراقا
فأحرق الفجع أكباداً وأفئدة   وأغرق الدمع آفاقا وأحداقاً
قد ضاق صدر المعالى إذ نعيت لها   وقيل إن عليك القيد قد ضاقا

(١) كان للمعتمد بن عباد عدد كبير من الولد بنين وبنات . فمن أولاده الذين تذكرهم الرواية الرشيد والمأمون والراضى ، وأبو هاشم وعبد الجبار ، وغيرهم . أما بناته فلم تذكر لنا الرواية شيئاً عنهن .

وقوله يوم عيد ، وقد أبكاه منظر أولاده و بناته :

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً   فساءك العيد فى أغمات مأسوراً
ترى بناتك فى الأطمار جائعة   يغزلن للناس ما يملكن قطميراً
برزن نحوك للتسليم خاشعةً   أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن فى الطين والأقدام حافية   كأنها لم تطأ مسكا وكافوراً
أفطرتَ فى العيد لا عادت إساءته   فكان فطرك للأكباد تفطيراً
قد كان دهرك أن تأمره ممتثلا   فردّك الدهر منهيًا ومأمورا
من بات بعدك فى مُلك يسرُّ به   فإنما بات بالأحلام مغروراً

وقوله وقد رأى سرباً من القطا يمر بمعتقله :

بكيتُ إلى سرب القطا إذ مررن به   سوارح لا سجن يعوق ولا كَبل
ولم تك والله المعيد حسادةً   ولكن حنيناً إن شكلى لها شكل
فأسرع فلا شمل صديع ولا الحشى   وجيع ولا عينان يبكيهما ثكل

وأذكت مأساة بنى عباد فى الوقت نفسه دولة الشعر بالأندلس ، ونظم أكابر شعراء العصر فى رثاء دولتهم والتوجع على أيامهم طائفة من القصائد المؤثرة ، التى ما زالت تحتفظ إلى اليوم بكل روعتها وحياتها ؛ وكان اغزرهم فى ذلك مادة ، أبو بكر بن اللبانة شاعر المعتمد المتقدم ذكره ، فقد بقى على صِلاته ووفائه للمعتمد ، وزاره فى سجنه بأغمات ، ونظم فى دولته وأيامه ، وفى محنته وأسره ، عدة من قصائده الرنانة ، يضمها كتاب وضعه فى تاريخ بنى عباد عنوانه « كتاب نظم السلوك فى مواعظ الملوك »[١] .

واستطال أسر المعتمد وسجنه حتى سنة ٤٨٨ ﻫ ؛ بيد أنه استطاع فى غمر المحنة والبؤس الطاحن أن يحتفظ بكثير من جلاله السابق ، فكان هذا الجلال يشع

---

(١) تراجع بعض هذه القصائد فى قلائد العقيان ص ٢٩ ، ٣٠ ، وفى ابن خلكان ج ٢ ص ٤١ وما بعدها .

فى ظلمات سجنه كما يشع ضوء الشمس إذا أحدق بها الغمام[١] ؛ وفى أواخر أيامه شدد يوسف فى التضييق عليه ، وأمر بتصفيده بسبب ثورة محلية قام بها ولده عبد الجبار فى بعض حصون إشبيلية ؛ وكان ممن أفلت عند سقوطها . وفى اليوم الحادى عشر من شوال سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) توفى المعتمد فى سجنه بأغمات ، بعد أسر دام زهاء أربعة أعوام ، وكان سنه عند وفاته سبعاً وخمسين سنة و بضعة أشهر . ودفن بأغمات إلى جانب زوجه اعتماد الرميكية . ومما قاله له فى رثاء نفسه قبيل وفاته ، وأمر أن يكتب على قبره :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادى   حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت   بالخصب إن أجدبوا بالرّى للصادى
بالطاعن الضارب الرامى إذا اقتتلوا   بالموت أحمر بالضرغامة العادى
بالدهر فى نقمٍ بالبحر فى نعمٍ   بالبدر فى ظلمٍ بالصدر فى النادى
نعم هو الحق حابانى به قدَرٌ   من السماء فوافانى لميعاد
ولم أكن قبل ذاك النقش أعلمه   أن الجبال تهادى فوق أعواد
كفاك فارفق بما استودعت من كرم   رواك كل قطوب البرق رعّاد

وهكذا اختتم المعتمد حياته الباهرة فى غمر المحنة وظلمات العدم ، وتفرق من بعده ولده وآله فى مختلف الأنحاء . ولكن ذكراه لبثت طويلا حية فى المغرب والأندلس ؛ ولبثت محنته وخاتمته مضرب الأمثال فى تقلب الجدود وعبر الدهر . و بعد وفاته بقليل وفد على أغمات أبو بحر بن عبد الصمد وهو من شعراء دولته وخاصته المتصلين به ، وذهب يوم العيد إلى قبره فخرّ أمامه ، وغمره بقبلاته و بلّله بدموعه ، وأنشد بين الجماهير التى احتشدت من حوله مرثيته الغراء فى المعتمد بن عباد ، ومطلعها :

ملك الملوك أسامع فأنادى   أم قد عدتك عن السماع عوَاد

---

(١) يوسف أشباخ فى كتابه « تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين » الذى سبقت الاشارة إليه

لمّا خلت منك القصور ولم تكن فيها كما قد كنتَ فى الأعياد
أقبلتُ فى هذا الثرى لك خاضعا وتخذت قبرك موضع الإنشاد
قد كنت أحسب أن تبدّد أدمعى نيرانَ حزن أُضرمت بفؤادى
فإذا بدمعى كلما أجريته زادت علىَّ حرارة الأكباد

فبكى الناس أحرّ بكاء وهم يطوفون بالقبر طواف الحجيج ، وكان منظرا يفتت الأكباد[1] .

* * *

ولما ذهبت دولة المرابطين بعد ذلك بنحو أربعين عاما غدا قبر المعتمد بن عباد وقبر زوجه الرميكية فى أغمات مزاراً يحج إليه الوافدون من أنحاء المغرب والأندلس ، واستمر كذلك عصوراً ؛ وفى سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ م) زاره الكاتب والشاعر الكبير الوزير لسان الدين بن الخطيب ووصفه لنا بقوله : « وهو بمقبرة أغمات فى نشز من الأرض ، وقد حفت به سورة و إلى جانبه قبر اعتماد حظيته ، مولاة رميك ، وعليها هيئة التغرب ، ومعاناة الخمول ، من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتها » . وأنشد على القبر أبياتاً يقول فيها :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات رأيت ذلك من أولى المهمات
أناف قبرك فى هضب يميزه فتنتحيه حفيّات التحيات
كرمت حيا وميتاً واشتهرت عُلا فأنت سلطان أحياء وأموات
ما يُرى مثلك فى ماض ومعتقدى أن لا يرى الدهر فى حال ولا آت

وزاره المقّرى مؤرخ الأندلس فى سنة ١٠١٠هـ (١٦٠٢ م) ورآه كما ذكره ابن الخطيب فوق رابية فى مكان يغمره النسيان ، فوقف أمامه خاشعاً متأثراً[2] .

---

(١) راجع قلائد العقيان ص ٣٠ و ٣١ .
(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٨ و ٤٥٩ .

٤

كانت خاتمة المعتمد بن عباد مأساة من أروع المآسى الملوكية ؛ وما زالت محنة هذا الأمير الشاعر تحتفظ إلى يومنا بالرغم من كر العصور بألوانها المشجية . وقد أثارت عطف الرواية الإسلامية وتأثرها البالغ ، ويبدو هذا العطف بنوع خاص فى روايات مؤرخى الأندلس والمشرق ؛ وفى كثير منها يُصور المعتمد شهيد القسوة والعسف ؛ ومنها ما يشدد الحملة على يوسف بن تاشفين ويصمه بأقسى الصفات ، فيقول لنا ابن الأثير مثلا فى التعليق على أسر بنى عباد واعتقالهم : « وفعل أمير المسلمين بهم فعالا لم يسلكها أحد ممن قبله ، ولا يفعلها أحد ممن يأتى بعده ، إلا من رضى لنفسه بهذه الرذيلة ... وأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفسه ولؤم قدره »[١] .

وقد أسبغت قسوة يوسف نحو أمراء الأندلس ، ونحو المعتمد بنوع خاص ، على سيرته وعلى خلاله سُحُباً لم تمحها جميع الأعذار التى انتحلت لتبرير عمله . وتتلخص هذه الأعذار فى أن المعتمد كان بسياسته وتصرفه نحو شئون الأندلس ، وتحالفه مع النصارى على إخوته فى الدين ، وتعريضه مستقبل الإسلام فى الأندلس إلى الخطر تحقيقا لمطامعه الشخصية ، يستحق أعظم اللوم ، وأنه عوقب بما تقضيه فداحة ذنبه . على أنه إذا كان حقا أن المعتمد يحمل بسياسته الأندلسية أمام التاريخ تبعات ثقيلة ، فإنه من الحق أيضا أنه حينما استفحل الخطب وظهر شبح الخطر على الإسلام ، كان أول الداعين إلى الوحدة وإلى طلب الغوث من المرابطين ، وأنه لم يبخل فى ذلك السبيل بتضحية حصونه التى طلبها يوسف قبل عبوره إلى الأندلس ، وأنه أبلى فى موقعة الزلاّقة أعظم البلاء ، وعاون فى نيل النصر أعظم معاونة . كذلك لا ريب أن البواعث التى دفعت يوسف إلى افتتاح الأندلس وامتلاكها لم تكن دينية فقط ، بل كانت دنيوية أيضا ، وأن الأندلس كانت تجذب المرابطين بخصبها وغناها ونعمائها . وإنه ليحق لنا أن نتساءل أى

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥ .

ضرورة ، أو أى حكمة اقتضت أن يبطش المرابطون بأمراء الأندلس ، وأن يمعنوا فيهم قتلا وتعذيبا على النحو الذى اتبعوه بعد أن استولوا على أملاكهم وأراضيهم ؟ وأى ضرورة اقتضت أن يعامل سيد المرابطين المعتمدبن عباد وآله بهذه القسوة المروعة بعد أن غدوا فى يده أسرى لا حول لهم ولا قوة ؟ وكيف سمح أمير المسلمين القوى القادر لنفسه أن تمتد هذه القسوة إلى الولد الضعاف والنساء والبنات ؟ لقد كان المعتمد مثقلا بتبعات عمله كأمير وملك من ملوك الطوائف ، أفلم يكن يكفيه فقد ملكه وسلطانه للتكفير عما أثم بسابق تصرفه ؟ وماذا كان يضير الظافر لو عامله بشىء مما يقتضيه سابق مكانته من الرفق والرعاية ؟

هـذه تأملات تثيرها فى النفس محنة المعتمد بن عباد ؛ ولا ريب أن هذه الخاتمة المؤسية ، قد أسبغت على المعتمد ثوب شهيد ، يستحق عطف التاريخ ، وصفح الأجيال .

يوسف بن تاشفين

(نحو ٤١٠ — ٥٠٠ هـ) و (١٠١٩ — ١١٠٦ م)

رجلان عظيمان يتبوآن فى تاريخ المغرب مكانة خاصة كلاهما عبقرية ذات خواص ممتازة ، وكلاهما مؤسس أمبراطورية عظيمة ، هما يوسف بن تاشفين اللمتونى وأبو عبد الله محمد بن تومرت الملقّب بالمهدى .

ظهر أولهما فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، أى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى . وظهر الثانى فى أوائل القرن السادس الهجرى أو أوائل القرن الثانى عشر الميلادى . وشاد الأول صرح الدولة المرابطية الشامخة التى سطعت فى المغرب والأندلس لمدى قصير ، ثم انهارت دعائمها كما قامت بسرعة مدهشة ؛ وأقام ابن تومرت وخلفاؤه على انقاضها دولتهم العظيمة التى عرفت بدولة الموحدين .

لا يعرف التاريخ شيئاً أو لا يعرف كثيراً عن نشأة يوسف بن تاشفين وحياته الأولى . وأول ما تحدثنا الرواية عنه فى منتصف القرن الخامس الهجرى حيث تقدّمه إلينا رئيسا وحاكما . وكل ما نعرفه عن نسبته أنه يوسف بن تاشفين بن ابراهيم بن ترقوت ، وأنه ينتمى إلى قبيلة لمتونة من بطون صَنهاجه إحدى قبائل البرانس وأعظم القبائل البربرية فى ذلك العصر عدداً وعصبية وجاها . وأما تاريخ مولده فهو على أرجح الأقوال فى بداية المائة الخامسة للهجرة ، وأما عن نشأته وتربيته فلا تقدّم إلينا الرواية أية تفاصيل شافية . بيد أنها تنوّه بخلاله الممتازة من الحكمة والشجاعة والعدل والتقوى . ومن المرجح أيضاً أنّ يوسف لم يتلقّ من العلم قسطاً يذكر أو لم يتلقّ منه شيئاً . فقد كانت قبائل المغرب الأقصى يومئذ تسودها البداوة

والجهل ، ويسودها نوع من الوثنية ، ولا تعرف من الإسلام سوى الاسم .

وإنما نشأ يوسف فى بيت رياسة فى لمتونة . ولرياسة لمتونة فى هذا العصر قصة خلاصتها أن زعيم لمتونة فى أوائل القرن الخامس الهجرى يحيى بن إبراهيم اللمتونى لما رأى ما انتهى إليه قومه من الجهل والبداوة والتأخر ، فكر فى العمل على تهذيبهم وتثقيفهم فى أمور دينهم ورحل فى طلب العلم إلى المشرق . ولما عاد إلى قومه استقدم معه من القيروان فقيهاً يدعى عبد الله بن ياسين الجزولى، ليعلمهم أمور دينهم . وكان عبد الله من أولئك الدعاة الذين يضطرمون غيرة وحماسة ، وكان فوق تقشفه وورعه، خطيباً موهوباً قوى التأثير ، فاستطاع بعد جهود شاقة أن يستميل إليه أولئك البدو الصحريين ، وأن يثقفهم فى أمور الدين ، وأن يبث إليهم كثيراً من الحماسة الدينية . ولما تمكنت هيبته من نفوسهم وأصبح صاحب الأمر فيهم ، دعاهم إلى الجهاد ، وبثّ تعاليم الإسلام الصحيحة بين القبائل ، فلبّوا الدعوة وحاربوا القبائل المجاورة وأخضعوها تباعا ، حتى دانت لهم سائر لمتونة وكدالة ومسوفة ومسطاسة وغيرُها من بطون صنهاجة . وتولى عبد الله بن ياسين الزعامة الدينية . ولما توفى يحيى ابن إبراهيم اللمتونى ندب عبد الله للرياسة مكانه أبا زكريا يحيى بن عمر اللمتونى ليتولى شئون الحرب والجهاد .

وكانت هذه القبائل تُعرف عندئذ بقبائل الملثمين إما لأنهم كانوا يتخذون فى أعراسهم نوعاً خاصاً من الحجاب ، أو لأنه حدث ذات مرّة فى بعض حروبهم أنّ نساءهم كن يقاتلن معهم محجبات حتى يحسبن بذلك فى عداد الرجال ، أو أنهم كانوا يقلدون فى ذلك قبيلة حمير التى كانوا ينتسبون إليها ؛ فأطلق عليهم عبد الله بن ياسين لقباً جديداً وسمّاهم بالمرابطين . والمرابط هو من لازم الثغر لدفع العدوّ وذلك إشارة إلى اضطلاعهم بمهمة الجهاد فى سبيل الله ، وعرفوا من ذلك الحين بهذا الاسم الجديد .

* * *

واستمرّ عبد الله بن ياسين فى غزواته لقبائل المغرب وإماراته ، وافتتح بلاد درعة

وسجلماسة الواقعة فى جنوب شرق موقع مدينة مراكش — ولم تكن أنشئت بعد — ثم افتتح أغمات؛ وتوفى أبو زكريا يحيى بن عمر اللمتونى فى تلك الأثناء فندب عبد الله للرياسة مكانه أخاه أبا بكر بن عمر، وذلك فى سنة ٤٤٨هـ . وعيّن أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين قائداً لمقدّمة جيشه، وسار نحو الجنوب مفتتحاً بلاد السوس، بينما كان عبد الله بن ياسين يدفع فتوحه نحو الشمال والشرق حتى قتل مجاهداً فى بعض حروبه ضد أهل تامسنا وهى أقصى فتوحه شمالاً وذلك فى سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩م).

وهكذا تذكر الرواية لأول مرة اسم يوسف بن تاشفين، وتقدّمه إلينا فى معرض الرياسة والقيادة. أما قبل ذلك فقلّما تذكر عنه شيئاً.

ولما توفى عبد الله بن ياسين، استقل أبو بكر بن عمر اللمتونى بالزعامة والحكم وتابع حروبه وغزواته، ثم سار إلى الصحارى الجنوبية فتوغل فى بلاد السودان مما يلى جنوب المغرب الأقصى، واستخلف ابن عمه يوسف فى الحكم. وشغل يوسف فى تلك الأثناء بتوسيع سلطانه ودانت له معظم القبائل. وفى سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) اختط مدينة مُراكش أو مَراكش لتكون له قاعدة ومعقلا وابتنى بها مسجداً وقصراً حصيناً. وفى بعض الروايات أن الذى وضع خطط مراكش الأولى هو أبو بكر اللمتونى ثم أتمها يوسف من بعده.

وبينما كان أبو بكر مشغولا بحروبه فى الصحراء. كان يوسف يفتتح مدن المغرب واحدة بعد أخرى. فسار أولاً إلى مدينة فاس أعظم قواعد المغرب الأقصى وافتتحها سنة ٤٥٥هـ، واخترق بعد ذلك مفاوز غمارة غازياً حتى طنجة، واستمر يفتتح القواعد والثغور تباعاً حتى دوّخ قبائل المغرب كلها، وخضعت له زناتة وغمارة ومصمودة ومغراوة بعد حروب شديدة استمرت عدة أعوام. وفى سنة ٤٧٠هـ استولى يوسف على طنجة من واليها الحاجب سكوت البرغواطى وكان شيخاً فى التسعين من عمره فقاتل الفاتحين حتى قتل. وزحف يوسف بعد ذلك على المغرب الأوسط فافتتح تِلِمْسان ووهران، واستمر فى فتوحه حتى الجزائر ثم تونس. وكانت مدن المغرب وثغوره يومئذ

جميعها فى يد الزعماء والأمراء المحليين يحكمونها مستقلين عن كل سلطة مركزية، فقضى يوسف على سلطانهم و بسط حكمه على جميع أقطار المغرب من تونس شرقاً حتى المحيط الأطلنطى غرباً ، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالاً حتى حدود السودان جنوباً .

وفى أثناء ذلك كان أبو بكر اللمتونى أمير لمتونة الشرعى قد عاد من غزواته فى الصحراء بعد بضعة أعوام ، ورأى ما أحرزه ابن عمه يوسف من سعة الملك وفخامة السلطان ، فهابه وخشى بأسه إذا هو حاول استرداد سلطانه ، فآثر أن يعود بجيشه ثانية إلى الصحراء واستمر فى غزواته مجاهداً فى تلك القفار حتى توفى قتيلاً فى سنة ٤٨٠ هـ . (١٠٨٧ م) .

وهكذا قامت دولة المرابطين الكبرى ، وأقامتها عبقرية رجل واحد هو يوسف ابن تاشفين بعد أن وضع أسسها الأولى فقيه متواضع هوعبد الله بن ياسين ، واستحالت بسرعة من زعامة دينية محلية إلى ملك سياسى ضخم وتلقب يوسف بأمير المسلمين . ولم يتلقب بألقاب الخلافة . وذكر ابن أبى زرع الفاسى فى «روض القرطاس» أن يوسف تلقب بألقاب الخلافة . وهى رواية ضعيفة . ومعظم الروايات الأخرى على أنه اكتفى بلقب الإمارة ، وأنه كان ينضوى تحت لواء الخلافة العباسية ، وأن الخليفة العباسى المستظهر بالله أجابه إلى ما طلب من إقراره على ولاية المغرب ، وأرسل إليه بالعهد والخلع والتشاريف ، ونقش اسم الخليفة العباسى على السكة ، وهو ما يؤيده ابن أبى زرع مناقضاً بذلك روايته من أنه تلقب بألقاب الخلافة .

٢

وهنا ننتقل إلى صفحة أخرى من حياة يوسف بن تاشفين .

لم يكن إنشاء هذه الإمبراطورية المغربية الشامخة أعظم ما فى حياة هذا الفاتح العظيم ؛ فهناك فى سيرة حياته صفحة أروع من هذه وأبعد أثراً .

كانت الأندلس فى الوقت الذى قامت فيه دولة المرابطين القوية فى الضفة الأخرى من البحر تجوز مرحلة من أخطر وأدق مراحل تاريخها ؛ وكانت الخلافة الأموية قد

انهارت منذ فاتحة القرن الخامس الهجرى ، وسقطت الأندلس فريسة الاضطراب والفوضى ، وتواثب الزعماء الطامحون إلى الرياسة فتقاسموا أشلاءها . وقامت فى مختلف المقاطعات والمدن عدة كبيرة من الدويلات الصغيرة عرفت بدول الطوائف ، وتشبه أمراؤها بالخلفاء فى ترتيب القصور الباذخة ، واتخاذ الألقاب الضخمة على حد قول ابن رشيق :

مما يزهدنى فى أرض أندلس   تلقيب معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها   كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد

والواقع أن دول الطوائف إذا استثنينا دولة بنى عباد فى إشبيلية ، كانت دولاً هزيلة يقتصر معظمها على مدينة أو مجموعة صغيرة من المدن. وكان انقسام الأندلس على هذا النحو خطراً على مستقبل الإسلام فى الأندلس ، سيما وقد كانت اسبانيا النصرانية ترقب الفرصة دائماً للبطش باسبانيا المسلمة . وكان ملوك الطوائف فوق ذلك يخاصم بعضهم بعضاً ويحاول كل منهم أن ينتزع ما فى يد جاره من الأراضى والمدن . وكانت الحرب الأهلية تضطرم بينهم بلا انقطاع . وكانت اسبانيا النصرانية قد اتحدت كلمتها يومئذ والتأم شملها إلى مملكتين هما قشتالة وأراجون . وكان على عرش قشتالة فى ذلك الحين ملك قوى البأس والعزم هو ألفونسو السادس فرأى الفرصة سانحة للبطش بهذه الدويلات الإسلامية الصغيرة وافتتاحها واحدة بعد الأخرى . ولم يفطن ملوك الأندلس فى البداية إلى هذا الخطر الداهم فلم يكتفوا بقتال بعضهم بعضاً ، بل أخذ كل منهم يستظهر على أخيه بمحالفة ملك النصارى ، والانضواء تحت لوائه ودفع الجزية له . وألفونسو السادس يشجعهم على هذه السياسة ويؤلب بعضهم على بعض . وكان المعتمد بن عباد كما قدمنا فى ترجمته أقوى ملوك الطوائف أشدهم تورطاً فى تلك الخطة . ولم تلبث هذه السياسة الخطرة أن أثمرت ثمرتها وبدأ ملك النصارى فى تنفيذ خطته فى الاستيلاء على قواعد الأندلس . وكانت طليطلة أول قاعدة إسلامية سقطت فى يد النصارى، استولى عليها ألفونسو السادس من يد أمرائها بنى ذى النون فى سنة ٤٧٨هـ

(١٠٨٥ م) . وكان لسقوطها دوى هائل فى الأندلس وفى جميع أنحاء العالم الإسلامى . وتوالت غزوات ألفونسو السادس لدول الطوائف ، وأخذ يهدد سرقسطة وإشبيلية وبطليوس وغيرها من قواعد الأندلس . وشعر ملوك الطوائف — وفى مقدمتهم المعتمد ابن عباد حسبما أسلفنا — أن مصيرهم جميعاً إلى السقوط والهلاك إذا لم تجتمع كلمتهم ، وإذا لم يتداركهم غوث من الخارج ، واتجهوا جميعاً بأبصارهم إلى الضفة الأخرى من البحر : إلى المرابطين إخوانهم فى الدين وإلى أميرهم يوسف بن تاشفين . وكان يومئذ فى ذروة القوة والسلطان ، وقد اشتهرت فتوحه فى الأندلس وفى سائر العالم الإسلامى .

وهكذا أجمع ملوك الطوائف أمرهم على الاستغاثة بفاتح إفريقية وبعثوا إليه برسلهم وكتبهم يستنصرون به على محاربة النصارى ، ويصفون له ما أصاب الأندلس على يدهم من المحن ، وما يهددها من خطر السقوط والفناء إذا لم يتداركها بغوثه ونصرته . وتردد يوسف بن تاشفين فى البداية فى إجابة مطلبهم لأنه لا يعرف أحوال الجزيرة ، ولم يشتبك من قبل قط مع النصارى فى ميدان الحرب . ولكنه اعتزم فى النهاية أن يستجيب إلى دعوتهم وأن يبادر إلى إنجادهم . ولا ريب أن يوسف كانت تحدوه فى ذلك نزعة دينية ، وربما كانت تحدوه أيضاً فكرة غامضة فى الاستيلاء على وديان الأندلس الجميلة التى طالما سمع العجائب عن خصبها وغناها .

وحشد يوسف جيشاً عظيماً من المرابطين وعبر البحر إلى الأندلس فى قواته ، فاستقبله أمراء الأندلس فى الجزيرة الخضراء ، ثم سار بجيشه إلى إشبيلية حيث وافته جيوش الأندلس . وكان ألفونسو السادس فى ذلك الحين مشتغلاً بمحاربة ابن هود أمير سرقسطة ، فلما علم بعبور المرابطين إلى الجزيرة ترك فى الحال محاربة ابن هود وجمع الجند من سائر الأنحاء ، ولبى ملوك النصارى الآخرون دعوته وسارعوا إليه فى قواتهم . وسارت الجيوش النصرانية المتحدة إلى لقاء الجيوش الإسلامية المتحدة . والتقى الفريقان على مقربة من بَطَلْيوس فى سهل تسميه الرواية العربية بالزّلاقة وتسميه الرواية النصرانية « ساكرالياس » ، وذلك فى أوائل شهر رجب سنة ٤٧٩ هـ .

وفى يوم الجمعة ١٢ رجب الموافق ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦، اشتبك الفريقان فى معركة هائلة، وكادت قوى الأندلس التى تؤيدها طلائع المرابطين تسحق فى البداية، ولكن يوسف وثب عندئذ فى نخبة جنده إلى قلب المعمعة ، ولم تلبث أن دارت الدائرة على النصارى وهزموا هزيمة ساحقة ، وقتل معظمهم أو أسر، ولم ينج ملكهم من الأسر إلا بصعوبة ، وفرّ فى بضع مائة من جنده جريحاً مهيضاً .

***

وكان ظفر الزلاّقة ظفراً للاسلام كله على النصرانية كلها . فارتد خطر النصرانية عن الأندلس إلى حين ، بعد أن كانت على وشك الفناء ، وكتبت لها حياة جديدة امتدت إلى أربعة قرون أخرى .

وعاد يوسف إلى إفريقية متوّجاً بتاج الفخار والظفر . ولكنه لم يلبث أن عاد إلى الجزيرة بجيش جديد ليحارب النصارى إلى جانب قوات الأندلس للمرّة الثانية تحت أسوار حصن لبيط أو (اليدو) فى سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) . ولكن لم تقع بين الفريقين هذه المرة مواقع فاصلة ، وترك يوسف قواته فى اسبانيا بإمرة خيرة قواده سير بن أبى بكر اللمتونى .

ولم يمض على ذلك نحو عام حتى عاد يوسف إلى الأندلس للمرة الثالثة بجيش ضخم . ولم يكن عبوره هذه المرة لمقاتلة النصارى ، بل كانت تحدوه خطط ومشاريع أخرى . فقد رأى بنفسه جمال الأندلس ووفرة خِصْبها وغناها ، ورأى فى الوقت نفسه ما كان عليه أمراء الأندلس من التنابذ والتخاذل والإفراط فى البذخ والترف والعيش الناعم ، وإهمال شئون الرعية . واعتزم أن يبيد ملكهم ، وأن يضمّ الأندلس إلى مملكته . واتخذ عندئذ لذلك كل أهبة ، ووزع قواته فى أنحاء الأندلس . وبدأ بالاستيلاء على غرناطة، ثم سير قواته إلى أراضى إشبيلية أقوى دول الطوائف ، ودافع المعتمد بن عباد عن عاصمته وملكه حسبما فصلنا أمجد دفاع وأروعه ؛ ولكن ذلك لم يغنه شيئاً فسقطت إشبيلية فى يد المرابطين وذلك فى رجب سنة ٤٨٤ هـ (سبتمبر

سنة ١٠٩١م) وأسر المعتمد وسائر آله . واستولى المرابطون فى نفس الوقت على قرطبة وقتلوا بها المأمون ولد المعتمد وقتلوا ولده الراضى بالله فى رندة ، ثم استولوا على ألمرية فبلنسية ومرسية . ثم غزوا بَطَلْيوس واستولوا عليها وقتلوا أميرها ابن الأفطس الملقب بالمتوكل وأولاده الثلاثة فى مناظر مؤسية ؛ وأثارت هذه المحنة دولة الشعر كما أثارتها محنة بنى عباد ، ونظم الشاعر الأشهر ابن عبدون فى رثاء بنى الأفطس قصيدته الرّنانة التى مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر   فما البكاء على الأشباح والصور (١)

ولم تمض أعوام ثلاثة حتى كانت الأندلس كلها قد سقطت فى أيدى المرابطين وذلك فى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤م) .

وهكذا احتوى يوسف بن تاشفين على تراث الأندلس بضربة سريعة حاسمة ، وانقلب المنقذ المنجد إلى فاتح متغلب ، واستطاع البربر لأول مرة منذ فتح الأندلس أن يفرضوا سلطانهم على الأندلس كلها .

وأبدى يوسف فى معاملة أمراء الأندلس الذين نجوا من القتل قسوة ظاهرة فوضعهم فى الأصفاد وبعث بهم إلى المعتقل فى المغرب ، وخصّ المعتمد بن عباد وآله بأعظم قسط من هذه القسوة حسبما فصلنا .

وأسبغت قسوة يوسف نحو أمراء الأندلس ونحو المعتمد بنوع خاص ، على سيرته وعلى خلاله ، سحباً لم تمحها جميع الأعذار التى انتحلت لتبرير عمله .

وقد عرضنا فى ترجمة المعتمد إلى عناصر هذه المأساة ونواحيها المختلفة ، وإلى الصدى العميق المحزن الذى تركته فى صحف الأندلس والمشرق ، وإلى كونها تعتبر بحق وصمة خالدة فى تاريخ يوسف لم يمحها كر العصور .

٣

بقيت بعد ذلك كلمة عن خلق يوسف بن تاشفين وصفاته . لقد كان أمير المرابطين

(١) راجع هذه القصيدة بأكملها فى المعجب للمراكشى ص ٤٢ وما بعدها .

بلا ريب من أولئك الرجال الأفذاذ الذين خلقوا للزعامة و إنشاء الدول ؛ وكان يتمتع بمواهب وصفات بارعة من الذكاء والشجاعة والفطنة و بعد النظر ؛ وكان فى الحرب قائداً عظيماً وجندياً مجرباً وفارساً شجاعاً ، وكان التقشف من أخص صفاته ، فقد كان رغم ملكه الشامخ يعيش كأبسط رعاياه بعيداً عن كل مظاهر الترف والنعماء ، و بلغ من تقشفه أنه لم يكن يأكل سوى خبز الشعير ولحم الإبل ولا يشرب سوى لبن الإبل ، وقد وهبه الله بسطة فى الجسم وصحة بديعة ، واستطالت حياته إلى مائة عام أو تسعين عاماً على قول آخر ؛ وتوفى سنة خمسمائة من الهجرة (١١٠٦ م) بعد أن حكم زهاء خمسين عاماً وقام بأعظم فتوحه وأعماله ، وأنشأ امبراطورية المرابطين الشامخة بعد أن جاوز الستين ، وحارب فى موقعة الزلاقة وهو فى نحو الثمانين .

وترك يوسف مملكته لابنه الأصغر علىّ ؛ ولكن دولة المرابطين القوية لم يتح لها أن تعيش طويلاً بعد وفاة مؤسسها العظيم بل نستطيع أن نقول إن وفاة يوسف كانت نذيراً بانحلالها وتفككها . ولم تمض ثلاثون عاماً أخرى حتى سقطت هذه الدولة العظيمة الشامخة فريسة لفورة دينية أخرى كان مثير ضرامها أبو عبد الله محمد ابن تومرت الملقب بالمهدى مؤسس دولة الموحدين الكبرى[1]

(١) رجعنا فى هذا الفصل إلى تاريخ ابن خلدون ، والأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبى زرع الفاسى ، وإلى الحلل الموشية لابن الخطيب ، ونفح الطيب للمقرى ، وإلى العلامة دوزى : Histoire des Musulmans d'Espagne V. III

المهدي ابن تومرت

(٤٨٥ — ٥٢٤ هـ) ، (١٠٩٢ - ١١٢٩ م)

كانت دولة المرابطين حسبما بينا فى الفصل السابق فى بداية أمرها ، ثمرة للدعوة الدينية التى قام بها عبد الله بن ياسين فى قبيلة لمتونة ، وكذلك كانت دولة الموحدين ، التى خلفتها واحتوت على تراثها ، ثمرة لدعوة دينية من نوع آخر ، هى الدعوة التى قام بها أبو عبد الله محمد بن تومرت الملقب بالمهدى .

غير أن العامل الدينى كان أشد وضوحاً وأعمق أثراً فى قيام دولة الموحدين ، منه فى قيام دولة المرابطين .

كانت دعوة محمد بن تومرت وتعاليمه الدينية ، هى دستور الدولة الجديدة التى قدر لها أن تعمر أضعاف ما عمرته الدولة المرابطية . وكان ابن تومرت يسبغ على دعوته أكثر من صفة المصلح العادى ، وينتحل لها صفة الرسالة ، ومن ثم كانت صفة المهدى التى اتشح بها فى أواخر حياته ، واتخذت علماً لدعوته ، وللدولة التى قامت عليها .

ويجدر بنا قبل أن نتحدث عن سيرة المهدى ابن تومرت أن نذكر كلمة موجزة عن هذه الأسطورة الدينية ، أعنى أسطورة المهدى التى ملأت فراغاً كبيراً فى الكلام الإسلامى ، وكانت مبعث طائفة من الدول الإسلامية الكبرى .

إن أسطورة المهدى ، ترجع إلى عصر الإسلام الأول ، وهناك طائفة من الأحاديث المنسوبة إلى النبى (ص) ، تشير إلى هذه الأسطورة . ولكنها موضع كثير من الجدل والريب ، هذا إلى طائفة من الأقوال المأثورة تنسب إلى بعض أكابر الصحابة ، وخلاصة هذه الأحاديث والأقوال « أنه لا بد فى آخر الزمان من

ظهور رجل من أهل البيت ، يؤيد الدين ، ويظهر العدل ، ويتبعه المسلمون ، ويعيد مجد الإسلام ويسمى بالمهدى ». وقد قوى أمر هذه الأسطورة منذ أواخر القرن الثانى من الهجرة ، وعمل الشيعة على تقويتها وإذاعتها ، وعنى أئمتهم بأن يضعوا لها الأسانيد الكلامية والشروح التاريخية ، حتى أصبحت جزءاً من العقيدة الشيعية ذاتها . واتخذت أسطورة المهدى صبغتها السياسية على يد إحدى فرقهم المعروفة بالإثنى عشرية ، وهم يسوقون الإمامة فى ولد على بن أبى طالب حتى جعفر الصادق ، ثم يفترقون عندئذ إلى فرقتين تقول الأولى بإمامة ولده إسماعيل وهؤلاء هم الإسماعيلية ، وتقول الثانية بإمامة ابنه موسى الكاظم ، ثم بإمامة جماعة من ولده بالتوالى حتى محمد المهدى ، وهو الثانى عشر من أئمتهم ، ومن ثم كانت تسميتهم بالإثنى عشرية ، ويقول هؤلاء إن محمداً المهدى خاتم أئمتهم لم يمت ولكنه اختفى ولا يزال مختفياً حتى آخر الزمان ، ثم يخرج فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً ، ويسمونه بالمهدى المنتظر . وانساق بعضهم إلى التحديد ، فعينوا لظهور المهدى آخر المائة السابعة من الهجرة ، أو سنة معينة هى سنة ٦٨٣ هـ ، وزعم آخرون أن ظهوره سيقع فى سنة ٧٤٣ هـ ، وكلهم يتقدم لتأييد نبوءته بأسانيد واهية ويستتر وراء الرموز والإشارات الغامضة ، مما يدل على أنهم كانوا ينطقون بوحى دعوة سرية دينية سياسية . ومن المدهش أن نرى فيلسوفاً عظيماً هو الكندى يؤيد صحة الأسطورة فيقول لنا إن المهدى يجدد الإسلام ويظهر العدل ويفتتح الأندلس ورومة وقسطنطينية ، ويملك الأرض .

وقد حاول الشيعة منذ عصور الإسلام الأولى أن يطبقوا أسطورة المهدى بصورة عملية ، فخرج كثير من دعاتهم أيام الدولة العباسية فى الحجاز وخراسان ، وانتحلوا الإمامة ، وزعم بعضهم أنه المهدى ؛ ولكن أولئك الدعاة لم يوفقوا إلى نجاح يذكر ، واستطاعت الدولة العباسية أن تخمد ثوراتهم فى مهدها .

ولما رأى الشيعة أن محاولتهم فى المشرق تصطدم بصخرة الدولة العباسية فكروا

فى اختيار ميدان آخر لمحاولتهم . وفى أواخر القرن الثالث لاحت لهم فرصة جديدة للعمل ، واتجهوا بأبصارهم إلى المغرب ؛ وكانت القبائل البربرية يسودها يومئذ انحطاط فكرى شامل ، وتغلب عليها البداوة والخرافة والرسوم الوثنية ، فظهرت طلائع الشيعة فى أواخر القرن الثالث فى المغرب الأوسط ، واستطاع داعية الشيعة الكبير أبو عبد الله الشيعى بعزمه ودهائه أن يمهد للدعوة الشيعية ميداناً صالحاً للعمل بين هذه القبائل الساذجة . وظهر فى أثره عبيد الله المهدى مسلحاً بأسطورة المهدى المنتظر مستظلا بنسبه آل البيت ، ومنتسباً لفاطمة بنت الرسول (ص) . واستطاع بعد خطوب جمة أن ينتزع ملك الأغالبة المتداعى ، وأن ينشئ فى إفريقية أول دولة شيعية هى الدولة العبيدية الفاطمية ، التى افتتحت مصر بعد ذلك بقليل ، وأقامت بها دولة من أعظم الدول الإسلامية .

* * *

وقد ظهر محمد بن تومرت فى هضاب المغرب الأقصى فى ظروف تشبه الظروف التى ظهر فيها عبيد الله المهدى من وجوه كثيرة : فى نفس المجتمع البربرى الساذج ، وبين قبائل يغمرها الجهل والبداوة ، لا تكاد تعرف من الإسلام سوى الاسم ، وهى مع ذلك تفيض تعصبا وحماسة ، متى ألفت زعيما يحركها وعلماً تنضوى تحت لوائه . ولم تك دولة المرابطين الشامخة سوى ثمرة لعبقرية مؤسسها يوسف بن تاشفين ، وكانت منذ وفاته تسير إلى التفكك سراعاً ، وأخذت أسباب الفساد والتدهور تدب إليها ، وغاضت الحماسة الدينية القديمة التى أثارها فيها مؤسسها الروحى عبدالله بن ياسين ، وحلت مكانها ، فى ظل الثراء والنعماء ، نزعة إلى الفساد والمعصية ، ونبذ تعاليم الدين وأحكامه .

فى تلك الظروف ظهر ابن تومرت وكان مولد هذا الداعية المضطرم فى سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) فى بلاد السوس الأدنى جنوبى مراكش ، فى قبيلة هرغة إحدى بطون مصمودة وهى من أعظم قبائل المغرب الأقصى . وهو محمد بن عبدالله بن وكليد

ابن يامصل بن حمزة ؛ وذكر لنا تلميذه ومؤرخه أبو بكر الصنهاجي فى سبب تسميته ابن تومرت أن أمه فرحت بتولده ، وكانت كلما سئلت عنه أجابت بلسانها البربرى « يك تومرت » ومعناه صار فرحاً ، فغلب عليه ذلك اللقب . وسنرى فيما بعد أنه ينتسب إلى آل البيت ، ويُرجع نسبته إلى الحسن بن فاطمة بنت الرسول (ص) . ورحل ابن تومرت منذ حداثته فى طلب العلم إلى الأندلس . ثم رحل إلى المشرق ، ومر بمصر ودرس فيها حيناً ، ثم سافر إلى مكة وأدى فريضة الحج ، ورحل بعدئذ إلى العراق ؛ ولقى فى بغداد الفيلسوف الأشهر أبا حامد الغزالى ودرس عليه ، وكان كتاب الإمام الغزالى الجامع المسمى « إحياء علوم الدين » قد أثار يومئذ ضجة فى الأندلس ، وأنكره فقهاء قرطبة ، ونسبوا مؤلفه إلى الخروج على الكتاب والسنة ، وأخذ برأيهم سلطان المرابطين على بن يوسف وأمر بأن تحرق كتب الغزالى فى جميع أنحاء الأندلس والمغرب . فيروى أن الغزالى حينما لقى ابن تومرت وعلم منه ما لقيت كتبه ولا سيما كتاب إحياء علوم الدين ، من التمزيق والإحراق ، لم يتمالك نفسه من التأثر ودعا على المرابطين وملكهم بما معناه « اللهم مزق ملكهم كما مزقوه ، وأذهب دولتهم كما أحرقوه » وأن ابن تومرت سأل الغزالى عندئذ الدعاء بأن يكون ذلك الأمر على يديه ، فأجابه الغزالى إلى ما طلب .

ومهما كان من حقيقة هذا الحادث فإنه يدل دلالة واضحة على ما تحاول أن تسبغه الرواية من ألوان خارقة على سيرة ابن تومرت . وعلى أى حال فقد غادر ابن تومرت بغداد وقد حصل فى رحلته الطويلة كثيراً من علوم الدين واللغة وعاد إلى مصر ولقى فى الإسكندرية العلامة أبا بكر الطرطوشى الأندلسى ، وحاول أن يبث هنالك شيئاً من آرائه ودعوته فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولكنه أثار ريب السلطات بمسلكه ، وحُمل على مغادرة مصر ، فركب البحر إلى وطنه ونزل أولاً بتونس ، ثم أخذ يتنقل فى مدن المغرب تباعاً : قسنطينة فبجاية فتلمسان ففاس فكمناسة فسلا

فمراكش فأغمات ، وهو يبث دعوته أينما نزل ، وتهرع الجماهير لسماع وعظه ، فيخلبها بفصاحته وحماسته وقوة منطقه ، وتحتشد حوله التلاميذ والأنصار . وفى بجاية لقى المهدى فتى وسيم الطلعة يفيض ذكاء وحماسة ، وكان فى طريقه إلى المشرق للدرس ، فأدناه وقربه إليه ، وأقنعه بالبقاء إلى جانبه والدرس عليه ؛ ولم يكن ذلك الفتى سوى عبد المؤمن بن على ، أعظم وأخلص تلاميذه ، وخليفته فيما بعد ، ومؤسس دولة الموحدين الحقيقى ؛ ويقال أيضاً إن ابن تومرت أقنع عبد المؤمن بأمارات وشواهد عينها ، بأنه هو الذى اختارته العناية للقضاء على دولة المرابطين ، وإقامة الدولة الجديدة على أنقاضها .

٢

وفى نحو سنة ٥١٤ هـ كان ابن تومرت قد أتم طوافه بمدن المغرب وهو يبث دعوته إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإحياء السنة ، وهو فى كل موطن يثير سخط السلطات عليه ، بما ينسبه إليها من التهاون فى أمر الدين وتشجيع الفساد والظلم وما يبثه فى نفوس الناس من الحماسة لدعوته وآرائه ؛ ونزل أخيراً فى مراكش يكرر دعوته فى مساجدها ويشدد النكير على أهل السلطان ، ويرمى حكومة المرابطين بكل نقيصة حتى اشتهر أمره وذاعت دعوته بين الكافة وأخذت تحدث أثرها فى تحريضهم على رجال الحكم . ووقف سلطان المرابطين على بن تاشفين على أمره ولفت بعض وزرائه نظره إلى خطورة هذه الدعوة ووجوب سحقها فى المهد باعتقال صاحبها ومعاقبته فاستدعاه على إلى القصر ليناظره فقهاء الدولة فيما يبشر به ؛ ولم يحجم ابن تومرت عن المجاهرة بآرائه والتشديد على حكومة المرابطين ، ورميها بالظلم والتسامح فى ارتكاب المعاصى فى حضرة السلطان ذاته ؛ ومع أنّ السلطان اقتنع بخطر هذه الدعوة فإنه اكتفى بنفى صاحبها من مراكش ولم يتعرض إليه بأذى ، فاستقر ابن تومرت حيناً على مقربة من المدينة بين مقابرها وهو مثابر على بثّ دعوته ، ومن حوله نفر من تلاميذه . ولما اشتدت حملاته وأخذت بوادر الفتنة تبدو من جراء تحريضه على

حكومة المرابطين ، اعتزم على بن تاشفين القبض عليه والتنكيل به ؛ وعلم ابن تومرت بذلك فى الوقت المناسب ففر إلى أغمات ثم إلى تينملل ، وهى محلة حصينة فى الجبل فى جنوب غربى مراكش فى بلاد السوس ومعه عدد كبير من الصحب والتلاميذ .

وهنالك فى تينملل فى سنة ٥١٥ هـ كشف ابن تومرت عن حقيقة مشروعه فأعلن أنه المهدى المنتظر، وأنه أرسل ليقمع الفساد والبغى، ويقيم حكم الكتاب والسنة ، ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، وساق نسبته إلى آل البيت عن طريق الأدراسة ، وبايعه أصحابه المخلصون بذلك ، تحت شجرة خروب ؛ وكان أول من بايعه أحب تلاميذه إليه وأوفاهم عبد المؤمن بن على، وأطلق عليه أصحابه الإمام المعصوم، وأقسموا ببذل أموالهم وأرواحهم فى سبيل دعوته . وأطلق المهدى على أنصاره اسم الموحدين وهو الاسم الذى عرفت به دولتهم فيما بعد . وقد اشتقت هذه التسمية من دعوة المهدى نفسه ، فرسائله إلى أنصاره تقوم فى جوهرها كما سنرى على تمجيد فكرة التوحيد واعتبارها أساس الدين ؛ وذكر لنا ابن خلدون من جهة أخرى أن المهدى أطلق هذا اللقب على أنصاره تعريضاً بقبيلة لمتونة أى المرابطين، لأخذهم بمبدأ العدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم ، وكان المهدى ينعت المرابطين بالمجسمة ولا يسميهم مؤرخه أبو بكر الصنهاجى إلا بهذه التسمية . وقسم المهدى أنصاره إلى عشر جماعات أو طبقات متوالية ، أولاها طبقة العشرة وهم أخلص أنصاره وأول من بايعه وهم عبد المؤمن بن على وأبو محمد البشير وعبد الله بن مَلْويات وأبو حفص بن يحيى الهنتاتى وأبو حفص عمر بن على بن أزناج وسليمان بن مخلوف و إبراهيم بن اسماعيل الخزرجى وأبو محمد عبد الواحد الحضرمى وأبو عمران موسى بن تمار وأبو يحيى بن بكيت، وسمّى هؤلاء العشرة بالجماعة والمهاجرين الأولين وهم أعوانه الأقربون وموضع ثقته . ويلى هؤلاء طبقة الخمسين ثم طبقة السبعين، ومنها يتخذ العشرة أعوانهم فى الإدارة والقيادة، ثم طبقة العلماء (الطلبة) فالحفاظ فطبقة أهل الدار وهم أهل هرغة قوم المهدى ، فأهل تينملل فأهل جرميوت ، ثم الجند والأنصار من مختلف القبائل . وكان قد اجتمعت

لدى المهدى فى ذلك الحين منهم جموع كبيرة فاختار منهم جيشاً قوامه عدة آلاف ووضعهم تحت قيادة ابى محمد البشير أحد العشرة المختارين . وأعظم أنصاره خبرة بفنون الحرب والقتال .

وفى العام التالى فى سنة ٥١٦ هـ اعتزم المهدى أن يبدأ ثورته العملية على حكومة المرابطين ، فبعث جيشه إلى الأنحاء المجاورة ، ونشبت بينه و بين المرابطين عدة مواقع متوالية هزم فيها المرابطون جميعاً ؛ وفى الرواية أن جنود المرابطين حينما كانت تلتقى بجيش الموحدين كان يسرى إليها رعب فجائى فتركن إلى الفرار . وكان على بن تاشفين وقتئذ بالأندلس فلما علم بخروج المهدى ارتد مسرعاً إلى المغرب وأخذ يرسل البعوث لمحاربته ، ولكن النصر كان حليف ابن تومرت دائماً . ولما رأى ابن تومرت تألق طالعه اتخذ مدينة تينملل الحصينة قاعدة لحكومته ، وأخذ يسير منها البعوث لافتتاح الأنحاء المجاورة . ثم انتهت به الجرأة إلى أن يسير قواته لمهاجمة مراكش عاصمة المرابطين ، فحشد على بن تاشفين خيرة جنده للدفاع عنها ، ونشبت بين الفريقين فى سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥م) معركة هائلة هزم فيها الموحدون وقتل قائدهم أبو محمد البشير وعدة من أصحاب المهدى العشرة ، وقاد فلول الجيش عبد المؤمن بن على إلى تينملل ، وخبت وثبة الموحدين إلى حين .

وأنفق المهدى بضعة أعوام فى التأهب . وفى سنة ٥٢٤ هـ بعث جيشه إلى ميدان الحرب مرة أخرى بقيادة عبد المؤمن ونشبت بين الموحدين والمرابطين على مقربة من مراكش معركة هائلة أخرى هزم فيها المرابطون شر هزيمة وارتدوا إلى مراكش وعاد عبد المؤمن إلى تينملل ظافراً ؛ وكان ابن تومرت قد اشتد عليه المرض فى ذلك الحين فتوفى بعد ذلك بقليل فى شهر رمضان سنة ٥٢٤ هـ (سبتمبر ١١٣٠ م) ودفن فى تينملل مهد دولته . وكان صديقه الحميم عبد المؤمن أول المرشحين للخلافة ، وقيل إنه هو الذى اختاره لولاية عهده قبل وفاته . وعلى أى حال فقد أجمع

الموحدون على اختياره للخلافة بالفعل وتمت بيعته بعد ذلك بقليل فى شهور سنة ٥٢٥ هـ واتخذ لقب أمير المؤمنين .

ومن ذلك الحين تتخذ دولة الموحدين أوضاعها السياسية إلى جانب أوضاعها الدينية كدولة ناهضة تؤيد سلطانها بالفتح . وكان الصراع فى الأعوام التالية بينها و بين دولة المرابطين عنيفاً هائلاً . بيد أنه صراع لم يك ثمة شك فى نتيجته ، فقد استمرت الحرب بين عبد المؤمن و بين المرابطين طيلة حكم على بن تاشفين ثم ولده تاشفين ثم حفيده إبراهيم بن تاشفين ولم تأت سنة ٥٤٣ هـ حتى استطاع عبد المؤمن أن يفتتح مدينة مراكش وأن يقضى على دولة المرابطين الشامخة وأن يقيم على أنقاضها دولة الموحدين قوية موطدة الدعائم .

٣

كان ابن تومرت حسبما تصفه الرواية رجلاً ربعة أسمر ، عظيم الهامة غائر العينين حديد البصر خفيف العارضين له شامة سوداء على كتفه الأيمن وكان متمكنا من علوم الدين واسع الاطّلاع والمعرفة وافر الذكاء والفصاحة قوىّ الحجة وكان شديد التقشّف والزهد والورع . بيد أنه كان شديد التعصب صارماً سفّاكا للدماء يستبيح دم المخالفين له فى الرأى سواء أكانوا من الأصدقاء أم الأعداء ، ولا ريب أنه كان بين دعاة المهدية أوفرهم عزماً و براعة وأقواهم أثراً . وكانت دولة الموحدين التى شادها عبد المؤمن بعد وفاته ثمرة عبقريته الروحية قبل كل شئ .

وأما دعوة ابن تومرت الدينية فقد صاغها بنفسه فى عدّة رسائل أصدرها إلى شيعته وانتهى إلينا بعضها . وهى تتلخص فى الدعوة إلى إقامة أحكام الكتاب والسنّة ، وإلى التوبة ونبذ المعاصى ، وتمجيد التوحيد ، باعتباره أساس الدين . و إليك نبذاً يسيرة من رسائله توضح مذهبه الدينى والسياسى و برنامجه الإصلاحى .

قال فى رسالة يدعو فيها صحبه إلى محاربة المرابطين ما يأتى :

« فكلّ من أطاعهم فى معصية الله ، وأعانهم على ظلمهم فى سفك دماء المسلمين،

وأخذ أموالهم ، وكلّ من أعانهم من القبائل، فادعوهم إلى التوبة والإنابة ، والرجوع إلى الكتاب والسنة ، فإن قبلوا منكم ورجعوا إلى السنة ، وأعانوكم على جهاد الكفرة فخلّوا سبيلهم وهم إخوانكم فى دين الله ، وسنّة رسوله ؛ وإن عاندوا الحق ، وأصروا على معونة الباطل والفساد، فاقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتّخذوا منهم وليًا ولا نصيراً».

وقال فى رسالة أخرى يشرح فيها ناموسه الدينى والأخلاقى: « والذى نوصيكم به تقوى الله العظيم ، والعملُ بطاعته ، والاستعانةُ به ، والتوكلُ عليه ، واتباعُ الكتاب والسنة ، وتعليمُ التوحيد ، فإنه أصل دينكم ، وبه تصلُح أعمالكم ، والمحافظة على الصلوات فى أوقاتها ، فإنّها عماد الإسلام ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاوَنُوا على الإثم والعدوان ، وائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، واقطعوا المداهنة وسوءَ السيرة ، وعوايد الجاهلية ، واللهوَ والنياحة والسخط عند المصائب ، ولا تخالطوا أهل الفساد ولا تعاملوهم وتواصلو فيما بينكم ، ولا تقاطعوا ، وتحابوا ولا تدابروا ، واتفقوا ولا تختلفوا ، وتطاوعوا ، ولا تنازَعوا ، ولا تغتروا بالدنيا ، فإنها فانية وكلّ من عليها فان » .

هذا نموذج من أقوال المهدى فى رسالته التى يشرح فيها دعوته لشيعته الموحدين والتى انتهى إلينا بعضها فى مخطوط محفوظ بمكتبة الأسكوريال . وقد نشرت هذه الرسائل مع طائفة من أخبار المهدى بقلم أبي بكر بن على الصنهاجي المعروف بابن البيدق بعناية الأستاذ ليڤى پروڤنسال بعنوان « أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين » . وقد كان أبو بكر هذا فيما يبدو من مراجعة روايته عن المهدى تلميذاً من أخصّ تلاميذ ابن تومرت لازمه منذ بداية أمره حتى وفاته ، وشهد بنفسه كثيراً من الوقائع التى يرويها ، وكان فى مقدمة من بايعوه وهو ينعته دائماً بالإمام المعصوم رضى الله عنه ، ويتتبع أخباره مذ عاد من المشرق ونزل بتونس ، ثم تنقل فى بلاد المغرب حتى نزل بمراكش ، وأخباره من بعد ذلك حتى وفاته . وتضمّ هذه المجموعة فوق ذلك نبذاً كثيرة عن صحب المهدى وتلاميذه فى مختلف البلدان ومنهم طائفة

كبيرة فى مصر سموا بأسمائهم ، وتعتبر هذه المجموعة بما تضمه من مختلف الرسائل والأخبار وثيقة هامة عن حياة ابن تومرت و بداية دولة الموحدين .

لبث قبر ابن تومرت فى تينملل عصوراً طويلة مزاراً شهيراً يحجّ إليه المؤمنون من كل صوب ، و يخصه ملوك الموحدين بأعظم آيات الإجلال . وقد نقل إلينا عبد الواحد المراكشى فى كتابه المعجب قصيدة أنشأها فى تخليد ذكرى ابن تومرت والإشادة برسالته ، شاعر من أهل الجزائر وفد على السلطان أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وقام على قبر ابن تومرت وأنشد قصيدته بمحضر من السلطان وشيوخ الموحدين . و إليك بعض ما ورد فيها ، وفيه شرح لأسطورة المهدى :

سلام على قبر الإمام الممجد ... سلالة خير العالمين محمد
ومشبهه فى خلقه ثم فى اسمه ... وفى اسم أبيه والقضاء المسدد
ومحيي علومَ الدين بعد مماتها ... ومظهرِ أسرارِ الكتاب المسدد
أتتنا به البشرى بأن يملأ الدنا ... بقسط وعدل فى الأنام مخلد
و يفتتحَ الأمصار شرقاً ومغرباً ... و يملكَ عُرْباً من مُغيرٍ ومُنجدِ
وتتبعه للنصر طائفةُ الهدى ... فأكرم بهم إخوانُ ذى الصدق أحمدِ
هى الثلةُ المذكورُ فى الذكر أمرها ... وطائفةُ المهدى بالحق تهتدى
بهم يقمع الله الجبابرة الأولى ... يصدون عن حكم من الحق مرشد
و يقطع أيام الجبابرة التى ... أبادت من الإسلام كل مشيد
فيغزون أعراب الجزيرة عنوة ... و يعرون منها فارساً وكأن قد
و يفتتحون الروم فتح غنيمة ... و يقتسمون المال بالترس عن يد
و يغدون للدجال يغزونه ضحاً ... يذيقونه حد الحسام المهند
و ينزل عيسى فيهم وأميرهم ... إمامٌ فيدعوهم لمحراب مسجد
يصلى بهم ذاك الأمير صلاتَهم ... بتقديم عيسى المصطفى عن تعمد
فيمسح بالكفين منه وجوههم ... و يخبرهم حقــاً بعز مجدد

وما إن يزال الأمر فيه وفيهم   إلى آخر الدهر الطويل المسرمد
فأبلغ أمير المؤمنين تحيــة   على النأى منى والوداد المؤكد
عليه سلام الله ما در شارق   وما صدر الوراد عن وِرْدِ مورد

ومهما كان فى تصوير دعوة ابن تومرت وأسطورة المهدى على هذا النحو من إغراق ومبالغة، فلا ريب أن العامل الدينى كان أعظم دعامة فى قيام دولة الموحدين. ومع أن هذه الدولة نشأت فى البداية كدولة المرابطين دولة دينية ساذجة، فإنها ما لبثت أن استحالت إلى إمبراطورية دينية وسياسية عظيمة ، بسطت سلطانها على المغرب والأندلس ، وأعادت بقوتها على الإسلام فى اسبانيا مِنعته القديمة ، وبعثت إلى الأندلس حياة جديدة استطالت إلى أكثر من ثلاثة قرون أخرى[١].

(١) رجعنا فى هذا الفصل إلى المراجع التى ذكرناها فى الفصل السابق ، وإلى كتاب أبى بكر الصنهاجى المسمى « أخبار ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين » المنشور بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال . ومقرون بترجمة فرنسية بعنوان : Documents inédits d'Histoire Almohade

محمد بن الأحمر

مؤسس مملكة غرناطة

(٥٩٥ — ٦٧١ هـ) ، (١١٩٨ — ١٢٧٢ م)

يعرض لنا تاريخ الأندلس (إسبانيا المسلمة) منذ قيام الدولة الأموية ، ثلاث مراحل تمتاز كل منها بمميزات خاصة : الأولى مرحلة القوة والتفوق أعنى تفوق الدولة الإسلامية على اسبانيا النصرانية . والثانية مرحلة الفوضى والكفاح خلال عصر الطوائف والمرابطين والموحدين . والثالثة مرحلة الضعف والانحلال أيام مملكة غرناطة وهى مرحلة الكفاح الأخير . ومن الغريب أن هذه المراحل الثلاث تكاد تتساوى فى مداها الزمنى إذ يمتد كل منها زهاء قرنين ونصف قرن ؛ فقد عاشت الدولة الأموية منذ سنة ١٤٠ هـ إلى أواخر القرن الرابع . وامتدت دول الطوائف وسيادة المرابطين والموحدين منذ أواخر القرن الرابع إلى أوائل القرن السابع . وعاشت مملكة غرناطة منذ سنة ٦٣٥ هـ إلى سنة ٨٩٧ هـ (١٢٣٨ — ١٤٩٢ م) .

وقد كان شبح الفناء يهدد الأندلس منذ انحدرت إلى غمر التفكك والفوضى عقب انهيار الدولة الأموية وقيام دول الطوائف الصغيرة يقاتل بعضها بعضاً ، والعدو المشترك أعنى اسبانيا النصرانية يتربص بها ويؤلب إحداها على الأخرى ليسحقها تباعاً . ولم ينقذ الأندلس فى تلك الآونة العصيبة من الفناء سوى مقدم المرابطين من إفريقية إلى الجزيرة استجابة لصريخ أمراء الطوائف ، وانتصارهم فى موقعة الزلاّقة الشهيرة على النصارى (٤٧٩هـ — ١٠٨٦ م) واجتذبت الأندلس بنعمائها ومروجها الجميلة أولئك الغزاة الصحريين فاستولوا عليها ، وقضوا على ملوك الطوائف ، وقطعت الأندلس فى ظلهم ثم فى ظل خلفائهم الموحدين الذين استولوا على ملكهم فى إفريقية والأندلس

زهاء مائة وخمسين عاما ، وكانت حقبة مضطربة مليئة بالكفاح والحروب الأهلية . ولكن عناصر القوة والتكافؤ كانت فيها سجالاً بين المسلمين والنصارى .

ولما انهار سلطان الموحدين فى الجزيرة فى أوائل القرن السابع الهجرى عاد شبح الفناء يهدد الأندلس مرة أخرى وأخذت قواعدها العظيمة الباقية ، تسقط تباعاً فى يد إسبانيا النصرانية : قرطبة (٦٣٣هـ) و بلنسية (٦٣٦هـ) ومرسية (٦٤١هـ) وإشبيلية (٦٤٤هـ) ولكن عناصر الاضطراب والفوضى أخذت تتمخض هذه المرة عن ظاهرة جديدة من التجمع والاستقرار ، وأخذت عناصر القوة والتماسك تجتمع رويداً فى الركن الغربى الجنوبى من الجزيرة لتكون مهداً لمولد مملكة إسلامية جديدة ، هى مملكة غرناطة . وقيام هذه المملكة فى الطرف الجنوبى للدولة الإسلامية القديمة يرجع إلى عوامل تاريخية وجغرافية واضحة . ذلك أن القواعد والثغور الجنوبية التى تقع فيما وراء نهر الوادى الكبير آخر الحواجز الطبيعية بين إسبانيا النصرانية و بين الأندلس ، كانت أبعد المناطق عن متناول العدو وأمنعها ، وكانت فى الوقت نفسه أقربها إلى الضفة الأخرى من البحر : إلى عدوة المغرب وشمال إفريقية حيث تقوم دول إسلامية شقيقة وحيث تستطيع الأندلس وقت الخطر الداهم أن تستمد الغوث والعون من إخوانها فى الدين ؛ وقد كان لها فى ذلك منذ أيام الطوائف أسوة بل لقد كان صريخ الأندلس يتردد فى تلك الآونة ذاتها على لسان شاعرها وسفيرها ابن الأبار القضاعى حينما دهم العدو بلنسية فى سنة ٦٣٦هـ، وكان الصريخ موجهاً من أميرها ابى زيان إلى أبى زكريا الحفصى ملك إفريقية (تونس) وهو الذى ردده الشاعر فى قصيدته الشهيرة التى مطلعها :

أدرك بخيلك خيــل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درســا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل منك عز النصر ملتمســا

وفى قول الشاعر يتمثل هذا المغزى التاريخى الذى لبث أحقاباً يربط بين الأندلس و بين الدول الإسلامية الشقيقة فى عدوة المغرب، وقد كان يتمثل واضحاً كلما اشتد الخطر بالأمة الأندلسية ولاح لها شبح الفناء فى جزيرتها المنقطعة قوياً رهيباً .

٢

فى أوائل القرن السابع الهجرى ظهر فى شرقى الأندلس أبو عبد الله محمد بن يوسف ابن هود سليل بنى هود أمراء سرقسطة السابقين ، وأعلن الخروج والثورة على الموحدين. وكان سلطان الموحدين قد أخذ يضطرب ويتصدع فى الثغور والنواحى . وبدأ ابن هود فانتزع مرسية من الموحدين (٦٢٥هـ) وأخذ أمره يشتد من ذلك الحين ، وأعلن أنه يعتزم تحرير الأندلس من الموحدين والنصارى معاً ، ولم يمض سوى قليل حتى دخلت فى طاعته عدة من قواعد الأندلس ومنها جيّان وقرطبة وماردة وبطليوس . ثم استولى على غرناطة سنة ٦٢٨ هـ ، واستمر حيناً يخوض مع الموحدين والنصارى معارك متعاقبة . ولكن النصارى استطاعوا غزو قرطبة والاستيلاء عليها سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) فكان لسقوطها أعظم وقع فى الأندلس، وشغل ابن هود حيناً بمشاريعه الخاصة ثم لم يلبث أن توفى فى أوائل سنة ٦٣٥ هـ فى ظروف غامضة ، فكانت لوفاته نتائج هامة . ولم تكن ثورة ابن هود على الموحدين ونجاحه فى تحطيم سلطانهم ، فى الواقع سوى مقدمة لمرحلة جديدة من مراحل التاريخ الأندلسى ، أو بعبارة أخرى مقدمة لقيام مملكة أندلسية جديدة هى مملكة غرناطة .

ويرجع الفضل فى قيام مملكة غرناطة التى شاء القدر أن تكون ملاذ الأمة الأندلسية دهراً طويلاً آخر إلى عبقرية رجل من ذوى النباهة والعزم والتواضع معاً هو محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر ، سليل بنى نصر ، وهم فى الأصل سادة حصن أرجونة من أعمال قرطبة ، ويرجعون نسبتهم إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج فهم بذلك من أعرق البطون العربية . وكان لبنى نصر وجاهة وعصبية . وولد محمد بن يوسف فى أرجونة سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) ونشأ فى مهاد الفضيلة والتقشف ، جندياً وافر الجرأة والعزم يتزعم قومه ويقودهم إلى مواطن النضال ، وكان بالرغم من تقشفه وتواضعه يجيش بأطماع كبيرة ؛ وكانت حوادث الأندلس يومئذ تقدم لأولى العزم كثيراً من فرص الظهور والمغامرة ، فلما تفاقمت الفتنة واضطربت الشئون

فى الثغور والنواحى، وضعف أمر الموحدين وخرج عليهم محمد بن يوسف بن هود وأخذ ينتزع منهم القواعد والثغور تباعاً ، رأى بنو نصر الفرصة سانحة للظهور على مسرح الحوادث، ونهض كبيرهم محمد بن يوسف بن نصر لمعارضة ابن هود فى جنوبى الأندلس، ودعا للأمير زكريا صاحب إفريقية وأطاعته جيان وشريش ومالقة من القواعد الجنوبية (سنة ٦٣٠ هـ) . ولما لاح أن الأمر قد استتب لابن هود واستولى على غرناطة وجاءته موافقة الخليفة العباسى على دعوته، لم يرمحمد بن يوسف (ابن الأحمر) بأساً من مصانعته والانضواء تحت لوائه وجاهر بطاعته ، ولكن ابن هود لم يلبث أن توفى فى أوائل سنة ٦٣٥هـ كما قدمنا ، فانهارت دولته بسرعة، وعندئذ بادر ابن الأحمر بالاستيلاء على المرية من يد حاكمها من قبل ابن هود ، وقامت مدينة غرناطة فى الوقت نفسه بدعوته، ودعاه زعماؤها إلى دخولها فدخلها مغرب يوم من أواخر رمضان سنة ٦٣٥ هـ (أبريل سنة ١٢٣٨ م) فى حفل بسيط مؤثر وجعل بها مقر حكمه وقاعدة سلطانه .

وهكذا نشأت إمارة غرناطة الصغيرة من غمر الفوضى التى سادت الأندلس عند انهيار دولة الموحدين . ولكنها كانت فى حاجة إلى الاستقرار والتوطد . وكان ابن الأحمر يواجه فى سبيل هذه المهمة كثيراً من الصعاب ، وكانت الأندلس قد مزقتها الحرب الأهلية وانتثرت إلى حكومات ومناطق عديدة . وكان ابن الأحمر يحظى بتأييد جمهرة كبيرة من الشعب الأندلسى ولا سيما فى الجنوب ، ولكن أصاغر الزعماء والحكام كانوا يؤثرون الانضواء تحت لواء ملك النصارى ، والاحتفاظ فى ظله بمدنهم وقواعدهم على مظاهرة ابن الأحمر والانضواء تحت لوائه . وكان فرديناند الثالث ملك قشتالة يرى فى ابن الأحمر زعيم الأندلس الحقيق والخصم الذى يجب تحطيمه ؛ فما كاد ينتهى من إخضاع الثغور الشرقية ، حتى عمد إلى مهاجمة ابن الأحمر واستولى النصارى على حصن أرجونة وعدة أماكن أخرى من أملاك أمير غرناطة ، ثم حاصروا غرناطة ذاتها (٦٤٢ هـ — ١٢٤٤ م) ولكنهم ردوا عن أسوارها بخسائر فادحة . وفى العام التالى زحف النصارى على جيان وحاصروها حتى كادت أن تسقط فى أيديهم ؛ فلما رأى

ابن الأحمر تفوق النصارى وعبث المقاومة آثر مصانعة ملك قشتالة ومهادنته فسار إلى لقائه في معسكره وقدم إليه طاعته، واتفق على أن يحكم أراضيه باسمه وفي ظله ، وأن يؤدي له جزية سنوية قدرها مائة وخمسون ألف قطعة من الذهب . وتعهد بمعاونته في حروبه ضد أعدائه وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابي (الكورتيس) باعتباره من الأمراء التابعين للعرش ، وسلم إليه قلعة جيان رهينة بحسن طاعته . وهكذا أمنت غرناطة شر العدوان مدى حين ، وارتضى ابن الأحمر أن يضحي استقلاله مؤقتاً احتفاظاً بأراضيه وحتى تتوطد دعائم إمارته . وعاون النصارى في محاصرة إشبيلية والاستيلاء عليها تنفيذاً لعهده (٦٤٦هـ) . وكانت هذه المناظر المؤلمة تتكرر في تاريخ الأندلس منذ الطوائف حيث نرى كثيراً من الأمراء المسلمين يظاهرون النصارى على إخوانهم في الدين احتفاظاً بالملك والسلطان .

ولكن ابن الأحمر كان يقبل هذا الوضع المؤلم راغماً ، إنقاذاً لتراث لم يكتمل الرسوخ بعد ، وتنفيذاً لأمنية كبيرة بعيدة المدى . ذلك أنه كان يطمح إلى جمع كلمة الأندلس كلها تحت لوائه ، وإدماج ما تبقى من تراثها وأراضيها في مملكة موحدة تكون ملكاً له ولعقبه؛ ولم تكن تحدوه رغبة في توسع يجعله إلى الأبد أسيراً لحلفائه النصارى مثلما كان يفعل أسلافه زعماء الطوائف ، بل كانت تحدوه قبل كل شيء رغبة الاستقرار والتوطد داخل حدود إمارته المتواضعة، ومن ثم كانت مصانعته للنصارى ومهادنتهم في البداية . وكان جرياً على السياسة الأندلسية المأثورة يستمد عون ملوك العدوة ويوثق معهم أواصر المودة، فلما آنس في نفسه مقدرة على مواجهة النصارى والخروج على طاعتهم وحماية مملكته الفتية من عدوانهم ، لم يحجم عن مخاصمتهم ومحاربتهم، واستجاب لنصرته حلفاؤه بنو مرين وغيرهم من ملوك المغرب وأمدوه بالجند ، وظهرت الأندلس على عدوها في ميدان الحرب لأول مرة منذ انهيار دولة الموحدين ؛ واستطاع ابن الأحمر أن يهزم النصارى حينما غزوا أراضيه في سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م).

وكان ابن الأحمر يتمتع بخلال باهرة من الشجاعة والإقدام وشغف الجهاد والمقدرة

على التنظيم والبراعة السياسية ؛ وكان يعرف بالشيخ و يلقب بأمير المسلمين وهو اللقب الذى غلب على سلاطين غرناطة فيما بعد ؛ وهو الذى ابتنى حصن الحمراء الشهير وجعله داراً للملك ، وجلب له الماء وسكنه بأهله وولده ، والمرجح أن تلقيب محمد بن يوسف بابن الأحمر وتلقيب أسرته ببنى الأحمر إنما يرجع إلى إنشائه لحصن الحمراء ذاته . وكان يباشر الأمور بنفسه ، و يدقق فى جمع الأموال والجبايات ، حتى امتلأت خزائنه بالمال والسلاح . وكان يعقد للناس مجالس عامة يومين فى الأسبوع يستمع فيها إلى الظلامات وذوى الحاجات ، و يستقبل الوفود وينشده الشعراء ؛ وكان يجرى فى تصريف شئون الملك على قاعدة الشورى ، فيعقد مجالس يحضرها الأعيان والقضاة ومن إليهم من ذوى الرأى .

و إليك كيف يصور النقد الغربى الحديث خلال منشئ مملكة غرناطة وظروف مملكته : « كان محمد بن الأحمر من أبرع أولئك الأمراء الذين كان لهم فضل خلال العصور المضطربة فى الدفاع عن الإسلام ومجد المسلمين ، وكان جريئاً بعيد الغور ولكن مكره لم يكن راجعاً إلى خبث طبيعته ، بل إلى خلق خصومه الذين كان مرغماً على مقارعتهم . ففى العصور الوسطى كان قانون الأمم ، وعقد المعاهدات ومجاملات الفروسة وشروط السلم الشريف تفهم بطريقة ناقصة وكثيراً ما تنتهك بعمد ؛ وكانت معظم نقائص هذا الأمير ترجع إلى أخلاق العصر المنحلة ، وكانت بوادر خضوعه لأعدائه الألداء مظاهر فقط لسياسة محكمة التدبير أقدم عليها لإحراز ملكه وتوطيد سلطانه . وكان القشتاليون كلما احتلوا مدينة جديدة هرعت منها جمهرة من المهاجرين العاملين إلى غرناطة ، فتزيد سكانها كثرة على كثرة يحملون معهم ثروات عظيمة وصفات هى أثمن من الثروة لدولة منحلة: النشاط والاقتصاد والمقدرة على هضم الظروف الجديدة ، وذكرى المظالم السابقة وآلام المطاردة المجزنة ، وأمل الانتصاف ، وشعور لا يقهر ببغض النصرانية . وكان الاندفاع السياسى لهذه الجماعات المنفية المضطهدة فى حماية الجبال التى تظلل ملاذها الأخير ، هو الذى عاون

فى حفظ مملكة غرناطة الزاهرة لمجدها المستقبل ومحنتها الغامرة[١] » .

ولما توفى محمد بن الأحمر سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢ م) كانت مملكة غرناطة الصغيرة قد توطدت دعائمها نوعاً ، واستقر بها ملك بنى الأحمر الفتى على أسس ثابتة ، وكان من حسن الطالع أنه لم يظهر فى مملكة غرناطة زعماء خوارج ينازعون بنى نصر زعامتهم ولذا لم نشهد فى هذه الأندلس الجديدة مأساة الطوائف مرة أخرى ، وإن كان تاريخ الدوله النصرية لم يخل من ثورات وانقلابات محلية جديدة وقد كان من غرائب القدر أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة استطاعت غير بعيد أن تعيد لمحة من مجد الأندلس الذاهب ، كما استطاعت بكثير من الشجاعة والجلد أن تسهر على تراث الإسلام فى الأندلس زهاء مائتين وخمسين عاماً أخرى[٢] .

(١) راجع Scott : The Moorinsh Empire, in Europe V.II. p. 433

(٢) رجعنا فى هذا الفصل إلى تاريخ ابن خلدون وإلى كتاب الأحاطة فى أخبار غرناطة واللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية لأبن الخطيب ، وإلى نفح الطيب وأزهار الرياض للمقرى .

أبو عبد الله

آخر ملوك الأندلس

(٨٦٢ — ٩٤٠ هـ)، (١٤٥٨ — ١٥٣٤ م)

مأساة شهيرة فى التاريخ الإسلامى هى مصرع غرناطة ، آخر معقل للاسلام بالأندلس ، وشخصية محزنة هى شخصية آخر ملك أندلسى مسلم طويت على يده تلك الصفحة المجيدة الباهرة التى افتتحها موسى وطارق فى تاريخ الإسلام باسبانيا قبل ذلك بثمانية قرون .

ولقد أتينا فيما تقدم على ترجمة موسى بن نصير فاتح الأندلس ، ثم على ترجمة محمد بن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة خاتمة الممالك الأندلسية ؛ ونرى أن نأتى فى هذا الفصل على ترجمة أبى عبد الله محمد آخر ملوك غرناطة وملوك الإسلام بالأندلس .

لبثت اسبانيا المسلمة خلال قرون ثمانية تغالب إسبانيا النصرانية وتغالبها ؛ وما زالت الأندلس منذ انهيار صرح الدولة الأموية دائمة الخلاف والتفرق تسير أبداً فى طريق الضعف والانحلال ؛ واسبانيا النصرانية تجتمع دائماً على نضالها وغزوها ، وتنتزع منها تباعاً قواعدها وثغورها ، حتى إذا جاء القرن الثامن الهجرى لم يبق من دولة الإسلام الشامخة بالأندلس سوى مملكة غرناطة الصغيرة ، تواجه وحدها داخل الجزيرة عدوها القوى ؛ وسطعت هذه الأندلس الصغيرة مدى حين ولكنها لم تنج من خطر التفرق ، واسبانيا النصرانية أثناء ذلك متربصة بها تكاد تلتهمها من وقت إلى آخر ، لولا أن كانت صولة الإسلام فى الضفة الأخرى من البحر — فى المغرب الأقصى — تروعها أحيانا وتردها . وكانت مملكة غرناطة كلما تبينت شبح الخطر الداهم ، استغاثت بجارتها المسلمة القوية فيما وراء البحر أعنى دولة بنى مرين . ولكن

بنى مرين لم يستجيبوا دائماً إلى دعوة الإسلام المحتضر بالأندلس ، وكانت لهم غايات ومطامع فى الأندلس ذاتها ؛ وكانت إسبانيا النصرانية كلما آنست تصرم العلائق بين الأمتين الشقيقتين انقضت على الأندلس فاقتطعت منها ثغراً أو قاعدة جديدة ؛ وكان رجالات الأندلس يستشفون من وراء ذلك خطر الفناء المحقق ، بل لقد استشعر به ابن الخطيب وزير الأندلس وكاتبها الكبير قبل تحققه بأكثر من قرن ، وصرح به فى إحدى رسائله إلى ملك المغرب إذ يدعوه إلى غوث الأندلس ونجدتها ويقول: « ولاشك عند عاقل أنكم إن انحلت عروة تأميلكم أوأعرضتم عن ذلك الوطن استولت عليه يد عدوه » .[1] وهكذا نرى الأندلس منذ أوائل القرن التاسع الهجرى تسير بسرعة فى طريق الانحلال والفناء ، حتى إذا كانت أواخر هذا القرن لم يبق للاسلام فى اسبانيا سوى مملكة غرناطة الصغيرة وفيها مدن وثغور قلائل، تتربص بها النصرانية وتعد العدة لسحقها .

وكان على عرش غرناطة يومئذ السلطان أبو الحسن على بن سعد النصرى الأحمرى . ولى الملك سنة ٨٧١ هـ (١٤٦٦ م) ولكنه لم يستخلص الملك لنفسه إلا بعد نضال عنيف بينه وبين منافسيه ، وعلى رأسهم أخوه أبو عبد الله المعروف «بالزّغل» ، وكانت الحرب الأهلية تضطرم فى مملكة غرناطة كلما لاحت فرصة للتنازع على العرش . فلما استقر أبو الحسن فى عرشه أبدى همة فائقة فى تحصين المملكة وتنظيم شئونها ، وبث فيها روحاً جديداً من الثقة والطمأنينة ، واستطاع أن يسترد عدة من الحصون والقواعد التى افتتحها النصارى ، ولاح لإسبانيا النصرانية أن الأندلس المحتضرة تكاد تبدأ حياة جديدة . بيد أن هذا البعث الخلب لم يطل أمده . ذلك أن عوامل الخلاف الخالدة عادت تعمل عملها وبذر أبو الحسن حوله بذور السخط والغضب بما ارتكبه فى حق الأكابر والقادة من العنف والشدة وبما أغرق فيه من صنوف اللهو والعبث . وكان أبو الحسن قد اقترن بالأميرة عائشة ابنة عمه السلطان أبى عبدالله

---

(١) المقرى فى أزهار الرياض (مصر) ج ١ ص ٦٦ .

الأيسر ، ورزق منها بولدين هما محمد ويوسف . ولـكنه عاد فاقترن بنصرانية رائعة الحسن تعرف فى الرواية العربية « بثريا الرومية » ؛ وتقول الرواية الإسبانية إن « ثريا » هذه كانت ابنة عظيم من عظماء إسبانيا هو القائد (سانكو كمنيس دى سوليس) وإنها أخذت أسيرة فى بعض المعارك وهى صبية فتية ، وألحقت وصيفة بقصر الحمراء فهام أبو الحسن بها حباً ، ولم يلبث أن تزوجها واصطفاها على زوجه الأميرة عائشة المعروفة « بالحرة » تمييزاً لها من الجارية الرومية أو إشادة بعفتها وطهرها[1] . ولم يكن اقتران السلطان بنصرانية بدعة ، ولـكنه تقليد قديم فى قصور الأندلس ، وقد ولد كثير من خلفاء الأندلس وأمرائها العظام من أمهات من النصارى ، مثل عبد الرحمن الناصر وحفيده هشام المؤيد ؛ وكذا ولد بعض ملوك غرناطة من بنى نصر من أمهات من النصارى . ولم يكن الزواج المختلط نادراً فى المجتمع الأندلسى الرفيع ولاسيما منذ أيام الطوائف . وكان لهذ التقليد أثره السيئ فى انحلال عصبية الدولة الإسلامية ، بيد أنه كان أشد خطراً وقت الانحلال العام . وكان وجود أميرة أجنبية فى قصر غرناطة تستأثر بالسلطان والنفوذ فى هذا الظرف العصيب الذى تجوزه الأمة الأندلسية ، عاملاً جديداً فى إذكاء عوامل الخصومة والتنافس . ذلك لأن « ثريا » أعقبت من السلطان أبى الحسن ولدين وأرادت أن يكون العرش لأحدهما ، وبذلت كل ما استطاعت من الإغراء والدس لإبعاد خصيمتها الأميرة عائشة عن كل نفوذ وحظوة ، وحرمان ولديها محمد ويوسف من كل حق فى الملك . وكان أكبرهما أبو عبد الله محمد ولى العهد المرشح للعرش ، فنزل أبو الحسن عند سعى حظيته ، وأقصى عائشه وولديها عن عطفه ورعايته ، ومازالت ثريا فى سعيها ودسها ، حتى اعتقلهم أبو الحسن فى برج قمارش أمنع أبراج

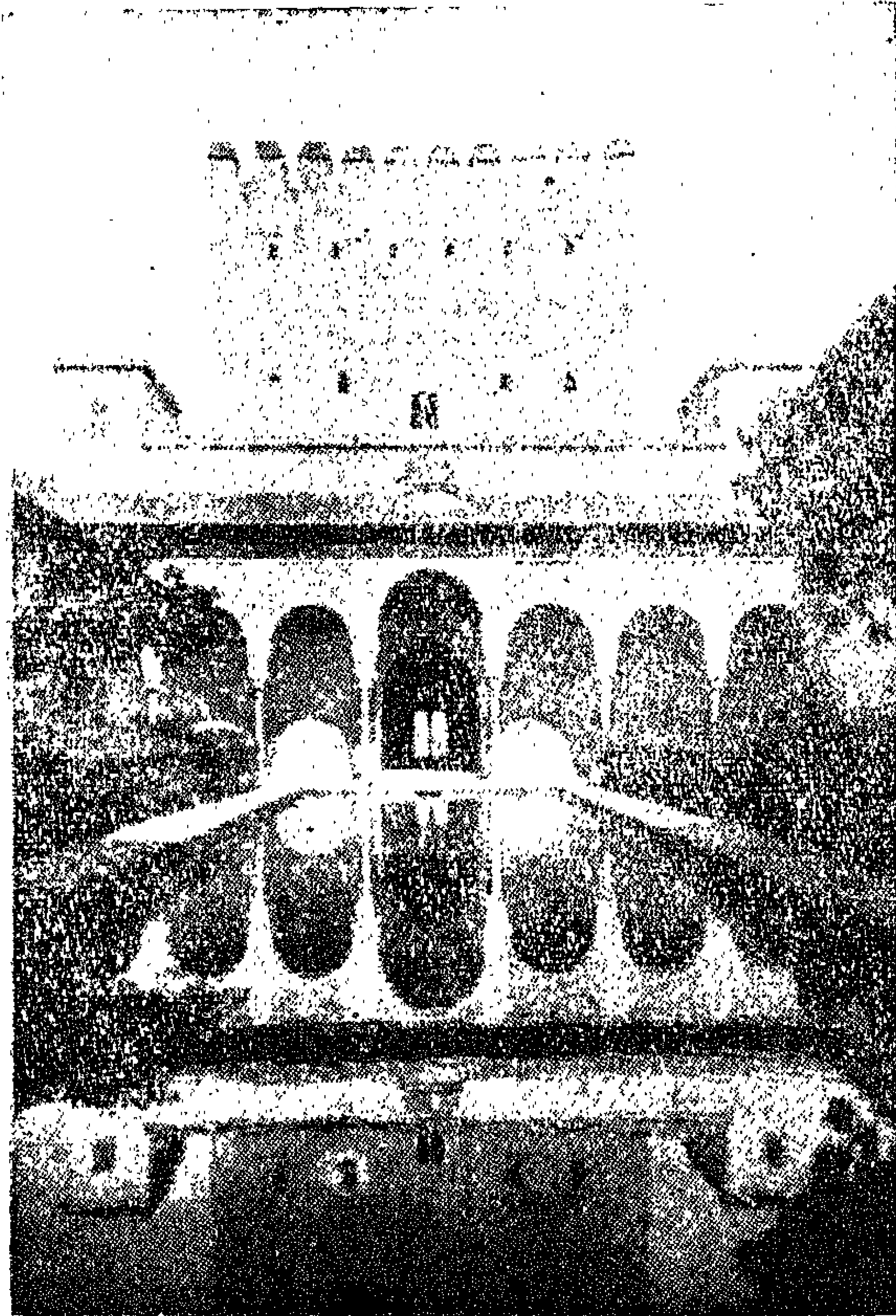
---

(١) راجع : Irving : Conquest of Granada حيث يورد أقوال الرواية الإسبانية عن شخصية ثريا (الفصل التاسع) . ولـكن الرواية العربية لا تذكر إلا أن « ثريا » كانت جارية رومية . راجع المقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ٦٠٨ ، وأخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر (طبعة ميلر) ص ٦ . ويتفق برسكوت مع الرواية العربية فى كتابه History of Ferdinand and Isabella p. 219

الحمراء ، وضيق عليهم وأخذ يعاملهم بمنتهى الشدة والقسوة . فأثار هذا التصرف غضب كثير من الكبراء الذين يؤثرون الأميرة الشرعية وولديها بعطفهم وتأييدهم ، وانقسم القصر وانقسم الزعماء والقادة إلى فريقين خصيمين ، واضطرمت الأهواء والشهوات والأحقاد ، واشتد السخط على أبى الحسن وحظيته التى أضحت سيدة غرناطة الحقيقية واستأثرت بكل سلطة ونفوذ .

وكانت الأميرة عائشة امرأة وافرة العزم والشجاعة ، فلم تستسلم إلى قدرها الجائر بل عمدت إلى الاتصال بعصبتها وأنصارها ، وأخذت تدبر معهم وسائل الفرار والمقاومة ؛ وفى ذات ليلة استطاعت أن تفر من الحمراء مع ولديها محمد ويوسف بمعاونة بعض الأصدقاء المخلصين . وتقدم الرواية إلينا عن هذا الفرار صوراً شائقة ، فتقول إن الأميرة استعانت بأغطية الفراش على الهبوط من نوافذ البرج الشاهق فى جوف الليل ، وأبدت فى ذلك من الجرأة والشجاعة ما يخلق بأبطال الرجال؛ وكان ذلك فى ليلة من ليالى جمادى الثانية سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م) . واختفى الفارون حيناً حتى قويت دعوتهم وظاهرهم فريق كبير من أهل غرناطة . وظهر الأمير الفتى أبو عبد الله محمد فى وادى آش حيث جمع عصبته وأنصاره ، ونشبت الثورة وانقضت العاصفة على أبى الحسن ، وكانت عصبته أقلية ففر إلى مالقة وكان بها وقتئذ أخوه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد (المعروف بالزغل) يدافع عنها جيشاً جراراً من النصارى سيره ملك قشتالة (فرديناند الخامس) لافتتاحها. وجلس أبو عبد الله محمد بن السلطان أبى الحسن مكان أبيه على عرش غرناطة فى أواخر سنة ٨٨٧ هـ ، وأطاعته غرناطة ووادى آش وأعمالها و بقيت مالقة وغربى الأندلس على طاعة أبيه ، وكان أبو عبد الله يومئذ فتى فى نحو الخامسة والعشرين .

وكان ملك قشتالة يرقب سير الحوادث فى مملكة غرناطة بمنتهى الاهتمام . فلما اضطرمت بنار الحرب الأهلية ، ولاحت له فرصة الغزو والفتح سير جيشه إلى مالقة لافتتاحها . ولكن المسلمين تأهبوا لرد النصارى بعزم وقوة وهزموهم فى عدة مواقع



برج قمارش (قصر الحمراء)

فيما بين مالقة و بلش (ڤيليز Velez) وهزم النصارى فى ظاهر مالقة هزيمة ساحقة ، وقتل وأسر منهم بضعة آلاف بينهم عدة من الزعماء والأكابر (صفر ٨٨٨ هـ — مارس ١٤٨٣ م) وكان منظم هذا الدفاع الباهر الأمير أبو عبد الله الزغل؛ فانتعشت آمال المسلمين نوعاً ، وسرت الحماسة إلى غرناطة واعتزم ملكها الفتى أن يحذو حذو عمه الباسل فى الجهاد والغزو ، وأن ينتهز فرصة اضطراب النصارى عقب الهزيمة ، فخرج فى قواته فى ربيع الأول من هذا العام (أبريل ١٤٨٣م) متجهاً نحو حصن قرطبة شمال شرقى غرناطة واجتاح فى طريقه عدداً من الحصون والضياع وهزم النصارى فى عدة معارك محلية، ثم ارتد مثقلاً بالغنائم يريد العودة فأدركه النصارى فى ظاهر قلعة اللسانة (لوتشينا Lucena) وكان يزمع حصارها ، ونشبت بين الجيشين معركة هائلة ارتد فيها المسلمون إلى ضفاف شنيل والنصارى فى أثرهم ، فهزم المسلمون هزيمة شديدة وغرق كثير منهم فى شنيل ، وقتل وأسر كثير من قادتهم وفرسانهم ، وكان بين الأسرى السلطان أبو عبد الله محمد نفسه ، عرفه الجند النصارى من الأسرى أو عرّفهم بنفسه خشية الاعتداء عليه ، وأخذوه إلى قائدهم الكونت كابرا (قبره) فاستقبله بحفاوة وأدب وأنزله بأحد الحصون القريبة تحت رقابة حرس قوى ، وأخطر فى الحال ملكى قشتالة (فرديناند وزوجه الملكة إيزابيلا) بالنبأ السعيد ، وعاد المسلمون إلى غرناطة دون ملكهم . فروعت غرناطة لهذه النكبة ، واضطرب الشعب واجتمع الكبراء والقادة وقرروا استدعاء أبي الحسن السلطان المخلوع ، ليجلس على العرش . ولكن أبا الحسن كان قد هدمه الإعياء والمرض وفقد بصره ، ولم يستطع أن يضطلع طويلا بأعباء الحكم ، فنزل عن العرش لأخيه محمد أبى عبد الله «الزغل» حاكم مالقة ، وارتد إلى المنكب فأقام بها حيناً حتى توفى (٨٩٠ هـ) ، وجلس الزغل على العرش يدبر شئون المملكة وينظم الدفاع عن أطرافها .

أما السلطان أبو عبد الله بن أبى الحسن ، فلبث يرسف فى أسره عند النصارى ، وأدرك ملك قشتالة فى الحال ما للأمير الأسير من الأهمية ، وأخذ يدبر أفضل الوسائل

للاستعانة به فى تحقيق مآربه فى مملكة غرناطة . وبذل أبو الحسن حين عوده إلى العرش مجهوداً لافتداء ولده ، لا حباً فيه وشفقة عليه ، ولكن لكى يحصل فى يده ويأمن بذلك شره ومنافسته ، وعرض على فرديناند نظير تسليمه أن يدفع له فدية كبيرة وأن يطلق عدداً من أكابر النصارى المأسورين عنده . فأبى فرديناند وآثر أن يحتفظ بالأسير إلى حين . وبذلت الأميرة عائشة من جهة أخرى مجهوداً آخر لإنقاذ ولدها بمؤازرة الحزب الذى يناصره ، واقترحت على ملك قشتالة معاهدة خلاصتها أن يتولى أبو عبد الله الملك فى ظل ملك قشتالة وتحت طاعته ، وأن يدفع له جزية سنوية ، وأن يطلق كل عام عدداً معيناً من الأسرى النصارى ، وأن يدفع مقابل إطلاقه فدية كبيرة ، وأن يفرج فى الحال عن أربعمائة من أسرى النصارى يختارهم ملكهم ، وأن يقدم المعاونة العسكرية كلما طلبت إليه ، وأن يقدم ابنه الوحيد كفالة مع عدد من أبناء الأسر الكبيرة[1] . ومع أن عقد هذه المعاهدة كان خطوة كبيرة فى سبيل القضاء على مملكة غرناطة ، فإن فرديناند رأى قبل عقدها أن يستغل أسر ملك غرناطة ، وأن يستعين به على تنفيذ برنامجه الحربى . وكان أبو عبد الله[2] أميراً ضعيف العزم والإرادة قليل الحزم والخبرة ، كثير المطامع والأهواء ، ولم يكن يتمتع بشىء من تلك الخلال الباهرة التى امتاز بها أسلافه وأجداده العظام بنو الأحمر . وكان المُلك والحكم غايته يبتغيها بأى الأثمان والوسائل . وقد ألفى ملك قشتالة القوى فى ذلك الأمير الضعيف المستهتر بحقوق أمته ودينه ، أداة صالحة يوجهها كيفما شاء ، فاتخذه وسيلة لبث دعوته بين أنصاره ومؤيديه فى غرناطة وغيرها ، وليقنع المسلمين بأن الصلح مع ملك قشتالة خير وأبقى . وسير ملك قشتالة فى الوقت نفسه قواته فى أنحاء مملكة غرناطة لكى تنتزع أثناء الاضطراب العام ، كل ما يمكن انتزاعه من

(١) پرسكوت فى كتابه المشار إليه ص ٢٣٤ ، وإيرفنج (الفصل التاسع)

(٢) نرى أن نشير إلى أن السلطان « أبو عبد الله » يعرف فى الرواية القشتالية والأفرنجية بوجه عام باسم (Boabdil) « بو عبديل » وهو تحريف لاسم أبى عبد الله .

القواعد والحصون الإسلامية ، فاستولت على عدة منها . ونشبت من جهة أخرى فى غرناطة حرب أهلية لم تكن بعيدة عن وحى أبى عبد الله وحزبه ، وقامت « البيّازين » ضاحية غرناطة بدعوته ، وشغل ملك غرناطة (أبو عبد الله الزغل) بإخماد الثورة عن مقاتلة النصارى . وفى نفس هذه الآونة العصيبة أطلق فرديناند سراح أبى عبد الله بعد أن ارتضى عقد المعاهدة التى عرضت عليه مع تعديل يسير فى بعض نصوصها ، وبعد لقاء تم بين الملكين فى قرطبة أعلن فيه أبو عبد الله خضوعه وطاعته لملك قشتالة ، واتُّفق أن تكون الهدنة لعامين ، وأن تُطبق فى جميع الأنحاء التى تدين بالطاعة لأبى عبد الله . وظهر أبو عبد الله يبث دعوته فى الأنحاء الشرقية والحرب الأهلية قائمة فى غرناطة (أوائل سنة ٨٩١هـ — ١٤٨٦م) . وبدأت المفاوضة بينه وبين عمه (ملك غرناطة) فى الصلح . ولكن حدث أثناء ذلك أن هاجم النصارى مدينة لَوْشة جنوب غربى غرناطة واستولوا عليها (جمادى الأولى سنة ٨٩١ هـ) . وكان موقف أبى عبد الله أثناء هذه الحوادث مريباً ، وكان يمزج الدعوة لنفسه بالدعوة لملك قشتالة ويشيد بمزايا الصلح المعقود معه . ولم يكن خافياً أنه يستظل بمظاهرة النصارى[1] . وفى شوال سنة ٨٩١ هـ ظهر أبو عبد الله فى البيازين فجأة ، واجتمع حوله أنصاره وأعلن الثورة على عمه ، ونشبت بينهما الحرب فى ظاهر غرناطة ، وأمد فرديناند حليفه أبا عبد الله بالجند والذخائر والمؤن ، واستمر القتال بينهما مدى أشهر . وفى ربيع الثانى سنة ٨٩٢ هـ(١٤٨٧م) سير فرديناند قواته إلى بلِّش مالقة (ڤيليز مالاجا) الواقعة على مقربة من ثغر مالقة ليفتتحها تمهيداً للاستيلاء على مالقة ، وأدرك أبو عبد الله الزغل أهمية بلش الحربية ؛ فهرع إلى الدفاع عنها مع بعض قواته ، وترك البعض الآخر لقتال أبى عبد الله وأهل البيازين . ولكن إقدام الزغل وعزمه وشجاعته لم تغن شيئاً وسقطت بلش فى يد النصارى (جمادى الأولى ٨٩٢ — أبريل ١٤٨٧م) ، وعاد الزغل بجنده ميمماً صوب غرناطة ، ولكنه علم أثناء

(١) راجع أخبار العصر ص ٢٢ و ٢٣ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٢ .

مسيره أن غرناطة قامت أثناء غيابه بدعوة أبى عبد الله ، وأنه دخلها وتبوأ العرش مكانه ، فارتد بصحبه إلى وادى آش وامتنع بها ، وانقسمت بذلك مملكة غرناطة الصغيرة إلى شطرين يتربص كل منهما بالآخر : غرناطة وأعمالها ، ويحكمها أبو عبدالله محمد؛ ووادى آش وأعمالها ، ويحكمها عمه أبو عبدالله الزغل ، وتحقق بذلك ما كان يبتغيه ملك قشتالة من تمزيق شمل البقية الباقية من دولة الإسلام بالأندلس تمهيداً للقضاء عليها .

٢

تبوأ أبو عبدالله عرش غرناطة للمرة الثانية فى أبريل سنة ١٤٨٥م بعد أن قضى فى أسر ملك قشتالة زهاء ثلاثة أعوام . وكانت الخطوب والفتن التى توالت على مملكة غرناطة قد مزقتها وأنهكت قواها ، ولم يبق منها بيد الإسلام سوى بضع مدن وقواعد متناثرة مختلفة الرأى والكلمة ، ينضوى بعضها تحت لواء أبى عبد الله ، والبعض الآخر تحت لواء عمه محمد بن سعد (الزّغل) ، وكان واضحاً أن مصير غرناطة يهتز فى يد القدر بعد أن نفذت جيوش النصرانية إلى قلبها ، واستولت على كثير من قواعدها وحصونها الداخلية . ولم يكن أبو عبد الله طبقاً للمعاهدة التى عقدها مع فرديناند ، سوى تابع لمملكة قشتالة يدين لها بالخضوع والطاعة . وكان ملك قشتالة يحرص من جهة أخرى على المضى فى تحقيق خطته لسحق البقية الباقية من دولة الإسلام فى الأندلس ، قبل أن يعود إليها اتحاد الكلمة فيبعث إليها روحاً جديداً من العزم والمقاومة . فبدأ بغزو القواعد الشرقية والجنوبية التى يسيطر عليها مولاى الزغل ، لأنه كان فى صلح مع غرناطة يمتد إلى عامين ، وقد أراد أن يسبغ على عهوده مسحة غادرة من الوفاء ، ولأنه أراد أولاً أن يعزل غرناطة وأن يطوقها من كل صوب . وزحف فرديناند بادئ بدء على مالقة أمنع ثغور الأندلس وعقد صلتها بالمغرب وطوقها بقوات كثيفة من البر والبحر وسقطت مالقة رغم دفاعها المجيد فى شعبان سنة ٨٩٢ هـ (أغسطس ١٤٨٧م) ، ثم استولى

فرديناند على المُنَكَّب والمرية (أواخر سنة ٨٩٤هـ — ١٤٨٩م) ثم على بسطة (المحرم ٨٩٥هـ — ديسمبر سنة ١٤٨٩ م) . ثم قصد إلى وادى آش آخر معقل لمولاى الزغل ؛ ورأى الزغل رغم شجاعته و بسالته أنه يغالب المستحيل ، وأن جيوش النصرانية تحيط به من كل صوب ، فانتهى إلى الإذعان والتسليم ، ودخل فرديناند وادى آش فى صفر سنة ٨٩٥هـ (يناير سنة ١٤٩٠م) واتُفق بادئ بدء أن يستمر الزغل فى حكم قواعده باسم ملك قشتالة وتحت حمايته ، وأن يلقب بملك اندَرَش ، وأن يمنح دخلاً سنوياً كبيراً ، ولكنه لم يلبث أن رأى أنه يستحيل عليه الاستمرار فى ذلك الوضع المهين ، فباع حقوقه لفرديناند مقابل مبلغ كبير ، وجاز البحر إلى المغرب ، واستقر فى تِلِمْسان يقضى بها بقية حياته فى غمر الحسرات والعدم ، وجاز معه كثيرون من الكبراء الذين أيقنوا أن نهاية الإسلام بالأندلس قد غدت قضاء محتوماً .

ثم جاء دور غرناطة آخر معقل للاسلام بالأندلس . وكانت جميع قواعد الأندلس الأخرى ، مالقة والمرية ووادى آش والحامة و بسطة ، قد غدت نهائياً من أملاك مملكة قشتالة وعين لها حكام من النصارى ، وتدجَّن أهلها أو غدوا مدجنين يدينون بطاعة ملك النصارى[1] ، وذاعت بها الدعوة النصرانية ، فارتد كثير من المسلمين عن دينهم حرصاً على أوطانهم ومصالحهم أو خشية الريب والمطاردة ، وجازت ألوف أخرى ممن خشوا على أنفسهم ودينهم إلى المغرب ، وتفرقوا فى ثغوره ، وهرعت ألوف أخرى إلى غرناطة تلوذ بها ، حتى غدت المدينة تموج بسكانها الجدد . وكان سلطان غرناطة أبو عبد الله يرقب هذه الحوادث جزعاً ، و يشعر أنها تسير إلى نتيجة محتومة ، هى سقوط غرناطة فى يد العدو الظافر . وكان قد تخلص بانسحاب عمه الزغل من الميدان من منافسه القوى ، ولكنه فقد فى نفس الوقت أقوى عضد يمكن

---

(١) المدجنون أو أهل الدجن (من تدجن ومصدره التدجن) كلة أطلقت على مسلمى الأندلس الذين دخلوا فى طاعة ملك النصارى واعترفوا بها ، ومقابلها الاسبانى Mudejares . وقد شاع استعمالها منذ القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) أعنى منذ كثر استيلاء النصارى على قواعد الأندلس .

الاعتماد عليه فى الدفاع والمقاومة . وسرعان ما بدت طوالع الخطر الداهم . و بعث فرديناند إلى أبى عبد الله يطلب إليه تسليم الحمراء[١] ، والبقاء فى غرناطة فى طاعته وتحت حمايته مثلما وقع لعمه الزغل ؛ فثار أبو عبد الله لذلك الغدر وأدرك — ور بما لأول مرة — فداحة خطئه فى محالفة ذلك الملك الغادر . وجمع الكبراء والقادة فأجمعوا على الرفض والدفاع حتى الموت عن وطنهم ودينهم ، ودوت غرناطة بصيحة الحرب ، وحُمل أبو عبد الله بعزم شعبه على القتال والجهاد ، وخرج فى قواته يحاول استرداد القواعد والحصون المسلمة المجاورة ، وثار أهل البشرات وما حولها على النصارى ، ووقعت بين المسلمين والنصارى عدة مواقع ثبت فيها المسلمون واستردوا كثيراً من الحصون والقرى فى تلك المنطقة (أواخر سنة ٨٩٥ هـ)، وعاد أبو عبد الله إلى غرناطة ظافراً ، وانتعشت قلوب الغرناطيين نوعاً بذلك النصر الخلب ، وأخذوا يتأهبون للدفاع بعزم . وغضب فرديناند لتلك المفاجأة التى لم يكن يتوقعها واعتزم أن يقوم بضر بته الحاسمة فى الحال ، فخرج فى ر بيع العام التالى (٨٩٦ هـ) فى جيش ضخم مزود بالمدافع والذخائر الوفيرة ، وسار توًّا إلى غرناطة ونزل بمرجها الجنو بى (La Vega) ، وأنشأ لجيشه فى تلك البقعة مدينة صغيرة مسورة سميت سانتافى (Santafé) (شنتفى) أو الإيمان المقدس رمزاً للحرب الدينية وهى ما زالت تقوم حتى اليوم . و بدأ حصار غرناطة فى جمادى الآخرة سنة ٨٩٦ هـ (مارس ١٤٩١ م)

ولسنا نقف طو يلاً عند حوادث هذا الصراع الأخير بين الإسلام والنصرانية فى الأندلس فهى تملأ فصولاً طو يلة مؤثرة فى الروايات العر بية والإفرنجية[٢] . و يكفى أن نقول إن غرناطة دافعت عن نفسها دفاعاً مجيداً ولم تدخر لاجتناب قدرها جهداً بشرياً ، وأن فروستها الشهيرة بذلت بقيادة زعيمها موسى ابن أبى الغسان أشجع

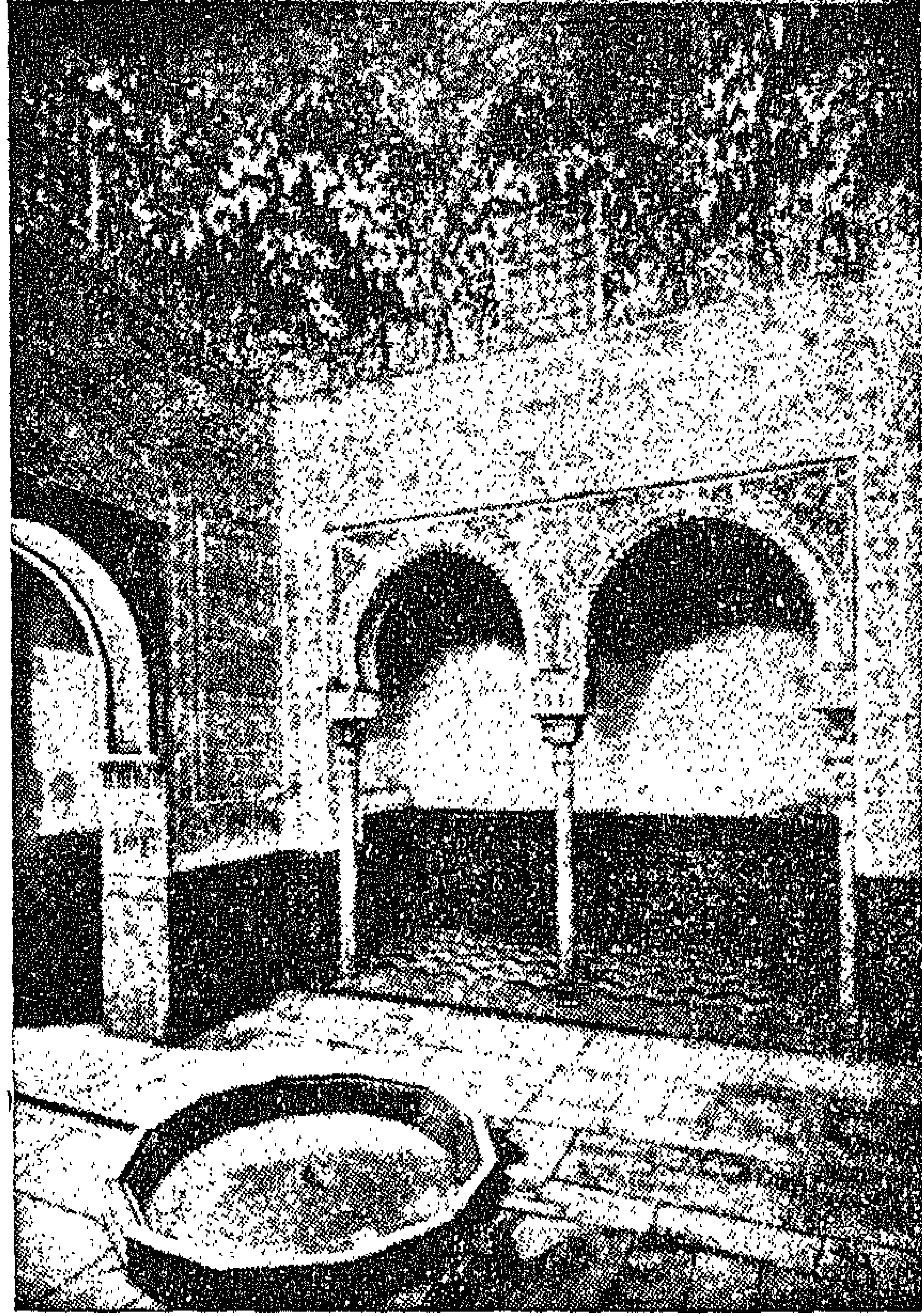
---

(١) هو قصر الحمراء الكبير وما حوله من الحصون والأبراج . وقد كان كما نعرف دار الملك والبلاط فى غرناطة .

(٢) راجع تفاصيل هذه الرواية فى أخبار العصر ص ٤٣ — ٤٨ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ وراجع كتابى « مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام» (الفصل السادس عشر) .

فرسان عصره ، ضروباً رائعة من البسالة ، وخرج المسلمون من مدينتهم المحصورة غير مرة وأثخنو فى النصارى ؛ ولكن الضيق كان يشتد بالمدينة المحصورة يوماً بعد يوم ، وتقل مؤنها شيئاً فشيئاً ويتساقط جندها تباعاً . وكانت مدى الربيع والصيف تستمد بعض المؤن من جهة البشرات من طريق جبل شُلير (Sierra Nevada) ، فلما دخل الشتاء غطت هذه السهول والشعاب بالثلج الكثيف وازدادت غرناطة ضيقاً واشتد بأهلها الجوع والمرض ؛ وهمّ أبو عبد الله بمفاوضة فرديناند فى التسليم غير مرة ولكن كان يمنعه موسى بن أبى الغسان ، وتحمله الحماسة العامة . فلما اشتد الخطب تقدم حاكم المدينة أبو القاسم عبد الملك وقرر أن المؤن تكاد تنفد ، وأن الجوع أخذ يعصف بالشعب ، وأن الدفاع عبث لا يجدى . واتفقت كلمة الزعماء والقادة على التسليم . وأرسل أبو القاسم لمفاوضة فرديناند فاستقبله بترحاب وحفاوة ، وتم الاتفاق على أن تسلم غرناطة بشروط كثيرة ، أهمها أن يؤمن المسلمون فى أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، وأن يحتفظوا بشريعتهم وقضائهم ، وأن يتمتعوا أحراراً بشعائر دينهم ، وأن تبقى المساجد حرماً مصونة ، وألا يولى عليهم نصرانى أو يهودى ، وأن يجوز منهم إلى المغرب من شاء على سفن يقدمها ملك النصارى ، وغير ذلك من الضمانات والشروط الخلابة[(١)] . وهكذا أذعنت غرناطة وسلمت وانتهت دولة الإسلام بالأندلس (صفر ٨٩٧ هـ — ديسمبر سنة ١٤٩١ م) وطويت إلى الأبد تلك الصفحة المجيدة الرائعة من تاريخ الإسلام فى أوربا ، وقضى على تلك الحضارة الأندلسية الشامخة وآدابها وعلومها وفنونها ، وكل ذلك التراث الباهر بالفناء والمحو ؛ ودخل النصارى غرناطة فى الثانى من ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ (٢ يناير سنة ١٤٩٢) واحتلوا حمراءها

(١) پرسكوت ص ٢٩٨ و ٢٩٩ ، وايرفنج (الفصل التاسع والتسعون) ويذكر إيرفنج فى خاتمة كتابه (فتح غرناطة) أنه توجد فى متحف جنة العريف (جنراليف) بغرناطة صورة لأبى عبد الله تمثله بوجه وسيم ولون جميل وشعر أصفر ، ويرتدى ثوباً أصفر يظلله حرير أسود ، وقلنسوة من الحرير الأسود ويعلوها التاج ، ويوجد فى متحف مدريد الحربى ثوبان مدرعان يقال إنهما كانا لأبى عبد الله ويبدو من حجمهما أن أبا عبدالله كان كبير القد قوى البنية ؛ ويخصص إيرفنج فى كتابه Tales of the Alhambra فصلين للذكريات والآثار الخاصة بأبى عبد الله .



بهو بنى سراج (قصر الحمراء)

وباقى قصورها وحصونها ، وخفق علم النصرانية ظافراً فوق صرح الإسلام المغلوب .

***

أما الملك التعس أبوعبد الله فقد قضت معاهدة التسليم أن يغادر غرناطة مع أسرته إلى البشرات ، وأن يحكم هذه المنطقة باسم ملك قشتالة وفى طاعته ، وأن يكون مقره فى قرية اندَرَش . ولما ذاعت أنباء التسليم اضطرم الشعب غضباً وسخطاً على أبى عبد الله ، واعتبره مصدر كل مصائبه ومحنه ، فبادر أبو عبد الله بالأهبة للسفر مع أسرته وخاصته وحشمه ، و بعث بأمواله ونفيس متاعه إلى مقره الجديد فى أندرش ؛ وفى نفس اليوم الذى دخل النصارى فيه غرناطة غادر أبو عبد الله قصره ، وموطن عزه ومجد آبائه وأجداده إلى الأبد ، وخرج للقاء عدوه الظافر فى سرية من الفرسان والخاصة، فاستقبله فرديناند فى محلته على ضفة شنيل . وتصف الرواية هذا المنظر المؤثر فتقول إن أبا عبد الله حين رأى فرديناند هم بترك جواده ، ولكن فرديناند بادر بمنعه، وعانقه بعطف ورعاية ، ثم قدم إليه أبوعبد الله مفاتيح الحمراء قائلاً : «إن هذه المفاتيح هى الأثر الأخير لدولة العرب فى اسبانيا ، وقد أصبحت أيها الملك سيد تراثنا وديارنا وأشخاصنا . هكذا قضى الله فكن فى ظفرك رحيماً عادلاً » . وسار أبو عبد الله بعد ذلك صحبة فرديناند إلى حيث كانت زوجه الملكة إيزابيلا فقدم إليها تحياته وخضوعه ، ثم انحدر إلى طريق البشرات ليلحق بأسرته وخاصته .

وهنا تقول الرواية إن أبا عبد الله أشرف أثناء مسيره فى شعب تل البذول (بادول) على مناظر غرناطة ، فوقف يسرح بصره لآخر مرة فى هاتيك الربوع العزيزة التى ترعرع فيها وشهدت مواطن عزه ، وسلطان آبائه وأجداده ، فانهمر فى الحال دمعه وأجهش بالبكاء ، فصاحت به أمه عائشة : « أجل فلتبك كالنساء ملكا لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال » . وتعرف الرواية الإسبانية تلك الأكمة التى كانت مسرحاً لذلك المنظر المحزن باسم شعرى مؤثر هو زفرة العربى الأخيرة (El Ultimto Sospiro del Moro) وما تزال قائمة حتى اليوم يعينها سكان تلك المنطقة للسائح المتجول .

ثم تقول الرواية أيضاً إن باب غرناطة الذى خرج منه أبو عبدالله لآخر مرة قد سد عقب خروجه برجاء منه إلى ملك قشتالة و بنى مكانه حتى لا يجوزه من بعده إنسان .

لم يطل مكث أبى عبد الله بمقره فى أندَرَش ولم تمض أشهر قلائل حتى أدرك كما أدرك عمه من قبل ، أنه يستحيل عليه البقاء فى هذا الوضع الشاذ كعامل لملك قشتالة . وكان فرديناند من جانبه ينظر إلى وجوده بعين الريب ، ويخشى أن يكون مثار الفتنة . وعوّل أبو عبد الله أن يحذو حذو عمه فى الجواز إلى إفريقية ، ونزل لفرديناند عن حقوقه نظير مبلغ كبير ، ثم جاز بأسرته وماله ومتاعه من ثغر المريّة إلى المغرب فى سفن أعدت لجوازه (١٤٩٣ م) ونزل أولا بمليلة ثم قصد إلى فاس واستقر بها ، وتقدم إلى ملكها السلطان محمد شيخ بنى وطاس الذين خلفوا بنى مرين فى الملك ، مستجيراً به ، مستظلا بلوائه ورعايته ، معتذراً عما أصاب الإسلام فى الأندلس على يده ، متبرئاً مما نسب إليه . وقد بسط أبو عبدالله دفاعه فى كتاب طويل مؤثر كتبه عن لسانه كاتبه ووزيره محمد بن عبد الله العربى العقيلى وسماه « بالروض العاطر الأنفاس فى التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس » . وهذا الدفاع الشهير الذى يقدمه إلينا أبو عبد الله عن موقفه وتصرفه هو قطعة رائعة من الفصاحة السياسية ، وهو يدل فى روحه وقوته على فداحة التبعة التى شعر آخر ملوك الأندلس أنه يحملها أمام الله والتاريخ ، وعلى أن هـذا الأمير المنكود لم يرد أن ينحدر إلى غمر النسيان والعدم ، محكوماً عليه دون أن يبسط للتاريخ قضيته . ويفتتح دفاع أبى عبد الله بقصيدة رائعة هذا مطلعها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم ... رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن ... جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلباً ... وأفظع الخطب مايأتى على الرغم
حكم من الله حتم لامرد له ... وهل مرد لحكم منه منحتم
كنا ملوكا لنا فى أرضنا دول ... نمنا بها تحت أفنان من النعم

فأيقظتنا سهام للردى صبت يرمى بأفجع حتف من بهن رُمى
فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا وأى ملك بظل الملك لم ينم

وهى طويلة جداً يمتدح فيها ملوك فاس ويشيد بعلاقتهم القديمة مع بنى الأحمر. ويشير أبو عبد الله بعد ذلك إلى حوادث الأندلس ويعتذر عن نكبته ويعترف بخطئه فى عبارات مؤثرة يقول فيها: « اللهم لا برئ فاعتذر، ولا قوى فانتصر، ولكنى مستقيل مستنيل مستغيث مستغفر. وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء ». بيد أنه يدفع عن نفسه تهم الزيغ والتفريط والخيانة بشدة ويقول: « ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير ما فيها، وأعطى أمانه المؤكد فيه خطه بأيمانه، مايقنع النفوس ويكفيها، فلم نر ونحن سلالة بنى الأحمر، مجاورة الصفر، ولا يسوغ لنا الإيمان الإقامة بين ظهرانى الكفر، ما وجدنا على ذلك مندوحة ولو شاسعة ». ثم يرثى ملكه بعبارات مؤثرة منها: « ثم عزاء حسناً وصبراً جميلاً عن أرض ورثها من شاء من عباده، معقباً لها ومديلاً، وسادلاً عليهم من ستور الإملاء الطويلة سدولاً، سنة الله التى قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا، فليطر الطائر الوسواس المرفرف مطيراً، كان ذلك فى الكتاب مسطوراً، لم يستطع غير مورده صدوراً، وكان أمر الله مقدوراً »(١).

تلك خلاصة الدفاع الشهير الذى تركه آخر ملوك الأندلس للخلف من بعده، وفيه يقف أبو عبد الله موقف المذنب البرئ معاً، فهو لاينتصل من جميع الأخطاء، ولكنه يتنصل من تبعة ماحدث ويصور نفسه قبل كل شىء ضحية القدر، ويدفع عن نفسه بالأخص تهمة التفريط والخيانة والزيغ؛ فإلى أى حد تتفق هذه الصورة مع الحقيقة ومع منطق الظروف والحوادث؟ لقد تبوأ أبو عبد الله عرش غرناطة لأول مرة وهو فتى فى الخامسة والعشرين، ثم عاد إلى تبوئه بعد ذلك بعدة أعوام. وكان جلوسه فى كل مرة نتيجة لحرب أهلية مدمرة. وقد نشأ هذا الأمير الضعيف فى بلاط منحل

---

(١) أورد المقرى هذا الكتاب بنصه فى نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ — ٦٢٨، وفى أزهار الرياض (مصر) ج ١ ص ٧٢ — ١٠٢.

يضطرم بصنوف الدس والخصومة ، ولم تهيئه تربيته وصفاته للاضطلاع بمهام الملك ، ولا سيما فى مثل تلك الظروف المؤلمة الدقيقة التى كانت تجوزها مملكة محتضرة . أجل كانت الأندلس تسير إلى قدرها المحتوم قبل المأساة ببعيد ، ولم يك ثمة شك فى مصير غرناطة بعد أن سقطت جميع قواعد الأندلس الأخرى فى يد العدو القوى الظافر . ولكن ليس من شك فى أن الأواخر من ملوك غرناطة يحملون كثيراً من التبعة فى التعجيل بوقوع المأساة . وكان آخرهم أبو عبد الله أفدحهم تبعة وإثماً . ألم يجنح إلى محالفة العدو الخالد ، وإلى استعداء ملك النصارى على أبيه وعمه ، لكى ينتزع الملك لنفسه ؟ ثم ألم يعمل بتصرفه وانسياقه الأعمى إلى محالفة ملك قشتالة على تمزيق البقية الباقية من وحدة مملكته وأمته ؟ ولقد تفتحت له الحوادث غير بعيد عن المنحدر العميق الذى دفعته إليه أطماعه وتصرفاته ، فكانت النكبة وكانت الخاتمة المؤسية .

أليس لنا بعد ذلك أن نحكم على آخر ملوك الأندلس ؟ إن أبا عبد الله يحمل أمام الله والتاريخ تبعة لاريب فيها . بيد أنه من الحق أيضاً أن نقول إنها ليست تبعة الخيانة أو الجريمة العمد بل هى تبعة « التفريط » والخطأ وعدم التبصر فى العواقب .

***

واستقر أبو عبد الله فى فاس فى ظل بنى وطاس ، وشيد بها قصوراً على طراز الأندلس رآها وتجول فيها المقَّرى مؤرخ الأندلس بعد ذلك بنحو قرن (١٠٣٧ هـ ١٦٣٨ م) . وعاش الملك المنكود فى منفاه طويلاً يتقلب فى غمر الحسرات والذكريات المفجعة ، وتوفى بعد المأساة بنحو أربعين عاماً فى سنة ٩٤٠ هـ (١٥٣٤ م) ودفن بفاس وترك ولدين هما يوسف وأحمد . واستمر عقبه متصلاً معروفاً بفاس مدى أحقاب ولكنهم انحدروا قبل بعيد إلى هاوية البؤس والفاقة . ويذكر لنا المقرى أنه رآهم سنة ١٠٣٧ هـ فقراء معدمين يعيشون من أموال الصدقات(١) . وفى بعض الروايات الإسبانية أن أبا عبد الله توفى قتيلاً فى موقعة نشبت بين السلطان أحمد الوطاسى

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

و بنى سعد الخوارج عليه فى وادى أبى عقبة وقاتل فيها أبو عبد الله إلى جانب أصدقائه بنى وطاس وذلك سنة ٩٤٣ هـ (١٥٣٦م)[1] . بيد أنها رواية ظاهرة الضعف لأن أباعبدالله يكون فى هذا التاريخ قد جاوز السبعين، ومن الصعب أن نتصورأنه يخوض مثل هذه المعارك الطاحنة بعد أن هدمه الإعياء والهرم . هذا إلى أن الرواية الإسلامية فى هذا الموطن أدعى إلى الترجيح والثقة .

و يعرف أبوعبدالله آخر ملوك الأندلس بالملك الصغير ، و بالإسبانية 'El Rey Chico' تمييزاً له من عمه أبى عبد الله الزغل . و يلقب بالزغيبى أو عاثر الحظ تنويهاً بما أصابه وأصاب الإسلام على يده من الخطوب والمحن .

هذه قصة نهاية الأندلس وقصة آخر ملوكها . وقد لبثت الأمة الأندلسية المغلوبة زهاء قرن آخر تعانى فى ظل السياسة الإسبانية الغاشمة أمر ضروب الذلة والعبودية وأروع ضروب البطش والاستشهاد ، وتسير إلى التحلل والفناء ببطء ، حتى كان إخراج البقية الباقية من الموريسكين أو العرب المتنصرين من الأراضى الإسبانية سنة ١٦٠٩م ، و بذلك أسدل الستار نهائياً على المأساة الأندلسية .

---

(١) راجع إيرفنج فى الملحق الخاص بنهاية أبى عبد الله ؛ وراجع الاستقصاء فى تاريخ المغرب الأقصى للسلاوى ج ٢ ص ١٦٨ .

المقـــرى

مؤرخ الأندلس

(٩٩٢—١٠٤١هـ) ، (١٥٨٤—١٦٣٢ م)

يستطيع كل من يعنى بتاريخ الأندلس أن يقدر أهمية التراث الحافل الذى تركه لنا المقّرى عن تاريخ الأندلس وآدابها ، وأهمية الشذور الضافية والوثائق الجمة التى ينقلها إلينا فى كتابيه « نفح الطيب » و « أزهار الرياض » ، ولولاه لغاضت مع مصادرها الأصلية إلى الأبد ، وحيل بيننا و بين الوقوف عليها والانتفاع بها .

ولهذا يجدر بنا وقد رجعنا فيما أوردناه من التراجم الأندلسية ، إلى المقرى فى غير موضع ، أن نقرن هذه التراجم بترجمة المقرى ذاته ، وأن نستعرض تراثه الأدبى والتاريخى الضخم .

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد الشهير بالمقرى نسبة إلى مقرة، موطن أسرته القديم ، وهى بلدة من أعمال قسنطينة ، و إليها ينتسب عدة من علماء المغرب الأكابر . ولد ، كما يحدثنا فى مقدمة كتابه « نفح الطيب » ، بمدينة تلمسان ونشأ بها[1] ، ولم يذكر لنا تاريخ مولده وهو تاريخ يضعه بعض الباحثين المحدثين فى نحو سنة ١٠٠٠ هـ (١٥٩١ – ١٥٩٢م)[2] . بيد أنه يلوح لنا من تتبع نشأة المقرى وحوادث حياته حسبما يقصها علينا أنه ولد قبل ذلك التاريخ بعدة أعوام ، فهو أولاً يذكر لنا أنه « نشأ بتلمسان إلى أن رحل عنها فى زمن الشبيبة إلى مدينة فاس سنة تسع وألف »[3] ، فلو كان مولده سنة ١٠٠٠ لما تحدث هنا عن الشبيبة إذ

(١) نفح الطيب (طبعة القاهرة) ج ١ ص ٨ .
(٢) الأستاذ ليڤي بروڤنسال فى دائرة المعارف الإسلامية.
(٣) سلافة العصر ص ٥٩٠ .

يكون عمره عندئذ تسعة أعوام فقط أعنى غلاماً حدثاً وهو ما لا ينصرف إليه الشباب ، ثم يشير حين التحدث عن اعتزامه كتابة موسوعته عن الأندلس ، إلى شبابه الذاهب ، الذى قضاه بالمغرب قبل وفوده على مصر سنة ١٠٢٧ هـ (١) . وفى هذه الإشارة أيضاً ما يدل على أن المقرى حين مقدمه إلى مصر كان قد طوى مرحلة الشباب الأولى ، وربما كان يومئذ فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره ، وعلى ذلك يكون مولده قبل الألف بنحو ثمانية أعوام ، أعنى حوالى سنة ٩٩٢ هـ (١٥٨٤ م) .

ونشأ المقرى فى تِلِمسان التى نشأ بها أبوه وأجداده من قبل ، وتلقى بها دراسته الأولى ودرس الأدب والحديث والفقه المالكى دراسة حسنة ، وكان بين أساتذته عمه أبو عثمان سعيد المقرى مفتى تلمسان ؛ وكانت تلمسان ما زالت حتى عصره من أهم مراكز الدراسة الدينية بالمغرب ؛ وزار فاس لأول مرة سنة ١٠٠٩ هـ وقضى بها حيناً فى الدرس ثم زارها مرة أخرى فى سنة ١٠١١ ، ثم استقر بها منذ سنة ١٠١٣ ؛ وكان ذلك فى فاتحة عصر السلطان أبى المعالى زيدان السعدى ؛ وسنحت له فى فاس عاصمة المغرب الدينية والعلمية فرص الدرس المستفيض ، ولا سيا فى المكتبة السلطانية ، واتصل بمولاى زيدان وآله الأشراف السعديين أمراء مراكش ، وولى الإمامة والخطابة لجامع القَرَويين الشهير ، ثم ولى الإفتاء واستمر فى منصبه حتى سنة ١٠٢٧ هـ (٢) .

وفى أواخر سنة ١٠٢٧ هـ اعتزم المقرى الرحلة إلى المشرق . والظاهر أنه لم يعقد هذا العزم مختاراً ، وأنه أرغم عليه لأسباب وظروف يشير إليها ولا يوضحها فهو يقول لنا إنه « لما قضى الملك الذى ليس لعبيده فى أحكامه تعقب أو رد ... برحلتى من بلادى ونقلتى عن محل طارفى وتلادى بقطر المغرب الأقصى الذى تمت محاسنه لولا

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٥٦

(٢) خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٠٢ ، وسلافة العصر ص ٥٩٠ .

أن سماسرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصاً وطما به بحر الأهوال ... وذلك فى أواخر رمضان من عام سبعة وعشرين بعـد الألف تاركا المنصب والأهل والوطن والإلف ... »[١]. أما هذه الظروف التى يشير إليها المقرى والتى قضت عليه بالرحيل عن الوطن فنستطيع فهمها على ضوء الحوادث التى كانت تجوزها مملكة فاس يومئذ ، فقد تولى مولاى زيدان الملك دون أخويه المأمون وأبى فارس (سنة ١٠١٢ هـ) ولم يلبث أن نشبت بينهما حروب أهلية متوالية ، وهزم مولاى زيدان أولاً وفر إلى تلمسان ثم استعاد ملكه بعد عدة محاولات دموية ، و بعد أن أجلى عنه غير مرة ، فى سنة ١١٠٨ هـ. بيد أن عهده كان مضطرباً فياضاً بالحروب والفتن ، ولا ريب أن المقرى لم ترقه هذه الحياة المضطربة وأنه اضطر إلى مغادرة المغرب تفادياً من عواقب الفتن والدسائس المستمرة التى كانت تكدر صفو الحياة فى فاس ؛ وعلى كل حال فقد غادر المقرى وطنه فى أواخر سنة ١٠٢٧ هـ وركب البحر إلى مصر وعانى من اضطرابه وروعته أهوالاً يصفها لنا فى عبارات قوية مروعة[٢]. والظاهر أيضاً أن سفينته كانت تخشى مطاردة القرصان النصارى فكان الخوف مضاعفاً وقد كانت مياه البحر الأبيض المتوسط يومئذ مسرحا لمعارك هائلة مستمرة بين سفن المسلمين والنصارى. ووصل إلى مصر بعد رحلة شاقة مزعجة فى أواخر سنة ١٠٢٧ هـ ونزل بالقاهرة فبهرته معالمها ومحاسنها برغم ما أصابها فى ظل الحكم التركى من عفاء وتدهور ، وأقام بها أشهراً ؛ ثم اعتزم الرحلة إلى الحج فى أواخر سنة ١٠٢٨ هـ (١٦١٨ م) فركب البحر إلى الحجاز وطاف بالأماكن المقدسة وعاد إلى القاهرة فى المحرم من العام التالى ؛ ثم زار بيت المقدس فى شهر ربيع الأول وعاد إلى القاهرة واستقر بها وتزوج سيدة مصرية من سيدات الأسرة الوفائية[٣] ولكنه لم يكن زواجاً موفقاً وقد فصمت عراه كما

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٨ ، وراجع أيضاً أزهار الرياض (طبع مصر) ج ١ ص ٣ .

(٢) راجع وصف المقرى لأهوال البحر فهو بديع شائق ج ١ ص ١٩ و ٢٠ .

(٣) خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٠٤ .

سنرى بعد أعوام من الحياة الزوجية الكدرة . وكرر المقرى الرحلة إلى الحجاز ، وأدى فريضة الحج مراراً فلم تأت سنة ١٠٣٧ هـ حتى كان قد أداها خمس مرات، وجاور أثناء الحج فى مكة وفقاً لتقاليد العصر ، وألقى بها كثيراً من دروسه ، وأملى الحديث فى المدينة ، وعاد إلى مصر من حجته الخامسة فى فاتحة سنة ١٠٣٧ هـ (١٦٢٧ م) .

واستقر المقرى فى القاهرة طوال هذه الأعوام ، ولازم الدرس والتدريس بالجامع الأزهر ، وتبوأ مكانته فى مجتمع مصر العلمى والأدبى وفى رجب سنة ١٠٣٧ هـ زار المقرى بيت المقدس مرة أخرى وألقى بعض دروسه بالجامع الأقصى ، ثم غادرها بعد بضعة أسابيع إلى دمشق ، فبهرته محاسنها كما بهرته القاهرة من قبل ورحب به كبير علمائها ومفتيها الشيخ عبد الرحمن عماد الدين ، واتصل بكثير من أدبائها وأعيانها و بالأخص بالمولى أحمد أفندى شاهين وهو من أعيانها الأدباء ، وألقى بعض دروسه فى الحديث فى الجامع الأموي فاحتشد الطلاب حوله من كل صوب وحفل به المجتمع الدمشقى، وكان يبكى السامعين بخطبه ومواعظه و يتسابق العلماء والطلاب إلى لثم يده ، وكان أثناء إقامته بدمشق يكثر الحديث فى حلقاتها الأدبية عن الأندلس ومحاسن تاريخها وذكرياتها ، و بالأخص عن وزيرها الكبير ابن الخطيب، فاقترح عليه صديقه المولى أحمد شاهين أن يضع كتاباً فى التعريف بابن الخطيب ومناقبه وتراثه من نظم ونثر فاعتذر أولاً بكثرة مشاغله وقلة مادته ومراجعه وخصوصاً لأنه ترك معظمها فى المغرب ، ولكنه اضطر إزاء الإلحاح أن ينزل عند هذه الرغبة ، ووعد بالوفاء عند عوده إلى القاهرة[١] .

وعاد المقرى إلى القاهرة بعد أن أنفق فى دمشق بضعة أسابيع وعكف حيناً على إنجاز المهمة التى أخذها على نفسه أعنى كتابة ترجمة ابن الخطيب ، والتعريف بمآثره وتراثه، ويقول لنا إنه استطاع غير بعيد أن ينجز منه قسماً لا بأس به ولكن عاقته عن إتمامه مشاغل وهموم ؛ والظاهر أن المقرى لم يكن فى مقامه النائى عن وطنه هانئاً

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٣٤ — ٣٨ .

قرير البال فهو يحدثنا غير مرة عن آلام الغربة ومتاعبها ومما يقول فى ذلك « وليت شعرى علام يحسد من أبدل الاغتراب شارته ، وأضعف الاضطراب إشارته ، وأنهل بالدموع أنواءه ، وقلل أضواءه ، وكثر علله وأدواءه ، وغير عنده التأمل رواءه ، وثنى عن المأمول عنانه ، وأرهف بالخمول سنانه ، حتى قدح الذكر حنانه ، وملأ الفكر جأشه وجنانه . . . وشتان ما بين الاقتراب والاغتراب ، والسكون فى الركون ، والنبو عنها والاضطراب ، فذاك تسهل غالباً فيه الأغراض والمآرب ، وهذا تتعثر فيه المقاصد وتتكدر المشارب :

وما أنا عن تحصيل دنيا بعاجز ولكن أرى تحصيلها بالدنية
وإن طاوعتنى رقة الحال مرة أبت فعلها أخلاق نفس أبية

وقوله :

تركت رسوم عزى فى بلادى وصرت بمصر منسى الرسوم
وصنت النفس بالتجريد زهداً وقلت لها عن العلياء صومى
مخافة أن أرى بالحرص ممن يكون زمانه أحد الخصوم »[1]

كان المقرى إذن فى منفاه متعباً معنًّى ، والظاهر أنها كانت متاعب العيش فوق شجون الاغتراب ، فقد كانت سوق العلم والأدب يومئذ كاسدة ، وكان المجتمع القاهرى قد فقد فى ظل النير التركى بهاءه وسعته ورخاءه ، وعفت روعة الأزهر الذى كان من قبل موئل الوافدين من كل صوب .

ولكن المقرى عاد فاستأنف الكتابة نزولاً على إلحاح صديقه أحمد شاهين واستنجازه ، واستطاع أن يتم كتابه عن ابن الخطيب بصورته الأولى فى بضعة أشهر فقط لعودته من دمشق ، وذلك فى أواخر شهر رمضان سنة ١٠٣٨ هـ (١٦٢٨ م) ، وفيه يتناول حياة ابن الخطيب و يستعرض صفاته وخلاله ومآثره وكثيراً من نثره ونظمه ،

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٣٩ و ٤٠

ويقول لنا إنه سمى مؤلفه لأول مرة « عرف الطيب فى التعريف بالوزير ابن الخطيب »[١] .

غير أن ذلك المؤلف الأول لم يكن هو « نفح الطيب » كما انتهى إلينا . ذلك أن المقرى خطرت له بعد الفراغ من التعريف بابن الخطيب فكرة أخرى ، هى أن يمهد لكتابه بذكر الأندلس وتاريخها ومحاسنها وذكرياتها ، وتطورت هذه الفكرة حتى غدت هيكل الكتاب الأصلى ، فاستمر فى الكتابة عاماً و بضعة أشهر أخرى ، وأتم مؤلفه حسب وضعه الجديد كما يحدثنا فى خاتمة كتابه فى آخر ذى الحجة سنة ١٠٣٩هـ (١٦٢٩ — ١٦٣٠ م)[٢] ، واختار عندئذ لكتابه اسماً جديداً ، هو الذى انتهى به إلينا وهو :

« نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب »

والواقع أنه من التواضع أن يُسمى « نفح الطيب » كتاباً فهو كما سنرى موسوعة ضخمة عن الأندلس تاريخها وجغرافيتها وآدابها ؛ ومن المدهش حقاً أن يستطيع المقرى أن يضع مثل هذا الأثر الضخم فى مثل هذه المدة القصيرة ولكن سنرى أن فضل المقرى فى وضعه يرجع إلى الاقتباس أكثر مما يرجع إلى التأليف ، وسنرى مع ذلك أن للمقرى فى هذا الاقتباس فضلاً لا يقدر ، وأن نفح الطيب هو أقيم مصادرنا العربية عن تاريخ الأندلس وآدابها .

وكان المقرى منذ عوده من دمشق قد طلق زوجته الوفائية ، ووضع بذلك حداً لتلك الحياة الزوجية الكدرة . وما كاد يتم مؤلفه حتى أزمع العودة إلى دمشق ليتصل فيها بأصدقائه وليطلعهم على مؤلفه الذى وضعه نزولاً على إشارتهم . ولكن الموت

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٦١ .
(٢) « « فى خاتمة الجزء الرابع .

عاجله فتوفى فى جمادى الآخرة سنة ١٠٤١ هـ (يناير سنة ١٦٣٢ م) ودفن بقرافة المجاورين بالقاهرة[1] .

٢

يقسم المقرى كتابه عن الأندلس إلى قسمين كبيرين : يخصص أولهما للتعريف بالأندلس وتاريخها وآدابها ، والثانى للتعريف بابن الخطيب ، ويشتمل كل قسم على ثمانية أبواب . ويشمل الأول وصف الأندلس وجغرافيتها وفتحها على يد موسى وطارق ، وتاريخها فى عهد الولاة وبنى أمية وملوك الطوائف ، ووصف قرطبة ومعاهدها وضواحيها ومتنزهاتها ، ثم التعريف بالراحلين من الأندلس إلى المشرق والوافدين من المشرق على الأندلس ؛ واستعراض آداب الأندلس ومنثورها ومنظومها ، ثم تاريخ الصراع الأخير بين الأندلس وإسبانيا النصرانية وسقوطها الأخير فى يد النصارى . ويشتمل القسم الثانى على نشأة ابن الخطيب وتدرجه فى طريق المجد ، وما لقى من الأحداث والمحن ، حتى وفاته ، وذكر أساتذته وأشياخه وما وجه إليه من الرسائل الملوكية ومن أكابر عصره ، ومقتطفات كبيرة من كتبه ورسائله ونثره ونظمه ، وذكر مؤلفاته ، وذكر بعض تلامذته الآخذين عنه ، ثم ذكر أولاده ووصيته .

ويشغل الكتاب كله أربعة مجلدات ضخمة كل قسم مجلدين ، فهو كما قدمنا موسوعة صحيحة سواء من ناحية حجمه أو محتوياته ؛ ذلك أن المقرى يحشد فى كل باب من هذه الأبواب العامة كثيراً من المعلومات والشذور والوثائق والرسائل والمختارات ، ويكاد كل منها يضارع كتاباً بأسره . ويجرى المقرى على قاعدة الاستطراد فينتقل بقارئه من موقف إلى موقف ، ومن شذرة أو رسالة أو قصيدة إلى أخرى حسبما تسوقه شجون الكلام والرواية ، وقد ترد خلال حديثه أهم المعلومات والوثائق حيث لا ينتظر ورودها . وفى كثير من الأحيان ينقل المقرى إلينا رسالة بأسرها أو كتاباً بأسره ،

---

(١) يقول صاحب سلافة العصر : إن وفاة المقرى كانت فى سنة ١٠٤٦ هـ (ص٥٩١) ، ولكن الرواية الأولى أرجح وهى المتفق عليها .

ولا يعنى المقرى بالتنظيم والتناسق ، وإنما يعرض مادة كتابه مبعثرة حسب التقسيم البسيط الشامل الذى ذكرناه .

ذلك أن المقرى لم يكن مؤرخاً بالمعنى الحقيقى بل كان أديباً فقط ، وهو لا يزعم أنه مؤرخ أو محقق أو ناقد وإنما يقول لنا إنه ناقل فقط يورد من المعلومات والشذور ما اتفق ولا يعنى بتمحيصها أو تحقيقها[١] ؛ ولكنا مع ذلك نشعر أن للمقرى فى كتابه شخصية قوية ونشعر بالأخص أن حرارة خاصة تنبعث من هذه الصحف الأندلسية . ذلك أن المقرى يكتب عن الأندلس بروح يضطرم إعجاباً وأسى ، ولا غرو فقد كانت ذكريات الأندلس ما تزال فى عصره حية مضطرمة فى المغرب ، ولم يكن قد مضى أكثر من قرن على سقوط الأندلس النهائى فى يد إسبانيا النصرانية ، بل لقد وقع فى عصر المقرى بالذات حادث أذكى هذه الذكريات المشجية هو نفى «الموريسكيين» أو العرب المتنصرين من إسبانيا (فى سنة ١٠١٧هـ - ١٦٠٩م). والعرب المتنصرون هم بقية الشعب الأندلسى المجيد أرغموا على التنصر بعد سقوط الأندلس ، وقد وفدت منهم عند النفى عشرات الألوف إلى ثغور المغرب وقواعده ، وعاد معظمهم إلى الإسلام؛ وشهد المقرى هذه الخاتمة المؤسية وهو يومئذ بفاس ، وشهد ألوفاً من أولئك العرب المتنصرين وتركت هذه الذكريات والمشاهد المؤلمة فى نفسه أعمق الآثار[٢] ، وأذكت فى نفسه بلا ريب شغف التنقيب عن تاريخ الأندلس وأحوالها وآدابها ، ولم يستصحب معه حين الرحلة سوى القليل منها ، ومنها أوراق سودها وأشياء علقت بذاكرته ، ويقول لنا أيضاً: «إنه لو أحضر ما خلفه مما جمع فى ذلك الغرض وألف لقرت به عيون وسرت ألباب . . .»[٣] . وإذا كان المقرى يعنى بهذا القليل من مادته ما ضمنه كتابه فلا ريب أن ما جمعه من المواد الأصلية كان غزيراً جداً ؛ ذلك لأن هذا القليل الذى

---

(١) راجع إشارة المقرى إلى ذلك فى نفح الطيب ج ١ ص ١٣٦ .

(٢) راجع حديث المقرى عن هذا الحادث ج ٢ ص ٦١٧ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٥٧ .

ضمنه « نفح الطيب » هو فى ذاته مجموعة حافلة من المواد والوثائق المختلفة التى تلقى أعظم الضياء على تاريخ الأندلس وآدابها .

وقد قلنا إن المقرى ناقل ومصنف ، ولكن له فى هذا النقل والتصنيف فضلاً لا يقدر ، فقد نقل إلينا عشرات الشذور والوثائق من مصادر أندلسية جليلة لا وجود لها اليوم ، بل نقل إلينا رسائل وكتباً برمتها بددت ولم نظفر بأصولها حتى اليوم ، ولولا عناية المقرى بنقلها وتصنيفها لحرمنا إلى الأبد من هذه المراجع والوثائق الهامة ؛ ولقد كان المغرب الأقصى حتى عصر المقرى أعظم مستودع لتراث الأندلس الأدبى ، وكانت مكاتب المغرب ولا سيما مكتبة الأشراف السعديين ، عامرة إلى ذلك العهد بكثير من الآثار الأندلسية النادرة ، وكان لمولاى زيدان سلطان فاس لعهد المقرى شغف خاص بجمع الكتب النادرة ؛ وقد انتفع المقرى بهذا التراث الحافل واغترف منه وقيد ما شاء . ولكن الظاهر أيضاً أن هذا التراث قد بدد معظمه بعدئذ بقليل . ذلك أنه قد حدث فى أواخر عهد مولاى زيدان حادث يخيل إلينا أن له علاقة مباشرة بضياع الآثار الأندلسية ، وذلك أن السفن الأسبانية أسرت مركبا مغربية مشحونة بآلاف من الكتب والتحف المملوكة لمولاى زيدان وحملت شحنتها إلى إسبانيا . ويشير السلاوى فى تاريخه إلى ذلك الحادث نقلاً عن الرواية الإسبانية فيقول: « وقال منويل إن قراصين الأصبنيول غنمت فى بعض الأيام مركباً للسلطان زيدان فيه آثار نفيسة من جملتها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة وغير ذلك »(١) . وتقول الرواية الإسبانية إن وقوع هذا الحادث كان فى عهد فيليب الثالث ملك إسبانيا (١٥٩٨ — ١٦٢١م) والظاهر أنه وقع نحو سنة ١٠٣٠هـ (١٦٢٠م) حينما اشتد اضطراب العلائق بين إسبانيا والمملكة الشريفية . وعلى أى حال فقد حُملت كتب مولاى زيدان وهى بلا ريب أنفس مجموعة من نوعها إلى اسبانيا ، وأودعت فى قصر الإسكوريال إلى جانب بقية التراث الأندلسى التى كانت مودعة

(١) الاستقصاء فى أخبار دول المغرب الأقصى ج ٣ ص ١٢٨ .

فيه منذ سقوط غرناطة ، فاجتمع بذلك فى الإسكوريال نحو عشرة آلاف مخطوط عربى معظمها من تراث الأندلس ؛ ولكن محنة نزلت بهذا التراث النفيس فقد شبت النار فى الإسكوريال سنة ١٦٧١ والتهمت معظم الكتب العربية ، ولم يبق منها سوى ألفين، و بقيت ضمن هذه المجموعات عدة من كتب مولاى زيدان لا تزال إلى يومنا فى الإسكوريال .

وهذا فيما نعتقد هو السر فى اختفاء الآثار الأندلسية التى كانت تحفل بها قواعد المغرب ومكاتبه فى عصر المقرى ، وقد جمع المقرى مادته ودون مذكراته أثناء مقامه بفاس بين سنتى ١٠١٣ — ١٠١٧ هـ (١٦٠٣ — ١٦٠٦م) وكان بذلك من أواخر أولئك الذين استطاعوا من أدباء جيله أن يظفروا بمراجعة هذا التراث والانتفاع به . ومما يدل على أن المقرى انتفع بنوع خاص بالمراجعة فى مكتبة مولاى زيدان التى فقدت ، أنه ينقل عن نسخة وحيدة من مسند ابن مرزوق المغربى كانت ضمن هذه المجموعة ولا تزال فى الإسكوريال[1] ، وكذلك يستقى معظم روايته عن سقوط غرناطة وعن العرب المتنصرين من كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » ومنه نسخة وحيدة أيضاً فى الإسكوريال[2] .

ولا يتسع المقام هنا لاستعراض المصادر العديدة التى نقل عنها المقرى ، ما ضاع منها وما يزال قائماً ، ويكفى أن نقول إن طائفة كبيرة من المصادر الأندلسية الجليلة التى ينقل عنها قد اختفت ودرست معالمها ، ومن ذلك تاريخ ابن حيان الكبير مؤرخ الأندلس وتواريخ الحميدى والحجارى وابن بشكوال والرازى وغيرهم ، وكتب عديدة لابن الخطيب ، وقد بقيت من تاريخ ابن حيان قطعة صغيرة نشرت أخيراً ، ووجدت منذ أعوام بالمغرب نسخة كاملة من كتاب الذخيرة لابن بسّام ، وفيما عدا ذلك فلم

(١) ليفى بروفنسال فى دائرة المعارف الإسلاميه (مقال المقرى) .

(٢) نشر هذا الكتاب — وهو لمؤلف مجهول — فى أواخر القرن الماضى بعناية أحد المستشرقين الألمان مقروناً بترجمة ألمانية

يظفر البحث الحديث بشىء من تلك المصادر الجليلة ، التى ينقل إلينا المقرى عنها بسخاء يزيد اليوم فى فضله وفى أهمية كتابه .

* * *

ويتصل بمجهود المقرى عن الأندلس كتابه « أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض » وهو سفر كبير يخصصه لترجمة الفقيه الكبير عياض السبتى واستعراض آثاره على نحو ما يكتب عن ابن الخطيب فى نفح الطيب ؛ بيد أنه يستطرد كعادته ويذهب فى الحديث شجوناً شتى ، وينقل إلينا بعض الأقوال والوثائق المتعلقة بسقوط غرناطة وتاريخ الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، ولهذه الوثائق على قلتها وإيجازها أهمية خاصة ، لأنها كل ما انتهى إلينا من الرواية الإسلامية فى هذا الموطن وهى أقوال معاصرين للمأساة شهدوا بعض حوادثها بأعينهم أو سمعوا أخبارها فى الضفة الأخرى من الأندلسيين الوافدين على المغرب ، منها رسالة لمجهول يظهر أنه من معاصرى سقوط غرناطة يصف فيها نقض ملك قشتالة لعهوده إزاء المسلمين ، وما اتخذه النصارى من وسائل الإرغام والقهر لإكراه المسلمين على التنصر ، وما فرضته محاكم التحقيق (التفتيش) على المخالفين من العقوبات المروعة ، ومنها قصيدة طويلة لأبى العباس أحمد الدقون أحد علماء المغرب فى القرن التاسع وعنوانها « الموعظة الغراء بأخذ الحمراء » يرثى فيها الأندلس ، ومنها أيضاً وثيقة ذات أهمية تاريخية خاصة ، وهى رسالة كتبها أندلسى متنصر عقب سقوط غرناطة إلى بايزيد الثانى سلطان الترك يستغيث به ويستصرخه لنصرة إخوانه العرب المتنصرين ، ويصف له فى شعر قوى التعبير على الرغم من ركاكته ، ما يصيب العرب المتنصرين من أهوال ديوان التحقيق وروائع مطاردته وعقوباته ؛ وهذه وغيرها من الوثائق والشذور التى ينقلها إلينا المقرى فى « أزهار الرياض » قد ضاعت أصولها ، ولولا عناية المقرى بنقلها لما ظفرنا بها .

وهذان الأثران الكبيران هما أهم ما فى تراث المقرى . بيد أن للمقرى ثبتاً آخر من

الكتب والرسائل الأدبية والدينية انتهى إلينا معظمه ، ومن ذلك « إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة » و « فتح المتعال في مدح النعال المستشرفة بخير الأنام » و « حسن الثنا في العفو عمن جنى » و « قطف المهتصر في أخبار المختصر » و « عرف النشق في أخبار دمشق » و « روض الآس العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس » و « الدر الثمين في أسماء الهادي الأمين » وغيرها[١] .

وقد كتب المقري معظم كتبه في القاهرة ، والمرجح أنها كتبت جميعاً أو كتب معظمها قبل نفح الطيب ، لأن المقري لم يعش بعد كتابته طويلاً كما رأينا وكان المقري يحتل في المجتمع القاهري الأدبي مكانة رفيعة ، ويكفي أن نذكر هنا ما وصفه به المحبي الذي ترجمه بعد ذلك بنحو نصف قرن « حافظ المغرب لم ير نظيره في جودة القريحة وصفاء الذهن وقوة البديهة ، وكان غاية باهرة في علم الكلام والتفسير والحديث ، ومعجزاً باهراً في الأدب والمحاضرات » .[٢] والواقع أن المقري يكتب بأسلوب قوي وبيان ساحر ، يشهدان له بغزارة البلاغة في عصر كان الأدب العربي يجوز فيه مرحلة انحطاط قوي .

* * *

وقد أخرجت مطبعة بولاق كتاب « نفح الطيب » كاملاً في ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢م) في أربعة أجزاء كبيرة ، وكان جماعة من المستشرقين على رأسهم العلامة دوزي قد عملت قبل ذلك لإخراج القسم الأول من كتاب نفح الطيب وهو الخاص بالأندلس بين سنتي ١٨٥٥ و ١٨٦١ تحت عنوان : Analectes sur l'Histoire et la Littérature des Arabes d'Espagne ومهد لهذه الطبعة المستشرق دوجا بترجمة للمقري . وطبع « نفح الطيب » بالقاهرة بعد ذلك أكثر من مرة في أربعة أجزاء أيضاً على

---

(١) راجع خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٠٢ وما بعدها ، وسلافة العصر ص ٥٩١ .
(٢) المحبي في خلاصة الأثر .

نسق طبعة بولاق، ونشر فى تونس الجزء الأول من «أزهار الرياض» فى سنة ١٩٢٢ :[١] ونشرت بعض آثار المقرى الأدبية مثل كتاب « حسن الثنا فى العفو عمن جنى » (القاهرة) . وظهرت فى سنة ١٨٤٠ فى لندن ترجمة انجليزية ملخصة للقسم الأول من نفح الطيب بقلم المستشرق الإسبانى الدون جاينجوس تحت عنوان : « تاريخ الدول الإسلامية فى إسبانيا » The History of the Mohamedan Dynasties in Spain مقروناً بتعليقات وفهارس قيمة ؛ وترجم للمقرى غير من ذكرناهم أكثر من مستشرق مثل ڤستنفلد فى كتابه « مؤرخو العرب » (بالألمانية) و بروكلمان فى « تاريخ الأدب العربى » (بالألمانية أيضاً) والأستاذ ليڤي بروڤنسال فى كتابه « مؤرخو الأشراف » بالفرنسية وآخرون غير هؤلاء .

(١) وقد بدىء باخراجه كاملا منذ بضعة أعوام بعناية بيت المغرب بالقاهرة ، وصدر منه بالفعل ثلاثة أجزاء عن مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ثبت المراجع

١ — مراجع الكتاب الأول

تاريخ الطبرى المسمى تاريخ الأمم والملوك .
الكامل لابن الأثير (طبع مصر)
تاريخ أبى الفدا
تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر)
التعريف بابن خلدون (النسخة المخطوطة)
تاريخ بغداد للخطيب البغدادى
كتاب الأغانى
العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى
الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية (المطبوع بعناية المستشرق آلفارت)
الملل والنحل لأبى الفتح الشهرستانى (على هامش كتاب الفصل لابن حزم)
الروضتين في تاريخ الدولتين لشهاب الدين المقدسى (طبع مصر)
فضائح الباطنية للغزالى (المطبوع بعناية المستشرق جولد تسهر)
الإفادة والاعتبار لعبد اللطيف البغدادى (طبع مصر)
النجوم الزاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى (طبع دار الكتب)
المنهل الصافى لأبى المحاسن بن تغرى بردى (مخطوط)
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب لابن واصل (مخطوط)
السلوك فى دول الملوك للمقريزى (طبع مصر)
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزى
حسن المحاضرة للسيوطى
عجائب المقدور فى أخبار تيمور لابن عربشاه (طبع مصر)
وفيات الأعيان لابن خلكان

٢ — مراجع للكتاب الثانى

أخبار مصر وفتوحها لابن عبد الحكم
أخبار مجموعة فى فتح الأندلس (مدريد سنة ١٨٦٧)
تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية (مدريد ١٨٦٨)
البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى المراكشى
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى (طبع مصر)
أزهار الرياض للمقرى
معجم البلدان لياقوت
الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى (طبع مصر)
الحلة السيراء لابن الأبار القضاعى (المطبوعة بعناية العلامة دوزى)
المسالك والممالك لابن حوقل
نزهة المشتاق للادريسى (طبع رومة)
روض القرطاس لابن أبى زرع الفاسى
قلائد العقيان للفتح بن خاقان
المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشى
الحلل الموشية لابن الخطيب
أخبار المهدى ابن تومرت لأبى بكر الصنهاجي (المطبوع بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال)
تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين (المنشور بعناية بيت المغرب)
أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر (المطبوع بعناية المستشرق ميللر)

***

Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne (1930)
Condé: Histoire de la Domination des Arabes en Espagne
Scott : History of the Moorish Empire
Iring : Conquest of Granada
Prescott: History of Ferdinand and Isabella
Michaud: Histoire des Croisades
Lane-Poole: A History of Egypt in the Middle Ages
Gibbon: Decline and Fall of the Roman Empire
Von Hammer: Geschichte der Assassinen
Encyclopédie de l'Islam

فهرست الموضوعات

صفحة

الكتاب الأول

تراجم شرقية

الكتاب الثانى

تراجم أندلسية

فهرس الصور

فهـــرس أبجدى عام

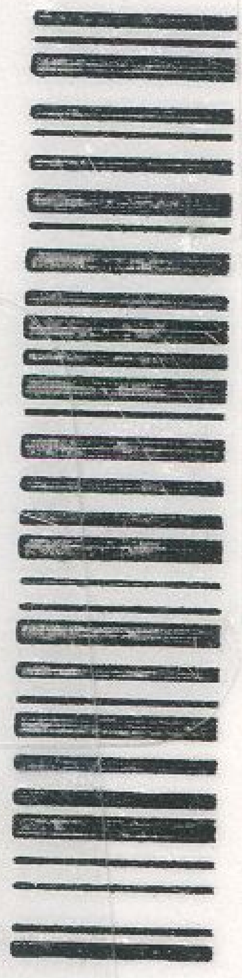
ب — ث

ج — خ

ل — ن

هـ — ى

١٩٤٧/١٨٦٥



الثمن ٣٠ ص